
عصير
الكتب





الكتـــــاب: من وراء حجاب
المـــؤلـــف: منى سلامة
تـدقيـق لغـوي: عبدالله أسامة
تنسيـق داخلي: سمر محمد
رقـــم الإيـــداع: 2016 / 25959
978-977-6541-18-4 :I.S.B.N

المدير العام: محمد شوقي
مدير النشر: أحمد حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
01150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

من وراء حجاب

رواية

منى سلامة





عصير
الكتب

إن كنت أيها القارئ تتساءل، هل هذه الرواية التي بين يديك الآن حقيقة أم خيالية؟

فدعني أهمس لك:

الحقيقة خيال إن أنكرتها..
والخيال حقيقة إن صدقته.

المؤلفة



إهــــــداء

إلى من علمتني أن للقلب عيون

إلى "يارا ربيع"



عصير
الكتب

(١)

الكتاب فيه حبر قاتل

- يجب على عقلاء هذا البلد أن ينبذوا الفرقة، وأن يكونوا يدًا بيد في مواجهة تلك الكارثة الإنسانية. ما يحدث بالمحافظة الشمالية الآن سيتكرر في باقي المحافظات، ولن تلبث أن تحرق نيران الحرب الأهلية كل شبر في أرض بلادنا. أهلنا يبيد بعضهم بعضًا؛ فماذا أنتم فاعلون؟!

أطفأ مندوب شركة الشحن مذياع السيارة، دون أن ينتظر سماع اقتراحات ضيف البرنامج للقضية المطروحة. صفع مقود السيارة وهو يطلق سبة أتبعها بلعنة، لا يعرف تحديدًا لمن يوجهها، لكنه على يقين أن هناك من يستحقها. ترجَّل من السيارة حاملًا طردًا صغيرًا مغلفًا بظرف بلاستيكي يحمل شعارًا بارزًا لشركة الشحن التي يعمل بها. ألقى نظرة مطوَّلة على البناية الشاهقة قبل أن يخطو بخطوات حثيثة نحو حارسها الذي ما إن رآه حتى تحفَّزت قسماته، وترك مقعده ليلاقيه ويغلظ له القول:

- أفندم، أنت مرة أخرى!

حكَّت قطة سوداء جسدها الهزيل في بنطاله طالبة للدفء، فركلها حتى ماءت بضعف، ابتعدت وهي تجر ذيل الحسرة. قال مندوب شركة الشحن بحدة لم يبذل جهدًا في إخفائها:

- وكأنني آتي إلى هنا برغبتي، اسمع يا هذا لقد مررت بيوم أسود من قرن الخروب فابتعد عن طريقي.

لمعت شارة الحارس المثبتة فوق قميصه والتي تحمل اسمه بخط واضح، أجابه بتحدٍ:

- على جثتي، لن أسمح لك بدخول البناية قبل أن يأذن لك أحد سكانها.



لا أريد مشاكل معهم.

تفل المندوب إلى يساره، أغلق سحاب معطفه حتى توارت خلفه تفاحة آدم. قال بنبرة مرتفعة بعض الشيء:

- حسنًا، اتصل بساكن الشقة أربع عشرة وأخبره أنني هنا، كما طلب.

شدد على حروف "كما طلب" ومنح الحارس نظرة تشي بنفاد صبره. تقهقر الحارس عدة خطوات إلى الوراء دون أن يحيد بنظراته عن مندوب شركة الشحن، ثم ضغط زرًا يحمل الرقم الرابع عشر في جهاز الاتصال الداخلي. التفت المندوب يمنة ويسرة في تململ واضح، دعس بحذائه صرصورًا ظن أنه يبحث عن مأوى يقيه الرياح العاصفة لتلك الليلة، ثم علا شفتيه شبح ابتسامة وهو يفكر كيف أنه أسدى معروفًا لهذا الصرصور، فهو لن يعاني من البرد أو الجوع في هذا البلد بعد الآن. ليت خيار إنهاء حياته بمثل سهولة إنهاء حيـاة هذا الصرصور، هكذا فكَّر.

عاد الحارس ليقول بنبرة حاسمة:

- كما حدث بالأمس، والليلة قبل الأمس، لم يطلب ساكن الشقة أربع عشرة أي طرد، ولا ينتظر أي مندوبين الليلة ولا في أي ليلة.

اشتعلت عينا المندوب بالغضب وكوَّر قبضتيه هاتفًا:

- هل يمزح هذا الرجل؟! لقد اتصل اليوم بالشركة التي أعمل بها وأصر على استلام الطرد في منزله، بل والأدهى من ذلك أنه أنكر قدومي إلى هنا مرتين.

ثم أضاف بنبرة مُهددة:

- لن أرحل من هنا قبل أن أتحدث إليه، يظن مديري أنني أتقاعس عن الذهاب إلى هذا العميل، لن أسمح لشيء كهذا أن يتسبب في فقداني لوظيفتي.

تهدل كتفا الحارس وهو ينظر إلى المندوب في رجاء، وقال:

- أرجوك لا تقطع عيشي، ساكن الشقة أربع عشرة هو صاحب تلك البناية، عجوز غليظ القلب لا يسلم أحد من أذاه، يعيش بمفرده منذ

أن تسلمت العمل، ولا يستقبل أي زوار.

- لست زائرًا! أرغب فقط في تسليم هذا الطرد اللعين ثم أرحل من هنا إلى غير رجعة.

هزَّ الحارس رأسه نفيًا وقال مهددًا:

- سيطردني إن سمحت لك بالصعود، أرجوك ارحل من هنا وإلا ستضطرني إلى استخدام العنف معك.

أطبق فمه، وجز أسنانه حتى صدر عنها صوتًا أزعجه هو نفسه. اقترب من سيارة شركته ببطء، فتح بابها وهو يجيل نظره بغيظ في شرفات الطوابق العليا، احتل مقعد السائق وأدار مفتاح السيارة، لكنه نقل قدمه إلى المكابح بغتة عندما رأى الحارس مُقبلًا نحوه. ما إن توقف عند النافذة حتى فتح الباب ليقول له:

- اسمع، بإمكانك الانتظار حتى تنتهي ورديتي، أي بعد ساعة ونصف من الآن، ثم تدخل في وردية زميلي، قل له أنك ستصعد إلى مدام "إنجي" في الشقة رقم اثنين وعشرين لتنزه كلبها.

هز المندوب رأسه شاكرًا، ثم سأله:

- لماذا تساعدني؟

مط الحارس شفتيه قائلًا:

- لأنني أكره ما يفعله هذا العجوز البغيض في الآخرين، ويسرني دائمًا أن أراه منزعجًا.

ثم أضاف بنظرة لا تحتاج إلى تفسير:

- ولأنني أثق أنك ستُقدِّر هذا المعروف.

دس المندوب يده في جيب بنطاله وهو لا يزال يرمق الحارس بنظرة مطولة، أخرج ورقة من فئة العشرين جنيهًا، وضع فوقها ما تبقى من علبة سجائره، ودون كلمة مد يده ليضع "ثمن المعروف" في جيب الحارس.



انصرف الحارس، أغلق المندوب باب السيارة وأطفأ محركها، ألقى نظرة سريعة على ساعته، ثم انتظر.

****

عاد المندوب بذاكرته إلى ثلاثة أيام مضت، عندما اصطدمت عيناه في ممر شركة الشحن بوجه "مالك سراج"، زوج أخته الذي يبغضه كثيرًا، ذلك المتعجرف الثري الذي لوَّث سمعته، وسد أمامه كل سبل الرزق، ولم يكتف بذلك بل قطع كل صلة بينهما، كل هذا بسبب خطأ صغير، زلة سرقة اقترفها منذ بضع سنوات، ولا يزال عقابها ساريًا حتى الآن.

ظن في البداية أن "مالك سراج" قدِم إلى الشركة عندما عرف أنه يعمل بها؛ ليقطع رزقه بتشويه صورته أمام مديره، لكنه وجده بدلًا من ذلك يُسلم أحد زملائه طردًا ويُصر بشدة على تسليمه في أقرب وقت، عندها استبد به الفضول وطلب من زميله أن يتولى هو أمر تسليم هذا الطرد، رغم أنه لا يقع في حدود المنطقة الجغرافية التي حددتها له الشركة.

لا يدري لمَ فعل هذا، لعله الفضول الذي بثه بداخله وجه "مالك سراج" المضطرب، وعيناه الزائغتان اللتان لم تنتبها له عندما دنا منه أثناء خروجه من الشركة، كان متشددًا كثيرًا في الاهتمام بتسليم هذا الطرد، حتى إنه نقد زميله بقشيشًا مُعتبرًا. ثم ازداد الفضول خلال اليومين الماضيين حتى بلغ ذروته عندما رفض المرسل إليه تسلم الطرد!

ألقى نظرة على الطرد القابع في المقعد المجاور، وقد استبدت به الرغبة في أن يفتحه ويكشف عما حواه، لكنه خشي أن يشتكي المستلم لمديره فيفقد بذلك وظيفته.

وظل السؤال يُلح على رأسه، "مالك سراج" زوج أخته المتشدق بالفضيلة هل تورط أخيرًا في عمل غير مشروع؟!

****

اصطدمت عيناه بملامح غليظة، ورأس يشتعل شيبًا، تنحنح قائلًا وهو يمد يده بالطرد:

- "عصام عبد الحميد" مندوب شركة "سبيد" للشحن، معي طرد باسم حضرتك يا فندم.

لوَّح الأشيب بذراعيه كاملة وهو يهتف ثائرًا:

- من سمح لك بدخول البناية؟! كلب الحراسة الذي بالأسفل سألقنه درسًا لن ينساه.

تطاير الشرر من عين المندوب "عصام"، ودفع باب الشقة أربع عشرة بقبضة قوية فتقهقر العجوز على أثر اصطدامه بالباب. تقافز السباب من فم العجوز، بيد أن الخوف احتل مكانًا بارزًا داخل عينيه المحاطتين بأمواج من التجاعيد. هتف "عصام" مُعنفًا:

- وعزة جلال الله تتطاير الشياطين أمام وجهي الآن، فلتستلم طردك المشؤوم وتوقع لي على وصل الاستلام وإلا لن أكون مهذبًا بما يكفي لأراعي سنك يا جدو.

- لا أعرف كيف توظف الشركات شابًا غبيًا مثلك، أخبرت الحارس اليوم وأمس وأول أمس أنني لا أنتظر طردًا.

دس "عصام" الطرد في يد العجوز، وبيده الأخرى أعطاه الإيصال والقلم. استعاد وجه العجوز أمارات العناد وهو يقول بتحدٍ صارخ:

- لن أوقع قبل أن أفتح الطرد.

- يا صبر أيوب.

لأول مرة منذ أن عمل "عصام" في الشركة خالف القانون المتعلق بتوقيع العميل قبل تسليم الطرد. طلب العجوز وافق بشدة رغبته في معرفة محتوى هذا الطرد الذي أولاه "مالك سراج" كل هذا الاهتمام. راقب المندوب الشاب يدا العجوز تمزق الطرد ليخرج من أحشائها علبة صغيرة تخفي ظرفًا ورقيًا، تركه يقرأ الكلمات المدونة فوقه، ثم مد يده مرة أخرى بالإيصال والقلم، لكنه فوجئ بالعجوز يستشيط غضبًا وهو يهتف به:

- حمار، أنت حمار ومن عمل على تشغيلك في الشركة "أحمر" منك.

ثم لوح بالظرف أمام عينيه ليقرأ فوقه هذه الكلمات:



"للأهمية: يُسلم شخصيًا إلى دكتور "أكرم سراج" ساكن الشقة ثلاث عشرة"

افترشت الحيرة وجه "عصام" هنيهة، قال:

- وهل أشم على ظهر يدي، الاسم والعنوان المدونان على الطرد من الخارج يخصوك أنت، ويمكنك أن...

ألقى العجوز الطرد في وجه "عصام" وصفع الباب بعنف كادت تتصدع

له الجدران. التفت "عصام" إلى الرقم ثلاث عشرة الساكن ببراءة فوق لافتة ذهبية صغيرة تحتل منتصف الباب المقابل لشقة العجوز. ضغط الجرس وتأهب لخوض معركة كلامية أخرى مع "أكرم سراج"، تُرى هل يتذكره؟ ولماذا بالأساس يرسل "مالك" لأخيه طردًا وبهذا الشكل الغريب؟! تُرى ماذا يخفي هذان الاثنان؟! انفتح الباب ليكشف عن امرأة أربعينية في مثل عمره، نفض عن وجهه أمارات الغضب، تنحنح قائلًا:

- "عصام عبد الحميد" مندوب شركة "سبيد" للشحن، معي طرد باسم دكتور "أكرم سراج" يا فندم.

استقرت أنظاره على طفلة تراقبه من خلف رداء المرأة، مستديرة الوجه، بيضاء، تلطخ فمها بآثار قطعة شيكولاتة تفرمها بين كفيها. لها نفس عيني المرأة العسليتين الواسعتين. ذكَّره جمالها وبراءة قسماتها بـ"جَنَّة"، طفلته التي لم ينجبها قط، إذ حال مرتبه الذي يكفيه بالكاد دون أن يتقدم لأمها بطلب زواج!

أقبل صوبه رجل اختلط الليل في رأسه بلون الفضة، وهتف بالمرأة والطفلة ليبتعدا عن الباب، لائمًا إياها بحدة أن فتحت الباب بنفسها لهذا الغريب والذي قد يكون لصًا أو قاتلًا أو كلاهما معًا. أطلق المندوب زفرة هادرة، آخر ما ينقصه الآن أن يستمع إلى ترهات رجل غيور مصاب بالرهاب!

- من أنت؟!

لم يتذكره إذًا، وبالكاد تذكر "عصام" ملامح الرجل الذي لم يره سوى مرة واحدة في حفل زفاف أخته منذ ست عشرة سنة. طحن "عصام" أسنانه بعضها ببعض، تسارعت الكلمات وهي تتدفق كالشـــــلال من بين

شفتيه:

- "عصام عبد الحميد" مندوب شركة "سبيد" للشحن، معي طرد باسمك يا دكتور، أرجوك وقع لي على هذا الإيصال لأنصرف، فلـــدي المزيد من الطرود لأسلمها لأصحابها.

- أي طرد؟! الظرف ممزق!

حكَّ "عصام" شامة بحجم عقلة الإصبع تعلو حاجبه الأيسر، ثم أطلق زفرة طويلة قبل أن يبدأ في شرح القصة التي أدت إلى تمزيق الظرف، بدءًا من أول أمس عندما قدم للبناية ليسلم الطرد للعجوز الذي رفض استلامه ومنع الحارس من أن يسمح له بصعود البناية، انتهاء بتمزيق الطرد ليجد بداخله ظرفًا ورقيًا يحمل تلك العبارة.

لم يخف على "عصام" توتر "أكرم سراج" وهو يستلم منه الظرف ويحاول فضه، إلا أن "عصام" عاجله بالإيصال ليوقع أولًا.

عبث "أكرم سراج" بأصابعه في شعره الأشعث فأصبح شبيهًا بلوحات آينشتاين. أخرج من الظرف خطابًا مطويًا بعناية. ضاقت عيناه، نبت فوق جبينه تجعيدة تلو الأخرى حتى تغضَّن بالكامل، تسارعت أنفاسه بينما يقرأ تلك الكلمات، وتشاركه في قراءتها دون أن ينتبه عيون "عصام" المتلهفة:

"أكرم، تعرف جيدًا أنهم لن يتركوك وشأنك، أرجوك لا تضيع مجهود السنين سدى، أرسل لي الكتاب مُلحقًا بأوراقك لأخفيهم عن أعينهم، سأغادر البلاد فور تسلمي إياهم بالطريقة نفسها التي وصلك بها هذا الطرد، لا ترسله إلى عنوان منزلي، ذلك المقهى الذي نتقابل عنده دائمًا، أرسله إلى هناك وأنا سأستلمه بطريقتي. أكرم، ثق بي كما اعتدت أن تفعل دائمًا. ولا تستخدم هاتفك أبدًا".

أي مؤامرة يحيكها هذان الأخوان؟! مؤكد أن لهذين الاثنين عملًا غير مشروع يجري في السر، وأخيرًا اتضح أن لـ"مالك سراج" زلَّة مثله، أو لعلها زلات. التفَّ "عصام" على أعقابه مغادرًا ورأسه تمتلئ بكافة الاحتمالات. دسَّ جسده النحيل في رحاب المصعد، لكن كف "أكرم" حالت دون إغلاقه. صوّب "عصام" نظرات الدهشة إليه، بدا على "أكرم" التردد وهو يقول:



- انتظر من فضلك، هناك طرد أريد إرساله.

- يا صبر أيوب.

- ماذا قلت؟!

- لا شيء، لكن أسرع فليس أمامي الليل كله.

انتظر أكثر مما ينبغي، وعندما أوشك على أن يناديه ليتعجله ظهر "أكرم" أخيرًا، أكثر ارتباكًا وأقل راحة:

- تفضل، أريد إرسال الكتاب والأوراق إلى هذا العنوان.

تناول "عصام" الورقة المدون فوقها البيانات، وباليد الأخرى حمل الكتاب، لاحظ "عصام" أن له غلافًا أسود اللون ذو ملمس غريب أرسل القشعريرة على طول عموده الفقري، صفحاته سميكة جدًا، أكثر سماكة من أي كتاب لمسه من قبل، حتى وإن كان غير معتاد على لمس الكثير من الكتب إلا على فترات طويلة متباعدة.

ملأ "عصام" بيانات إيصال الطرد، ومنح نسخة من الإيصال إلى "أكرم" وهو يخبره بتكلفة الشحن، نقده "أكرم" ضعف ما طلب، ورافق كلماته اعتذار مهذب عما لاقاه من معاناة في توصيل الطرد الخاص به، ثم وصَّاه بضرورة تسليم الطرد الجديد في عجالة.

دوى صوت تحطيم فتسارع الرجلان نحو مصدره، وقف "عصام" في الردهة مشرئب العنق بفضول، أسرع "أكرم" نحو طفلته التي تتوسط كسرات زجاج كانت منذ لحظات قليلة مزهرية كبيرة مُذهَّبة، لها طابع أثري تزين أحد الأركان. حملها والدها وعانقها، أعطاها نسخته من الإيصال لتلهو به فتوقفت عن البكاء وهي تكوره في يدها وتنقله من كف إلى آخر.

دفع "أكرم" بالطفلة إلى أمها التي أقبلت عليها بلهفة وجزع، ثم أرسل إلى "عصام" نظرات حانقة لتخطيه عتبة الباب، دار "عصام" على عقبيه واستقل المصعد إلى الأسفل، خرج من البناية، اقترب من سيارة شركة الشحن، أدار المفتاح في الباب ثم...

صوت تحطم قوي جعله يجفل ويغلق عينيه لبرهة، ويا ليته ما فتحهما

إذ صدمه مرأى جسد "أكرم سراج" المحطم ممتزجًا بالزجاج الأمامي لسيارة عمله! رفع أنظاره الفزعة إلى الأعلى حيث طالعه وجه زوجة "أكرم" حاملة طفلته وصرخاتهما تشق سكون الليل، وتمتزج بظلمته.

نظرة واحدة إلى وجه الطفلة جاحظة العينين جعله على ثقة من شيء واحد.. هذا الحادث سيترك في الطفلة المسكينة أثرًا لن يزول أبدًا!

فرَّ إلى بيته، وتلحَّف في مخدعه لا يسمع سوى صوت لهاثه، ولا يشعر سوى بضربات قلبه تكاد تحطم أسوار ضلوعه، مزَّق الطرد وقرأ بعشوائية بضعة أسطر من الأوراق التي لم يفهم منها شيئًا، تركها وفتح الكتاب، فلم يجد سوى صفحات خالية من الحبر إلا الصفحة الأخيرة، قرأ فيها:

"الإرث في أمان، استودعته ذريتي من بعدي، أنت حي الآن!"

بعثت العبارة بالنفور إلى صدره، ترك الكتاب من يده وكأنه حيَّة تَسعى.. وأخذ يفكر أي شؤم جلبه هذا الكتاب على صاحبه. عملت أفلام الرعب التي يشاهدها عملها في رأسه وأخذ يتساءل هل من الممكن أن يدفع هذا الكتاب بمن يقرأه إلى حافة الموت؟!

***



(٢)

بعد ثلاثة عشر عامًا.
(ماهر)

أرغمت عيني اليسرى على أن تباعد أهداب جفنيها دون أن تُوقظ أختها التي تجاورها. أسقطتْ أصابعي كوبًا زجاجيًا من فوق الكومود وهي تأخذ طريقها إلى هاتفي المحمول الذي يؤدي دوره الصباحي في الصراخ. أعلم أنه سيعاود الصراخ مرة أخرى بعد خمس دقائق، وهي للأسف الخمس الأخيرة في الخطة المبرمجة لإيقاظي من النوم.

كاد الحلم أن يفتح لي أبوابه عندما هدر الهاتف اللعين في تمام التاسعة بسيمفونية مزعجة اخترتها بعناية، ليعلن انتهاء المباراة لصالحه.

جررت جسدي من دفء الفراش، وجردته من الثياب، طالعني في مرآة الحمام وجه ذكّرني أنني نسيت شراء ماكينة حلاقة جديدة أثناء عودتي للبيت بالأمس، ليتني لم أتخلص من القديمة على الأقل.

التاسعة وست دقائق.

طبعت قدماي بصمتيهما بالماء فوق أرض الغرفة بينما أدندن بكلمات غير مفهومة، أغنية بلا معنى بقيت عالقة في ذاكرتي من رواسب الطفولة! تبلل الهاتف بقطرات هاربة من شعري وأنا أجري اتصالًا بعجالة. ما إن أتاني الصوت الأنثوي من الجهة الأخرى حتى هتفتُ:

- كل شيء على ما يرام، أليس كذلك؟!

لم يكن سؤالًا، بقدر ما كان تحذيرًا، فأنا لن أقبل اليوم بشيء ليس على ما يرام.

- مستر "ماهر" لا تقلق، كل شيء كما طلبت.

استدعيتُ نبرة حازمة واضعًا الهاتف بين رأسي وكتفي الأيسر لأتمكن من ارتداء قميص أبيض:

- "نيفين"، لن أقبل أي أخطاء اليوم.

- أعلم ذلك مستر "ماهر".

أنهيتُ الاتصال بلمسَة دون تحية. بدأ عقلي في تخيل كل أنواع العقوبات التي سأفرضها على "نيفين" و"جميل" إن تسببا في خطأ واحد مهما كان صغيرًا. فتحت الدولاب لأفاضل بين ساعة طراز "مونت بلانك" كلاسيكية سوداء بأحرف رومانية رأيت مثيلتها في يد لاعب خفة، وأخرى لـ"رولكس" سمعت أنها كانت خيار أحد الكتاب الكبار حيث طوَّقت معصمه حتى يوم وفاته. حملت كل واحدة في يد ثم اخترت الأغلى ثمنًا.

التاسعة وثلاث عشرة دقيقة.

فتحت باب الغرفة مسرعًا، اصطدمت به قدمي، فبَدا ذلك كعلامة تحذير. لم أعثر في المبرد إلا على بيضتين إحداهما مبقور بطنها وتفترش بقعة كبيرة من المُح أسفلها، وعلبة لبن مبستر أخذت منه رشفة ثم أفرغتها على الفور في الحوض. تمضمضت لأزيل عن فمي مذاقها الذي ذكَّرني برائحة جسد "تالا" عندما تتباعد فترات استحمامها.

اصطدمت نُدف ثلجية صغيرة بنافذة غرفة المعيشة، إنها إحدى المرات القليلة التي يهب فيها رب السماء لبلادنا ثلجًا. فتحتُ مصراع النافذة، بسطتُ يدي والتقطتُ واحدة، داعبتها بين أناملي وأنا أتساءل لماذا لا تُمطر سماء الأرض ألماسًا كما تفعل السماء فوق كوكب زُحل؟!

عندئذ كانت ستُحل كل مشاكلي المادية التي تحاصرني كأمواج بحر هائج، يصر على إغراقي في دوامته.

طرقتُ باب إحدى الغرف عدة مرات متتالية مناديًا:



- هل أنتِ مستيقظة؟!

ولما ظلَّ الباب على سكونه التقطتُ هاتفي وكتبتُ بأصابع تتسابق لتلامس أحرف الأبجدية العربية:

- سأعود متأخرًا، هاتفيني إن احتجتِ لشيء، لا تنسي الاتصال بـ"أم تهاني"، البيت قذر جدًا.

تمثَّل التحذير الثاني في نظارتي الشمسية الجديدة التي فشلت في العثور عليها. الجو متقلب كثيرًا هذه الأيام، ما إن يتوقف المطر حتى تطل الشمس بحرارتها وكأنها تتعمد إغاظتنا. عدت إلى الحمام فتبلل شرابي بماء الاستحمام، إنذار ثالث بيوم عصيب!

صففت شعري، وهربت بعيني بعيدًا عن شعيرات بيضاء بدأت في فرض حصارها فوق رأسي، تزداد بمعدل مرعب لا يتناسب وسنوات عمري الست والعشرين، وكأنها تعمل في سرية طوال الوقت على تجنيد ما يجاورها من شعيرات سوداء خائنة لوطنها!

أبدلت الشراب في عجالة ولم أنس أن أسقط فوق جسدي زخات من "جيفنشي" بنغماته الذكورية الحادة.

صافح أرض الشارع للمرة الأولى حذاء جلدي أسود، تقليد متقن لماركة مشهورة لم أندم على صفقة شرائه بربع ثمن الحذاء الأصلي، لكن قبل أن أركب سيارتي كان قد اتسخ بالوحل الممتد على طول الشارع الذي فاضت بالوعاته بما في جوفها. كادت دجاجة هاربة من المحل المقابل أن تختبئ بين أقدامي هربًا من مصيرها المحتوم، فركلتها بعيدًا وأنا أردد بغيظ دعائي الأثير "اللهم تُب علي من هذا المكان".

أصبحت خلف مقود سيارتي في تمام التاسعة والنصف بتوقيت الهاتف المحمول، والتاسعة تمامًا بتوقيت الساعة "المونت بلانك"!

***

طرقت "نيفين" الباب مرتين ثم دلفت دون أن تنتظر أن أسمح لها.

استرقتُ النظر إلى بطاقة الذاكرة التي وضعَتها أمامي فوق المكتب، ثم عدتُ للانهماك في تمرير ماكينة الحلاقة فوق وجهي.

- مستر "ماهر" هل أحضر لك شيئًا تشربه قبل الاجتماع؟

مسحت صابون الحلاقة عن وجهي بمنشفة صغيرة ثم أخفيتها في أحد أدراج المكتب. طالعتُ بيانات بطاقة الذاكرة باستخدام حاسوبي دون أن أنظر إليها. قلتُ:

- هل وصل "جميل"؟

- في الطريق يافندم.

رفعت وجهي الغاضب إليها، فسارعتْ بالمغادرة وهي تتمتم باضطراب:

- سأتصل به الآن.

- "نيفين".

- أفندم مستر "ماهر".

- لا تضعي هذا العطر الرخيص مرة أخرى.

لم أولِ اهتمامي للارتباك الذي نطقت به قسماتها. عدتُ إلى مطالعة البيانات، قالت قبل أن تغلق الباب:

- طبعًا، أعتذر مستر "ماهر".

لم أكن لأحتمل أي خطأ اليوم، الأزمة المالية التي تمر بها شركتي لا أمل لي في النجاة منها إلا بهذا الاجتماع مع ممثلي شركة "بيانكو"، يجب أن أفوز بعقد العمل معهم، هذا هو أملي الوحيد لأنقذ نفسي من الموت، أو مما هو أبشع من الموت.

عشر دقائق مرت قبل أن تطرق "نيفين" الباب مرة أخرى، لم تكن بمفردها هذه المرة. انتفضت لأستقبل في حرارة الزائرين الوافدين من شركة "بيانكو"، ثم أشرت إلى طاولة الاجتماعات الصغيرة التي تتوسط الغرفة. احتللنا ثلاثة مقاعد، بينما وقفت "نيفين" بجواري متأهبة لتدوين ملاحظاتي أثناء الاجتماع وبيدها جهازها اللوحي. عاجلني أحد الرجلين فيما



يشبه الاعتذار:

- علقنا في زحمة السير.

أطلقت ضحكة وأنا أقول بمرح مفتعل:

- ومن منا لا يعلق بها في هذا البلد، لذلك أحرص دائمًا على ضبط ساعتي مقدمة ثلاثين دقيقة.

ارتفع حاجب أشْيَبِهما وقال في وقار:

- أراك تهتم كثيرًا بالحفاظ على المواعيد يا باشمهندس "ماهر".

قلت بثقة مدروسة وأنا أبسط كفي أمام وجهي:

- بالطبع، فكل شيء متعلق بدقة المواعيد، وشعاري دائمًا "ساعة منضبطة تساوي عمل احترافي".

شعرت بالثقة إذ رأيت أمارات الإعجاب على وجه أحدهما، وابتسامة واسعة على شفتي الآخر. وقعت أنظار أحدهما على أصابع يدي اليمنى، وبالتحديد على أصبعي البنصر والخنصر الضامرين والملتحمين معًا منذ يوم ولادتي، فأصابني حرج يلازمني كلما تسمرتْ أنظار الناس على كفي، حرج لم أتخلص منه قط، فضممت أصابعي في قبضة لأواري تشوهها.

كنت أعرف بالخبرة أن تمَلُّك زمام السيطرة على الاجتماع يكون من خلال توجيه الأسئلة إلى العميل، وأفضلها هي الأسئلة المفتوحة، التي لا يتم الإجابة عليها بكلمة قاطعة، لأنها تدفعه إلى التحدث أكثر، والإفصاح عن نفسه.

ألقيت عليهما سؤالي الأول، وتعمدت أن يكون مثيرًا للقلق لأستثيرهما وأحوز على جل انتباههما، بينما أستدير لأرمق "نيفين" بنظرة فهمَتها على الفور، فغادرت المكتب وهي تضرب أزرار هاتفها الخلوي. رسمتُ ابتسامة المنصت فوق وجهي بينما داخلي يغلي بالغضب وأنا أتساءل في أي مصيبة اختفى هذا الـ"جميل".

***

قرَّب "الحاوي" بالونة صفراء من شمعة مشتعلة وأمرها أن تنفجر فانفجرت من فورها! أعاد الكرة مع بالونة حمراء وأمرها ألا تنفجر، فبقيت على حالها!

اتسعت أعين الصغار في انبهار، وتقافزت الأسئلة على ألسنتهم: كيف تطيعك البالونات يا عمو "الحاوي"؟!

هتف أحد الصغار في نباهة:

- لأن البالونة الأولى صفراء، والثانية حمراء. الأصفر ينفجر والأحمر لا ينفجر.

كرر "الحاوي" لعبته مع بالونة صفراء وأمرها ألا تنفجر فلم تنفجر! امتقع وجه الصبي عندما ضحك منه الأطفال، وماتت فوق شفتيه بسمة الثقة لتحل محلها أخرى حائرة.

مر "الحاوي" على الأطفال حاملًا قبعة مقلوبة، وقال بلطف لا يخلو من الحزم:

- انتهى العرض أيها الصغار، عمو "الحاوي" يحتاج إلى الذهاب إلى منزله ليرتاح، لكنه سيعود إليكم في الغد بألعاب جديدة.

وضع كل طفل مالًا في قبعة "الحاوي"، ومن لم يجد بحوزته مالًا هرول إلى والدته الجالسة على مقعد قريب في الحديقة، وبكى وترجاها أن تعطيه مالًا ليضعه في قبعة عمو "الحاوي" أسوة بباقي الأطفال.

راقبتُ المشهد من نافذة مكتبي التي تطل على حديقة اعتاد "الحاوي" على أن يقيم فيها عرضه اليومي. تذكرتُ كيف كاد الفضول أن يفتك بي وأنا أتابع كل يوم العرض نفسه دون أن أجد سببًا واحدًا منطقيًا ليطيع البالون أمر "الحاوي"! حتى ضقت ذرعًا بهذا اللغز وتوجهت إليه بالسؤال، تحدَّث يومها عن سر المهنة الذي لا يصح أن يبوح به لأحد، وأن رأس ماله في الحياة هو ما يجيد من ألعاب خفة. لكن بالطبع تلك الخطبة العصماء انتهت عندما دسست مائة جنية في جيب معطفه الأسود، فعدَّل قبعته كأرستقراطي من العصور الوسطى، ونظر يمنة ويسرة ليتأكد أن السر لن يخرج عن اثنين، ثم كشف لي خدعته:



- بعض البالونات أملأها بالماء قبل نفخها، فإذا قربتها من اللهب لا تنفجر لأن الحرارة تنتقل من البالون المطاطي إلى الماء فيعمل على تبريد البالون ويحفظه من الانفجار. أما البالون الممتلىء فقط بالهواء فإنه يسخن بشدة إذا اقترب من اللهب وينفجر على الفور.

ثم ضحك بملء فمه، وغمز بعين يُمنى تعاني حورًا، ثم قال:

- ألم يُعلموك الفيزياء في المدرسة؟

فغادرته يومها وأنا أضرب كفًا بكف، هل تحوَّل العِلم إلى ألعاب حواة؟!

قطع تأملي صوت طرقات على الباب، وعندما لم ينفتح علمت أن الطارق شخص غير "نيفين"، إنه "جميل" إذًا. انفتح الباب ببطء، تلاقت عيني الغاضبة بعينيه المرتعدتين، وقف على بعد خطوات يطرقع أصابعه كما هي عادته البغيضة، لمع جبينه بقطرات عرق لا أدري كيف جرؤ على الإتيان به في فبراير!

دنوت منه وأنا أحس نفسي كبالون ممتلىء بالهواء عندما يقترب من مصدر اللهب.

***

- لماذا طردت "جميل" يا "ماهر"؟!

وقفتُ مغطيًا وجهي بقبضتين في وضع الاستعداد، البدايات الجيدة هي الطريقة الأضمن لنهايات جيدة، لذلك فكل شيء يبدأ من وقفة سليمة تُأهبني للدفاع والهجوم في الوقت نفسه. يدي اليمنى خلف اليسرى، ركبتاي مائلتان قليلًا وتحملان وزن جسدي موزعًا بالتساوي بينهما، مرفقي أسفل اليدين، مسترخيًا بعد أخذ نفسٍ عميقٍ، وقبضتين مغلقتين بإحكام.. والآن أبدأ.

أطلقت زفيرًا حادًا مسددًا اللكمة الأولى، شرد ذهني للحظات فاستغلها "شريف" وسدد لكمة قوية إلى وجهي، انسحبتُ رافعًا كلتا يديّ لأحمي وجهي، تبًا، يا له من مُنازل صلد، والوقوف أمامه كالوقوف أمام تريلا على الطريق السريع لن تفهم ما يحدث إلا بعد أن تساوي جسدك بالأرض.

حمدت الله أن هذا مجرد تمرين بين صديقين وليس شجارًا حقيقيًا!

كان أملي الوحيد في الفوز بهذه الجولة هو الوصول إليه من جانبه أو خلفه. هتف "شريف" مسددًا إلى جانب وجهي ضربة "الهوك" بقبضة يده المائلة بزاوية تسعين درجة:

- لماذا طردته يا "ماهر"؟!

لا يجب التركيزعلى القوة فحسب، فالقوة وحدها لا تكفي للفوز، هناك أيضًا السرعة، التحمل، التوازن، والدقة.

انقضضت عليه بلكمة رباعية، بدأتها باليمنى ثم اليسرى، ثم اليمنى فاليسرى.

- "ماهر" اهدأ!

وقفنا متواجهين ينظر أحدنا إلى الآخر، تتسارع أنفاسي بشدة، هجمت عليه برباعية أخرى لكنه أوقفها قبل أن تبدأ وأنزلني أرضًا. وكزني في كتفي هاتفًا:

- توقف عن ذلك ستؤذيني وتؤذي نفسك.

بقيت جالسًا في المكان الذي سقطت فيه داخل حلبة الملاكمة، خلعت عني القفازين، ومررت أصابعي العشرة في شعري بعصبية لأُهذب خصلاته الملتصقة بجبيني. جلس "شريف" قبالتي وهو ينزع قفازيه قائلًا:

- "ماهر" يجب أن تتوقف عن تفريغ غضبك في كل ما حولك، أثق أنك ستتخطى هذه الأزمة كما تخطيت كل المشاكل التي واجهتك من قبل.

امتزجت كلماتي بلهاثي:

- كيف سأتجاوز ذلك برأيك؟ إن لم أعد للرجل ماله في أقرب وقت سيقتلني يا "شريف".

بدا "شريف" كما عهدته منذ أن بدأت صداقتنا في الثانوية، يظن أن الأشرار يعيشون في عالم منفصل عن عالمنا، لن يمسنا بطشهم، الأشياء البغيضة تحدث للآخرين فقط، أما هو وكل من يحبهم ففي مأمن طالما لا



يفارقون ظل الحائط! هتف "شريف" مستنكرًا:

- ليس إلى هذه الدرجة، إنه يهددك ليثير خوفك فحسب، لسنا في غابة يا "ماهر".

قلت بمرارة غلبتني:

- معك حق يا "شريف" لسنا في غابة، بل أسوأ من غابة، نحن في الدنيا يا صديقي.

سكتَ ولم يُعقِّب، ربما أدرك أن الأمر هذه المرة بالغ الجدية. نهضتُ فعاجلني بقوله:

- انتظر سأوصلك بسيارتي، ثم تعود لتأخذ سيارتك في الغد.

شكرت اهتمامه في نفسي بكلمات لم أنطقها، هكذا تعودت من "شريف"، فهو الشخص الوحيد على ظهر هذه الأرض الذي يوليني كل هذا الاهتمام. قلت وأنا أتحسس بطني، مقاومًا ألمًا حارقًا يندلع بداخلها:

- لا داعي.

توقفت لأنظر إلى كدمة حمراء في ساعده، أشرت إليها برأسي قائلًا:

- هل أنا من فعل ذلك؟

تحسسها ضاحكًا وهو يتفاخر:

- بل نحلة، صديقك يجذب كل ما ينتهي بتاء التأنيث.

وبينما يرتدي معطفه سقط من جيبه علبة مخملية حمراء، تدحرجت بالقرب من قدمي فالتقطتها. استرقت إلى وجهه نظرة وأنا أفتحها لأجد قرطًا ذهبيًا تتدلى منه لؤلؤة صغيرة، نظرت إليه ثانية فرأيت الاضطراب يعبث بقسماته فابتسمت ساخرًا وأعطيته إياها وأنا أمازحه:

- أتمنى أن يعجب نحلتك، لكن لا تنسَ أن النحلة تحمل شهدها وإبرتها في الجسد نفسه.

***

ألقيت بجسدي خلف عجلة القيادة وانطلقت بالسيارة، سحقًا لهذا الألم الذي أصبح غير محتمل! عثرت على صيدلية هرعت إليها وطلبت دوائي، تجرعت كوبًا من الماء يعوم فيه قرصين منه. ما إن عدت إلى موضع السيارة حتى وجدت المقطورة تسحبها أمام عيني. هرولت خلفها مناديًا، توسلت إلى الشرطي، أخرجت له مالًا من حافظتي، هددته.. لكن لم يفلح أي من ذلك في تغيير نهاية يومي.

لم أكد أضع المفتاح في باب شقتي حتى انفتح باب الشقة المقابلة ليهرع جاري "الحاوي" منها باندفاع، بوجه ممتقع لا يمت بصلة إلى الوجه البشوش الذي رأيته اليوم في الحديقة من نافذة مكتبي. ما إن رآني حتى تمسَّك بي وهو يصيح بجنون:

- لا أريد أن أنام، لا أريد أن أنام، أنقذني منهم أرجوك، أرجوك، لا أريد أن أنام.

أمسكتُ به كي لا يهرب، اندفعتْ زوجته الباكية مع أحد جيراننا نحوه ليجروه معي جرًا إلى الداخل، قيدناه بالمقعد، كشفنا عن ذراعه وهو لا يزال يصرخ ويحاول الهرب، حقنته زوجته بالمنوم ثم جلست عند قدميه تضم إليها جسده، وتسكن رجفاته. انصرفتُ عندما لم أعد أستطيع تحمل صوت بكائها.

دخلتُ إلى شقتي، ألقيت نظرة أسفل باب الغرفة المغلقة لأجد الأنوار لا تزال مُضاءة، وصوت التلفاز يخترق الباب ليصل إلى مسامعي. غاصت قدماي في براز "تالا" فخلعتُ الحذاء والشراب على أعتاب غرفتي، والتي لم تكن أكثر نظافة من باقي الغرف.

اقتربت من الكومود لأضع ساعتي فوقه، فاخترق قدمي شظية من الكوب الزجاجي الذي أسقطته في الصباح، رأيت بقعة من الدماء تلوث الأرض، وعند هذه اللحظة فقد قدرتي على الاحتمال، فوقفت أمام النافذة المفتوحة وأنا أطلق صيحة عالية شاركتني فيها كل ذرة في جسدي.

***



(٣)

آسية

- هل تعرفون ما هو "القليس"؟! أي أحد؟!

حسنًا، إنه اسم المعبد الذي بناه "أبرهة الحبشي"، وحاول أن يجر العرب إلى الحج إليه بدلًا من الكعبة.

ولما فشل "القليس" في جذب الحُجاج، وتمسكوا بكعبتهم، توجه إلى مكة لهدمها.

فما أشبهنا اليوم بـ"أبرهة"، نفعل بأنفسنا فِعلته فينا. فنحن لا نتوقف عن إنشاء معابد وهمية لأنفسنا نحج إليها، وتغذيها معتقداتنا الخاطئة. للأسف أصبحنا نصدق الكذبة التي نخترعها بأنفسنا أو حتى تلك التي يحيكها الأخرون أمام أعيننا.

نحن لم نبن بداخل عقولنا عشرات من "القليس" فحسب، بل حفزنا كل مشاعرنا وطاقتنا لحمايتها والدفاع عنها؛ الآن لا يحرك أعداؤنا أصبعًا واحدًا لهدم الكعبة، لأنه ببساطة لم يعد ذلك مهمًا!

توقفتُ عن الكلام لألتقط أنفاسي، وأترك لتلاميذ صفي مساحة من الصمت للتفكير فيما قلت. قال "حسن" تلميذي المُفضل ـ ولكل مُدرس تلميذ مُفضل يسعد دومًا بالتحاور معه ـ بصوت شغفه الأمل:

- مس "آسية" هل هناك طريقة لهدم "القليس"، أقصد طريقة لهدم معتقداتنا الخاطئة التي شبهتها بـ"القليس"؟

افتر ثغري عن ابتسامة مشجعة رغم علمي أنه لن يراها، وأجبته:

- بناء، هدم.. كل لفظ له ضد في اللغة لا أجد ما يمنع وجوده في الواقع يا "حسن".

بلغ مسامعي هتاف "أمجد"، الطالب الجديد الذي أخذ على عاتقه مهمة الاعتراض على كل ما أقوله، قال منفعلًا:

- هراء، منذ أن أتيت إلى صفكِ وأنا أسمعكِ وأنتِ تحاولين إعطاءنا مخدرًا فحسب، لا أرى فارقًا بينك وبين مروج المخدرات وبائع الخمر، لكن دعيني أخبركِ عن الكعبة الموجودة على أرض الواقع والتي تريدين منا هدم "القليس" لنحج إليها.

دوى صوت مقعده يرتطم بالأرض، بدا مهتاجًا أكثر من يومه الأول في المدرسة، زمجر قائلًا:

- نحن عميان، بل أسوأ نحن مجرد هواء، لا نرى أحدًا ولا أحد يرانا، نحن لا شيء في عالم يعتمد فيه كل شيء على النظر.

لم أفقد رباطة جأشي، فقد اعتدت على ثورات الغضب التي تتملك بعض طلابي الجدد، حتى وإن كان "أمجد" أكثرهم قسوة وعنادًا، فهو لا يتوقف عن ربط كل ما أقوله بمشكلته الخاصة. قلت ببساطة:

- إذا أردت أن تكون "لا شيء" فهذا شأنك يا "أمجد"، لكن لا تطالب الجميع هنا أن يكونوا مثلك.

استطرد ثائرًا دون أن يأبه بكلماتي:

- لن نعيش أبدًا حياة طبيعية كما يعيش الناس بالخارج، لن نحقق أي شيء، لن نستمتع، لن يحبنا أحد ولن يكون لنا عمل وبيت وزوجة، لقد كُتبت شهادة وفاة كل منا في اليوم والساعة والدقيقة التي فقد فيها بصره.

كان يصر على أن تكون له الكلمة الأخيرة، لكنني قلت ولا يزال صوتي هادئًا، رغم إدراكي للاضطراب الذي ساد قاعة الدرس:

- كل شيء يتوقف على ما تؤمن به في قلبك يا "أمجد"، إن كنت تؤمن أن كل ذلك لن يتحقق فلن يتحقق، ولن ترضيك البدائل.

- لن يتحقق، لن يتحقق.

انفجر في البكاء كطفل في العاشرة رغم سنوات عمره الخمس عشرة،



يدق الأرض بحذائه ويتخبط في كل ما حوله. ناديتُ إحدى المشرفات فدخلت مسرعة، ثم قالت لي:

- مس "آسية" لا تقلقي سأحل الأمر، "أمجد" هيا معي، لا تعاند، هيا.

تخافت صوته في الممر حتى اختفى تمامًا، لكنه حمل معه السَكينة وترك لنا جوًا مشحونًا بالتوتر. لم أغضب منه، بل امتلأ قلبي نحوه بالعطف، ليس من السهل التعامل مع شاب مراهق في مثل عمره، أما الأصعب فهو التعامل مع مراهق كفيف رافض لواقعه، ويحمل بداخله كل هذا القدر من الحقد الغضب على الحياة بأسرها.

صفَّقتُ وأنا أحاول استدعاء نبرة مرحة، ثم قلتُ:

- ذكروني ماذا كان سؤال الأمس؟

اعتدتُ أن أوجه إلى طلابي في نهاية الحصة سؤالًا غير اعتيادي، وأتركهم حتى موعد الحصة التالية ليبحثوا عن الجواب. مرت لحظات من الصمت المميت قبل أن تتطوع إحدى طالباتي للإجابة بغير حماس:

- "ما هي الطريقة التي لا يستطيع الإنسان بها قتل نفسه؟"

أردفتُ بخفة:

- نعم، هل توصل أحدكم للجواب؟

أهداني "حسن" بعضًا من الحماس وهو يقول:

- أنا عرفت الجواب، لا يمكن للإنسان أن يقتل نفسه عن طريق كتم أنفاسه.

صفقت عاليًا وأنا أهتف بمرح حقيقي هذه المرة:

- أحسنت يا "حسن".

ثم وجهت حديثي إلى عشرين طالبًا وطالبة ضمهم صفي:

- لا يمكنكم حبس أنفاسكم حتى الموت، وبالمِثْل لا يمكنكم خنق أحلامكم، ستظل هناك تسبح في رؤوسكم وقلوبكم حتى وإن لم تعترفوا بها، حتى وإن كانت تصطدم مباشرة مع الواقع، فلا تتجاهلوها، التفتوا

إليها واسمعوا ماذا تريد أن تقول لكم.

***

كنت أتابع بتركيز فيلمي الكرتوني المفضل على جهازي اللوحي عندما ألقت "شهد" بجسدها جواري على الأريكة، وضعَتْ فوق ساقي وعاءً من الفشار الساخن كانت قد نهضت لإعداده. التقطتُ حفنة ملء كفي وبدأتُ على الفور في التهامها. أتاني صوت "شهد" المستنكر:

- أرجوكِ يا "آسية" فلتختاري فيلمًا آخر لنشاهده.

لا يوجد كلمات محظورة في الحديث بيني وبين "شهد"، صداقتنا تمتد لسنوات قليلة لكنها كانت كافية لإنشاء صداقة عميقة يحتاج الآخرون سنوات للفوز بمثلها. ورغم ذلك لا أملك سوى أن أهرب إلى قوقعتي أحيانًا، أغلقها على نفسي جيدًا ولا أسمح لأحد بالدخول، بضع ساعات أو أيام ثم أخرج بنفسي وقد أعدتُ شحن بطارية الحياة بداخلي مرة أخرى. في بداية صداقتنا كانت تتعجب من استخدامي لكلمات مثل "أرى، أشاهد، أنظر".. لعلها تبدو لأول وهلة مفردات بلا معنى لفتاة كفيفة مثلي، لكنني أومن أن جزءًا من النظر للشيء متمثل في الإحساس به.

الجميع ينظر إلى ذات السماء، لكن لا يرى الجميع الشيء نفسه، هناك من يرى في الجزء المظلم منها الوحدة أو الخوف، أو الموت، وهناك من تهتدي عيناه إلى النجوم، فيرى الأمل ينبت بين اليأس، والحياة تضيء رغم ركام الموت.

ابتسمتُ قائلة وأنا ألقي بثلاث حبات من الفشار في فمي:

- هل تعرفين أن أول سندريلا في التاريخ لم تكن ترتدي حذاءً زجاجيًا؟!

أجابتني بفتور وهي تدس يدها في وعاء الفشار لتصطدم بيدي:

- حقًا.

- نعم، حدث ذلك نتيجة خطأ في الترجمة عن اللغة الفرنسية، فكلمتي حديد وزجاج متشابهتان في النطق، الفرق بينهما في الكتابة فقط، ولأن الزجاج أكثر رومانسية من الحديد لم يهتم أحد بتصويب الخطأ.



- هلا غيرتِ الفيلم؟!

زفرت أقول وأنا أمرر أصابعي فوق شاشة جهازي اللوحي الناطق:

- "شهد" أنتِ باردة جدًا.

ضحكت قائلة:

- وأنتِ يا حبيبتي حالمة جدًا، رغم سنوات عمرك الست والعشرين ما زلتِ تعيشين في عالم والت ديزني الأكثر وردية من حقيبة يدك التي اشتريتها معي الأسبوع الماضي.

قاطعتها مصححة وأنا أرفع سبابتي:

- الخمس والعشرين وإحدى عشر شهرًا وستة أيام.

- من الخارج نعم، لكن من الداخل توقف نموك عند عمر الثانية عشرة.

أصابت عبارتها وترًا حساسًا في نفسي، كانت صادقة في كل حرف قالته،

ففي عمر الثانية عشرة فقدتُ كل شيء، فقدتُ حياتي، وعائلتي.. وبصري، وبدأتُ حياة جديدة كجنين يأتي للحياة للمرة الأولى، إلا أنه يحمل ذكريات حياة سابقة عاشها، ذكريات يسترجع مرارتها بين الحين والآخر. قالت وأنا أظن أنها فعلت لتغير الموضوع:

- لم تخبريني ماذا حدث مع "أمجد".

بدأ عرض الفيلم الذي اخترته، أجبتُ:

- اتصلوا بأبيه، جاء وأخذه.. لكن أتعرفين، شعرت بعطف كبير نحوه عندما عنَّفه والده أمام الجميع كما لو كان طفلًا صغيرًا، أما "أمجد" الذي اعتدت مشاغباته في الصف فلم ينطق بحرف واحد.

- أعتقد أن هذا الطالب سيتعبك كثيرًا يا "آسية". برأيي تخلصي منه في الغد واطلبي نقله إلى صف آخر.

عندما قررتُ منذ عامين العمل كمُدرسة متطوعة في مدرسة المكفوفين لم أظن أنني سأستغرق فيه بهذا الشكل، كنت أتوقع عملًا رتيبًا معتادًا، مُدرسة لغة عربية كما أهَّلتني دراستي بكلية التربية، لكن أول مدرسة

قدَّمت فيها أخبرتني السكرتيرة بإعلان غريب لطلب وظيفة، طلب غير معتاد على أي مدرسة للمكفوفين أو لغيرهم، قالت لي "مطلوب مُدرسة في مادة الحياة"!

وعندما تحدثت مع مديرة المدرسة، فهمتُ أنها تُؤمن أن المراهقين في هذا السن لا يحتاجون فحسب إلى المواد المقررة في كل المدارس، بل يحتاجون أكثر شيء إلى قدوة، إلى مُرشد، مصباح ينير لهم الطريق، كالمنارة التي تهدي السفن في عرض البحر. أعجبتني الفكرة غير الاعتيادية وسحبت استمارة تقدمي لشغل عمل مدرسة لغة عربية وقدمت بدلًا منها استمـــارة للعمل كمدرسة في مادة الحياة.

أخضعتني مديرة المدرسة لاختبارات عدة أنا وقلة من المتقدمين لشغل الوظيفة، تفوقت عليهم جميعًا، ومنذ ذلك الحين لم أندم لحظة على اختياري رغم الصعوبات الكثيرة والتحديات التي تواجهني مع طلابي.

قلت لـ"شهد" بثقة:

- لن أواجه مشكلة معه، أعرف كيف أروِّضه.

- قلت ذلك من أجل صالحك ليس إلا.

اتسعت ابتسامتي وأنا ألف ذراعي حول رقبتها، منحتها قبلة فوق وجنتها وأنا أهتف من أعماق قلبي:

- أعلم يا "شهد"، فأنتِ أروع صديقة في العالم.

- هلا تركتني أشاهد الفيلم من فضلك.

وكزت كتفها ضاحكة:

- ألم أقل لكِ، باردة.

في منتصف عرض الفيلم نهضتُ لأعد كوبين من الشاي بالحليب، التفت أصابعي حول فوهة الكوب وأنا أصب الشاي بيدي الأخرى، وما إن ارتفع السائل وشعرتُ بسخونته، وسمعت الصوت الرتيب الذي تغير ما إن وصل إلى فوهة الكوب حتى علمت أنه امتلأ إلى القدر الذي أريد؛ فتوقفت



عن صب المزيد.. التقطتُ العلبة الثانية من الرف العلوي الأيمن وأضفت ملعقتَي سكر في كوبي، ونصف ملعقة في كوب "شهد". ثم عدت إلى غرفة المعيشة.

ما إن رشفت من كوبي حتى صحت متذمرة، أسرعت "شهد" بإحضار كأس من الماء وهي تتمتم:

- أعتذر يا "آسية". لم أنتبه وأبدلت مكان علبة السكر بعلبة الملح.

هتفت بها بعد أن تجرعت كوب الماء كاملًا:

- لا مشكلة.

عدنا إلى متابعة الفيلم بعد أن أعدت "شهد" كوبين آخرين من الشاي بالحليب، بدون ملح هذه المرة. انتهى الفيلم في تمام السابعة، وعندما استعدت "شهد" للمغادرة سألتها باستنكار:

- لماذا ترحلين مبكرًا اليوم؟ اتصلي بوالدتكِ وأخبريها أنكِ ستبقين معي لحين عودة خالي إلى البيت، لن تعارض؛ أعرف ذلك.

قالت وهي تفتح الباب:

- يجب أن أشتري بعض الأغراض، فلن أتمكن من مغادرة البيت في الغد، هل نسيتِ أن غدًا هو الحادي عشر من فبراير؟!

أجبتها وقد غمرني الحزن:

- وهل يمكن نسيان هذا التاريخ؟ إنه الذكرى السادسة لليوم الذي اختفى فيه الحبر من الكتب!



(٤)

ماهر

اخترقت رنة الهاتف أحلامي وانتزعتني منها، نفضتْ عني صديقة أختي البقية الباقية من آثار الحلم وهي تسكب في أذني تقريرها الأسبوعي عن "أروى". عبثتْ كلماتها بعقلي فامتلأ صدري بالغضب، انتزعت نفسي من الفراش وانقضضت على غرفة "أروى"، فلما لم تصلني استجابة على طرقاتي فتحتُ الباب الذي كشف أسفله عن أشعة الشمس التي تملأ أركان الغرفة. لم ترفع عينيها صوبي، لم تبدِ أي ردة فعل على الإطلاق وكأنني ذبابة عبرت غرفتها!

استبد بي الغضب أكثر فنفَّثت عنه:

- "أروى" لماذا لم تذهبي إلى درس التاريخ طوال الأسبوع؟

لستُ متفائلًا بما يكفي لأنتظر منها إجابة شافية مباشرة، أمرتها أن تترك هاتفها لتنظر لي، وبالطبع لم أكن أحمق كذلك لأنتظر منها استجابة فورية.

تظاهرتْ باستكمال المذاكرة، وهي تقرأ من جهازها اللوحي:

- "وأثار عقول العلماء هذا السؤال لعـــدة قـــرون، مـــاذا سيجني

العالم إن تمكنا يومًا من ترجمة مخطوطة "فوينيتش" التي فشل الجمع في فهم اللغة التي كُتبت بها، والتي يظن العلماء أنها.... ".

قاطعتها وأنا أعيد على مسامعها محاضرتي المحفوظة عن حاجتها لبذل جهد أكبر إن كانت تريد الالتحاق بكلية محترمة. ومنعتُ نفسي بصعوبة من الصراخ فيها مُطالبًا إياها أن ترحمني، فلم أعد قادرًا على تحمل المزيد من الأعباء النفسية.



التفتُ إلى المرآة فرأيت رجلًا آخر ينظر إليّ، تحيط بعينيه السوداوين حلقتان من الإرهاق، يتهدل كتفاه فوق قامة طويلة لم تعد منتصبة كما كانت. دنوتُ من المرآة فرمقني الرجل المحبوس داخلها بنظرات بلا معنى، كأنه ينتظر مني شيئًا ما، شيء يعجز عقلي عن إدراكه.

- إن كنت قلقًا على جاذبيتك فاطمئن أنت ما زلت تحتفظ بها أخي العزيز، وإن عرفت ما تقوله عنك جاسوستك دون خجل فسيذهلك ذلك.

قاعدة عسكرية: "لا يجب أن نفتح أكثر من جبهة في الوقت نفسه"، لذلك استدرت وأعدت عليها سؤالي عن سبب امتناعها عن حضور دروس التاريخ، كانت تتوسط فراشها، تحتضن هاتفها بين كفيها، وترمقني بعيون عابثة كبسمتها وهي تجيب سؤالي بسؤال:

- ألم تخبرك جاسوستك؟!

أردفتُ بإصرار وأنا أدنو منها:

- أريد أن أسمع منكِ.

لوَّحت بكفها وهي تريح ظهرها إلى الوسادة، وتقول باقتضاب:

- هو الذي طردني.

عاجلتها بتحدٍّ:

- لأنك قمتِ بشتمه.

اعترضتْ بقوة:

- لم أشتمه عبثًا، لقد استحقها.
- لم يخطئ المدرس في حقك، أنتِ التي تطاولتِ عليه.
- إنه مجرد ببغاء أحسنت الوزارة تربيته.

انعقد حاجباي وأنا أحذرها:

- "أروى" لا تُغطي خطأكِ بتبرير أجوف.

أردفتْ دون أن تولي تحذيري أي اهتمام:

- ويريد مني أن أكون نسخة منه، وأن أحشو رأسي بالهراء، تصور يريد مني أن أردد أن أول كلمات لبشري على سطح القمر هي كلمات "نيل أرمسترونج" التي قال فيها: "خطوة صغيرة لإنسان، قفزة هائلة للإنسانية".

ساد الصمت للحظات ثم هتفت مستنكرًا:

- ولكنها بالفعل أول كلمات للبشر على سطح القمر.

رفعت رأسها لأعلى وقالت باستهجان:

- ببغاء آخر يا ربي.

- "أروى" إلزمي الأدب.

بعناد لا يفرق كثيرًا عن عناد الأطفال هتفتْ:

- بل كلمات "باز ألدرين" رائد الفضاء الذي رافق "نيل أرمسترونج" في المركبة الفضائية، قال مشيرًا لضوء لوحة التحكم عندما لامست المركبة سطح القمر: "Contact Light أو ضوء اتصال".. لماذا تُهملون التفاصيل؟

غمرني شعور فارس سقط عن حصانه أرضًا في منتصف السباق، فارس يعاني من القولون العصبي! مددتُ يدي لأمسد موضع الألم وأنا ألوح بسبابة يدي الأخرى محذرًا:

- سأتصل بالمدرس لتعتذري له، ولا أريد المزيد من مشكلاتك يا "أروى".

رفعتْ هاتفها والتقطتْ لي صورة، وقبل أن أعنفها نظرتْ إلى شاشته وقالت وكأنها تحدث نفسها:

- ٥٠% غضب، ٣٠% عصبية، ١٥% ألم، ٥% حزن.

- ماذا تفعلين؟!

- أحلل تعبيرات وجهك عن طريق تطبيق جديد قمت بتحميله.



لعلي لست أخًا جيدًا بما يكفي، لكنني أبذل ما بوسعي لأكون هذا الأخ، ولا يبدو أن "أروى" تشعر بجهدي الكبير معها، دائمًا باردة، وبعيدة، تصر على التصرف كالأطفال، آه يا "أروى"، مـــتى ستكبريـــن

ليخف عني الحمل.

- اتركي هذا وأخبريني ألم ترَيْ نظارتي الشمسية الجديدة؟

قالت وهي تشير لما حولها من فوضى:

- في هذا البيت لو ضاعت بقرة فلن نستطيع العثور عليها!

قاومت رغبة عارمة في أن أجرها من شعرها إلى الأرض. استدرت لأبحث عن دوائي الذي لا أذكر أين وضعته الليلة الماضية، لكنني درت على أعقابي فجأة وأنا أسألها:

- بالمناسبة أين "تالا"؟! منذ يومين لم توقظني بلعابها.

تقوقعتْ على شاشة هاتفها وأجابت بلامبالاة جعلت الدماء تتفجر في رأسي:

- إنه موسم التزاوج، فسمحت لها بالخروج.

كظمت غيظًا عبَّر عن نفسه بشكل آخر في قولوني، قلت:

- لماذا لم تخبريني لآخذها إلى محل القطط.

ببرود كالثلج همهمتْ:

- لماذا تريد أن تتعدى على مساحتها الخاصة يا "ماهر"؟!

صفقت الباب من خلفي بعد أن أرسلت لها تحذيرًا صارمًا:

- لا خروج من البيت، فاليوم هو الذكرى السادسة لاختفاء الحبر من الكتب!

***

كم عمرك؟!

دائمًا ما يجيب الناس على هذا السؤال إجابة خاطئة، إن أردت أن أجيب مثلهم لقلتُ ستة وعشرين عامًا، أما إن أردت أن أعطي جوابًا صادقًا لقلت أن عمري هو عدد الآلام والأحزان التي ما زلت أذكرها، وهي كثيرة بالمناسبة.

لدي نقص حاد في عدد اللحظات السعيدة عن المعدل الطبيعي لإنسان في مثل عمري، لدينا أجهزة تقيس انخفاض الضغط والسكر فلماذا لا يكون لدينا أجهزة تكشف عن انخفاض معدل السعادة؟ وعندئذ تتجه شركات الأدوية إلى صنع عقار السعادة، ويزيد عدد أقسام كلية الطب واحدًا، ونرى لافتة كبيرة تزين باب أحد العيادات "دكتور فلان أخصائي في الضحك"!

- مستر "ماهر" ألن تذهب إلى منزلك؟! تبقى ساعة واحدة على حظر التجول.

أغلقتُ نافذة دردشة مع امرأة لا أعرفها ولا تعرفني وليس لدينا قاسم مشترك نتحدث عنه! فقط الرغبة في الهرب التي تجعلني أتظاهر أنني شخص مختلف لأقضي سويعات في الحديث مع امرأة تكذب، وتعرف أنني أيضًا أكذب.

رفعتُ إلى "نيفين" رأسا مثقلًا بالأمنيات، وقلت:

- سأغادر بعد قليل، ألم يتصل أحد من شركة "بيانكو"؟!

هزت رأسها نفيًا ولم تزد، فازددتُ امتعاضًا. استندت إلى ظهر المقعد وشبكتُ يديّ خلف رأسي وسألتُ سكرتيرتي سؤالًا باغتها:

- لماذا لم تتزوجي حتى الآن؟ لقد تجاوزتِ الثلاثين، أليس كذلك؟

امتزج الارتباك في عينيها بالضيق من سؤالي الذي لا أعلم لماذا ألقيته على مسامعها، علَّها الرغبة في التمتع بصحبة لبعض الوقت، أو الانخراط في حديث لا يتعلق بحياتي. أجابت بعد تردد:

- تزوجتُ ثم طُلقتُ.



تماديتُ وأنا مدرك لذلك:

- لكنك امرأة جميلة، وجامعية، وجيدة في عملك، ولا زلتِ صغيرة فلماذا لا تتزوجين مرة أخرى؟

احتل صمتها فترة أطول هذه المرة، أعادت بعض الخصلات النافرة خلف أذنها ثم قالت:

- عندما تتزوج المرأة للمرة الأولى فإنها تبحث في الرجل عن حبيب متفهم يشاركها حياتها ومستقبلها، وقد تجد ذلك في نظرة حب أو لمسة شوق، لكنها عندما تتزوج للمرة الثانية بعد تجربة مريرة فإنها لا تبحث سوى عن شيء واحد فحسب، وهو للأسف أكثر ندرة من الحب بمعناه السائد في عصرنا.

صوَبتُ إلى عينيها نظرات فضولية مستفهمة، فأردفتْ بمرارة انتقلت من حلقها إلى حلقي بلمح البصر:

- الرحمة!

استغرقتني كلماتها في التفكير، أعرف جيدًا معنى استجداء الرحمة، وأعرف مرارة الحرمان منها. نهضتُ فجــأة وأوليتهــا ظهــري،

سمعتُ نقرات كعب حذائها على الأرض وصوت الباب يُغلق.

وقفتُ أمام النافذة الزجاجية الكبيرة أرمق المدينة الصاخبة التي يلفها الظلام، ظلام لا يبدده مليون مصباح، بينما كفاي يلتمسان الدفء في جيب بنطالي، أحدهما طبيعي والآخر يعاني تشوهًا لا يزول. يعبر رأسي ذكريات مشوهة عن ظلمة وبرودة خُنّ الدجاج الذي كانت تحبسني فيه جدتي، لا تزال رائحة فضلات الدجاج تزورني بغير دعوة، وتصيبني بالغثيان.

"جدتي، أرجوكِ أخرجيني من هنا، سأكون ولدًا مؤدبًا".. تعبر صرخاتي سنوات الطفولة وتسافر عبر الأزمان لتتردد داخل رأسي كما لو كانت قد خرجت من فمي للتو، وتملأ كياني كله بالغضب.

***

لم أكد أترجل من سيارة الأجرة أمام البناية التي أقيم فيها حتى ارتعدت فرائصي وأنا أمرر بصري على أربعة رجال أشداء يقفون بتحفز كقبيلة ذئاب تحاصر فريسة لا أمل لها في النجاة.

خطوة واحدة نحوهم حفَّزت أرجلهم للهرولة صوبي، أشهرتُ في الهواء قبضتين أعلم أنهما مع هذه الجدران الأربعة لا يسمنان ولا يغنيان من جوع. الشيء الوحيد الجيد في الأمر أنني شعرت بآلام الضربات الأولى وكأن روحي تنسحب من جسدي، أما الضربات اللاحقة فلم تُحدث فارقًا يُذكر، فهناك معدل معين من الألم لن يشعر الإنسان بما يزيد عنه، إذ إنه سيصبح عندها فاقدًا لوعيه!

وقبل أن أغيب في غياهب اللاوعي سمعت أحدهم يقول وهو يجذب شعر رأسي كما يُنتف ريش الدجاج قبل السلق:

- ينتظر "الباشا" أمواله خلال شهرين فحسب، وإلا اقرأ على روحك الفاتحة.

ثم ذيَّل كلماته بتوقيع على ذراعي بمدية فضية سرقت من القمر لونه ومن الزمن ألمه.

***



(٥)

آسية

تأخر خالي "إدريس" عن موعد عودته إلى البيت فكان الأرق رفيقي لهذه الليلة. عُدتُ بذاكرتي إلى الحادي عشر من فبراير قبل ستة أعوام، اليوم الذي تغير فيه عالمنا الذي نعرفه. كان صباحًا ككل الصباحات التي عشناها وعاشتنا، إلا أن الكتب فقدت الحبر الذي به كُتبت!

لم يبق كتاب واحد فوق أرض بلادنا إلا وضم بين دفتيه صفحات فارغة كبطون الجياع. انتفض العالم بأسره، وأرسلت الوفود والبعثات، وأصبحت بلادنا قِبلة للباحثين والعلماء؛ لكن لم يسفر ذلك عن شيء. بقيت الكتب عارية من الأحرف، وأصبحنا نحن عرايا من العِلم!

لا زلت أذكر التأثير الكارثي لهذا الحدث، أُلغيت الامتحانات، وتوقفت المدارس والمصالح الحكومية التي كانت لا تزال تعتمد اعتمادًا تامًا على أرشيف من الملفات المطبوعة، ضاعت حقوق الكثيرين لاختفاء الحبر من إيصالات الأمانة والشيكات والعقود وجوازات السفر، وكل الأوراق الثبوتية. تخبطنا في هذا الضياع لشهور طويلة حتى بدأنا رويدًا في الاعتماد على الحاسوب والإنترنت في كل شيء.

وفي الوقت نفسه دفعت الحرب الأهلية التي عصفت بالبلاد إلى تغيير الكثير من القوانين، وأهمها إنشاء "مجلس الوِصاية" المتحكم في كل شبر في أرض بلادنا. ما زلنا حتى هذه اللحظة نجهل الأسس التي تم من خلالها اختيار أعضاء "مجلس الوِصاية"، لكن يتم التأكيد دومًا عن طريق كافة الوسائل الدعائية على أن أعضاء "مجلس الوِصاية" الثلاثين هم أفضل ما أنجبت بلادنا.

أعطى "مجلس الوِصاية" الضوء الأخضر ليبدأ الجميع في إعادة كتابة ما يحفظون من الكتب لإنشاء مكتبة إلكترونية ضخمة. كان كل شيء في

طريقه إلى الاستقرار، لكن كل شيء انهار فجأة، فكتابة التاريخ كانت مهزلة لم يشهد العالم مثلها من قبل!

آلاف من الكتب الإلكترونية كُتبت لتسجل حدثًا تاريخيًا واحدًا بألف طريقة مختلفة! أضفى بعضهم على حرب أكتوبر أسمَى معاني البطولة، وآخرون وسموها بالعار، هناك من ألبسها رداء القدسية وهناك من عراها حتى بدت كسوءة في جبهة التاريخ، أما المضحك المبكي أن زمرة من الكُتاب شحذوا طاقات أناملهم لتكذيب أنباء الحرب ونفي وقوعها من الأساس! هذا ما طال تاريخ بلادنا جديده وقديمه.

لم يسلم أي حدث تاريخي من التحريف فأوقف "مجلس الوِصاية" بيد من حديد هذا العبث بعقول الأجيال القادمة. أذكر يوم أن صدر قانون صارم بتجريم كتابة الكتب التاريخية إلا بإذن رسمي من "وزير الكتب" الذي عينه "مجلس الوِصاية" ليرأس وزارة "الكتب والتأليف" التي أُنشئت بعد حادثة اختفاء الحبر.

وللمرة الثانية ظننت أن بلادنا في طريقها إلى الاستقرار، لكن "مجلس الوِصاية" الذي أراد حماية التاريخ كال بمكيالين، فلجأ أيضًا إلى تزويره، إذ بيَّض وجوه مواليه، وشوهً سيرة معارضيه.

وعندئذ ظهرت "رابطة الدم"!

توقفت عن الاسترسال في أفكاري عندما ضجت أذناي بطنين رهيب غير محتمل.

انتبهت لصوت الباب يُفتح؛ فنهضت لأستقبل خالي "إدريس". أحـــــاطني

بذراعين حنونتين، وقبَّل بحنان رأسي كما هي عادته. كان صوته متعبًا بعد يوم حافل بالعمل في متجر الأنتيكات الذي يملكه، ورغب في النوم مباشرة، لكنني أخبرته أنني أنتظره من أجل العشاء فلم يكسر بخاطري.

يقولون في الأمثال "الخال والد".. وأنا منذ الثانية عشرة لا أملك أبًا غيره، بل لا أملك أحدًا على الإطلاق.

هو الكف التي تُمسِّد جبيني في المرض، وتمسح دموعي في الألم، وتشد على عضدي وقت الشدة. عندما يسافر عدة أيام من أجل أعمالـــــه، تغيب



رائحة عطره عن البيت سارقة معها الكثير من راحة بالي.

ما كدنا نلتف معًا حول طاولة الطعام حتى اخترق صوت سرينـة سيارات الشرطة حينا الهادئ، فتوجهت فزعة إلى الشرفة وقد سبقني خالي "إدريس" إليها محذرًا:

- "آسية" لا تخرجي إلى الشرفة.

لم أستطع الامتثال لأوامره، استندت بكفي إلى السور وأنا أحاول الاعتماد على حواسي النشطة لأعرف ما يجري، كم أكره لحظات الترقب إنها كافية لتُذهب بعقلي، ضمني خالي إلى صدره متمتمًا ألا أخاف وأن كل شيء سيسير على ما يرام.

لكنني كنت أعلم أن لا شيء سيمر على ما يرام، وقد كان حدسي في محله إذ انطلقت صرخات أرسلت الفزع إلى قلوبنا، تشبثت أكثر بالسور وأنا أسأل خالي أن يخبرني بما يحدث، إنها تلك اللحظات التي أكره فيها عجزي.

لم ينبس خالي ببنت شفة، ازدادت الصرخات طعنًا في فؤادي عندما ميزت صوت صاحبتها، فصحت ملتاعة وأنا أجذب ذراع خالي "إدريس":

- "سلمى" جارتنا إنهم يأخذونها، خالي أرجوك افعل شيئًا.

ضمني خالي إلى صدره أكثر، فدفعته عني وأنا أرفع نحوه وجهًا باكيًا:

- أرجوك لا تسمح بذلك.

كنت أعلم أنني أحمله مالا يطيق، لكن ما يحدث فوق طاقتي أنا الأخرى.

أتاني صوته خفيضًا منكسرًا ليقتل بداخلي كل ذرة أمل في إنقاذ "سلمى":

- لا أحد يمكنه أن يفعل شيئًا، تعرفين ذلك يا "آسية". يبدو أن الشرطة علمت أنها إحدى عضوات "رابطة الدم". لا شيء يمكنه إنقاذها الآن.

لم أجد مسندًا لرأسي سوى صدره العريض، لم تفلح كلماته المواسية

في أن توقف عبراتي، همست بصوت بحَّهُ اليأس:

- ألن ينتهي ذلك؟!

لم يجب على سؤالي لكنه أكد بحزم:

- سنستمر في المقاومة بطريقتنا الخاصة، "رابطة الدم" هي أملنا الوحيد.

رفعت رأسي فسارع بمسح عبراتي بكفيه، وطبع قبلة حانية فوق جبهتي. سألته بحرارة وأنا أعرف الجواب:

- لكننا نفقد كل يوم المزيد من الضحايا، نراهم أمامنا يتعذبون ويعانون دون أن نتمكن من تخفيف آلامهم، أسيستمر ذلك إلى الأبد؟!

لكنه فاجأني هذه المرة بإجابة أنعشت فؤادي:

- لن يستمر إلى الأبد، يوجد حل لكنه لا يزال في طور التجريب.

هتفت بلهفة:

- حقًا، وما هو؟!

ربت خالي "إدريس" ظهري وهو يردف:

- ليس الآن، كل شيء في حينه، وحتى هذا الحين أريدك قوية كما اعتدت دائمًا أن أراكِ، "آسية" التي لا تفقد إيمانها أبدًا.

استلقيت فوق فراشي وقد احتار عقلي ما بين التفكير فيما ينتظر "سلمى" من مصير أسود، والحماس لهذا الحل الذي أشار إليه خالي "إدريس". أعلم أنه لن يخبرني إلا عندما يحين الوقت المناسب، فخالي لا يولي أي اهتمام بفضول المرأة الذي هو أقرب لفضول قط، حتى إنهما كثيرًا ما يتشاركان المصير ذاته!

***



(٦)

الكتاب الذي لم يقرأه أحد!

(ما وراء الحكاية)

انتبهتُ إذ حملني البَشَري الذي اشتراني بعدة جنيهات، أصاب الغضب مني سهمًا عندما احتك وجهي بساعده المبلل بالعرق والمكسو بالشعر الخشن، حتى وددت لو أنتزعهم من جسده شعرة شعرة، هذا البشري أحمق ولا يعرف كيف يُعامَل كتاب مثلي. أسقطني أرضًا ثم عاد ليحملني فصار وجهي شطر السماء وقد علق به حبات رمل وآثار بصقة لبشري قذر مر من هنا منذ وقت ليس بالطويل.

وضعني فوق المقعد الخلفي لسيارة كانت كقطعة من الجحيم، امتصت من كل الهواء حرارته! دقائق قليلة واكتشفت بأصعب الطرق أنه سائق سيء جدًا، انكفأت على وجهي في الدواسة، انتظرت ليعيدني إلى المقعد فلم يفعل. علق بوجهي وظهري المزيد من الأتربة، كادت نيران الغضب أن تشعل كل صفحة من صفحاتي عندما فوجئت بعلكة عالقة بالجانب الأيسر من وجهي.

أخرجني من وعاء القذارة الذي يحسبه سيارة، بعدما توقف أخيرًا أمام مبنى مرتفع، ومنه إلى داخل شقة بسيطة ثم غرفة تحوي مكتبًا و... هذا كل ما انتبهت إليه قبل أن يلقي بي فوق سطح المكتب بعنف ارتج له جسدي كله.

أخذ يدندن بصوته الردئ كلمات أغنية وطنية حزينة تحكي عن المآسي والجراح، تطفح بالتشاؤم والآلام، هذا ما يجيد المقهورون فعله، الهرب إلى الذات، يُشيدون بداخلها صومعة للإكتئاب. كاد يريق إبريقًا من المياه فوق وجهي؛ فانتفضتُ صائحًا:

- انتبه أيها الغبي!

تسمَّر في مكانة كشجرة عمرها ألف عام، ثم التفت حوله في بلاهة ممتزجة برهبة قذفت بالبهجة إلى نفسي، بشري أحمق.

- نعم أنا أحدثك أنت!

تحولت البلاهة إلى قسمات جادة، والرهبة إلى نظرات مرتعبة، منحتني المزيد من البهجة، خاصة عندما طفق يتساءل وينادي على صاحب الصوت ليكشف عن نفسه، فلما تجاهلتُ مطلبه أمسك بعصا لا أدري لمَ يحتفظ بها هذا الأبله في مكتبه، وأخذ يفتش في الغرفة ذات الباب المغلق ويهدد ويتوعد.

- وما ذنبي إن كنت أعمى لا تراني؟!

سألتُ ذلك بلا مبالاة، ثم أوليت اهتمامي لتفقد كل صفحة من صفحاتي لأعاين ما أصابها من أضرار، ولا يزال البشري يقلب الغرفة رأسًا على عقب بحثًا عني. خرج ليتفقد أركان بيته، وانتهى ليعود مرة أخرى إلى المكان الذي منه بدأ، بشعر أشعث، ونظرات مضطربة، لم تمس بداخلي موضع شفقة.

دنا من المكتب وارتكز بكفيه فوقه، مُنحني القامة، وجهي أمام وجهه، لا يفرق بينهما سوى بضعة سنتيمترات، اهتدت عيناه إلى العلكة الملتصقة بوجهي الأسود، فأخرج من جيبه منديلًا وأزالها، ثم نفض عني التراب، غمرني ذلك بالراحة، وأثار في نفسي نحوه بعض الامتنان، فهمست حتى لا يرتعب:

- انظر أمامك!

اتسعت عيناه في خوف وهو يمررهما فوق الأغراض الموضوعة فوق المكتب، لتستقران في النهاية نحوي.

- نعم أنا من أحدثك!

دفعني بيده، ثم قفز للخلف عدة خطوات يهز رأسه بعنف قائلًا:

- مستحيل! كتاب يتحدث.. هل هذه خدعة؟!



تجاهلت كل صيحاته، وتركته في تخبطه، فلم يكن لدي رغبة في التعاطي مع كل هذه الطاقة المهدورة. عدت ثانية لتفقد الأضرار بعد هذه الدفعة. دنا مني يتلجلج، وألق الانبهار في عينيه يتهدج، همس بكلمات كانت بعيدة عن مواطن فهمي، مسني بأصابع مرتعشة كرقصات الضوء الأصفر من المصباح المتدلي من السقف. توقفتْ أنامله عند ندبة طويلة تتوسط وجهي، همس مجددًا:

- مستحيل!

كنت غاضبًا على البشر جميعهم، غضب يزلزل الجبال الراسيات، بيد أنني لم أستطع تجاهل لمساته الحانية، تكاد تطيب مئات السنين من مرارة الإهمال. فللكتب ضعف خاص تجاه لمسات بني البشر. توسل إليّ بشغف امتلأت به عيونه:

- أرجوك تحدث مرة أخرى، أرجوك.

لَفَّني صمت القبور، ولم تفلح توسلاته في فضه، كنت متعبًا.. متعبًا كثيرًا.

آخر ما لاحظته قبل أن أركن إلى السكون، لافتة صغيرة تُزين مكتب البشري كُتب فوقها بلون الدم "دكتور أكرم سراج".

***

(٧)

ماهر

أنا قاتل!

قتلت جدتي، وعمتي، وزوجها، وابنها الحقير "شهاب" الذي كان يطعنني بكلماته كلما حلَّ على بيت جدتي زائرًا "أمك قتلت أباك وتركتك وهربت مع عشيقها". قتلت زميلي "محفوظ" في الصف الثاني الإعدادي بعدما أفشى سري للناظر عن هروبي من فوق سور المدرسة، فضربني الناظر بالعصا حتى تكسرت في يده.

قتلت من علمني شرب الخمر والمخدرات ولعب الورق، وبعد توبتي عنهم قتلت من أرغمني بسخريته وتهكمه على دخول المسجد لأتقى لسانه. قتلت كل امرأة علمتني كيف أشغلها ثم أدعسها بحذائي المُقلد.

قتلت الباشا الذي أدين له بالمال، وعدني أن يصبر، لكن عمر صبره كان قصيرًا كعمر الفراشات.

ثم أخيرًا قتلت نفسي!

بحسب قاعدة التحليل النفسي التي تقول بأن "الرغبة تساوي الفعل".. إذًا فأنا قاتل ومقتول.

كان يريحني عقد محاكمات خيالية أكون فيها قاضيًا يحكم بالعدل، لكم بتُّ أتخيل كل شخص أكرهه وأنا أجره إلى مقصلة الإعدام وأنفذ فيه الحكم بنفسي، تُرى لو تخلص كل منا ممن يكرههم هل ستكون الدنيا مكانًا أكثر جمالًا، أكثر سعادة، أكثر متعة؟ بالتأكيد نعم، لأن الأرض ستكون خالية منا عن بكرة أبيها! لو آن للجماد أن ينطق لأغرقنا جميعًا باللعنات.

اقتحم محاكمتي صديقي "شريف"، دنا من فراش غرفة الطوارئ هاتفًا وعيناه تجولان بجرح ذراعي المضمد بالشاش:



- "ماهر" هل أنت بخير؟

هززت رأسي مجيبًا وأنا أنهض:

- بخير، بخير، سأخرج الآن.

ما إن تحركت بنا سيارة "شريف" حتى أمطرني بالأسئلة، كنت أعرف أنه سيفعل، لو كان لي أخ من دمي لما اهتم بأمري أكثر مما يفعل "شريف":

- ماذا حدث يا "ماهر"؟ من فعل هذا بك؟ لماذا لم تخبر الشرطة؟ وأين سيارتك؟

أسندت مؤخرة رأسي إلى ظهر المقعد، وأغمضت عينين لم تنعما بالنوم طيلة الليل، ففي المرة الوحيدة التي نجحت فيها في أن أتشبث بأعتاب النوم، اقتحم أحلامي وجوه الأربعة رجال وهم يتقدمون نحوي، يطعنونني حتى تحول جسدي إلى خرقة باليه، بلا قطرة دم واحدة.

كنت أرغب فقط في أن أريح عقلي من التفكير، لكنني عرفت أن النوم غلبني عندما أيقظني "شريف" قائلًا:

- هيا يا "ماهر" يجب أن تستريح.

تحاملت على نفسي حتى وصلت إلى بيتي، ساعدني "شريف" على إخراج المفتاح من جيبي، فتح الباب ثم رجع خطوتين إلى الوراء. دخلت وأنا أنادي "أروى"، خرجتْ من المطبخ وقد اتسعت عيناها وهي تعاتبني:

- ماذا فعلت بنفسك؟!

أجبتها هازئًا:

- "نيولوك"!

ثم أشرت إلى غرفتها وأردفتُ:

- "شريف" معي.

استرقتْ النظر إلى الباب الموارب وهي تهمس بغنج:

- ألا يزال صديقك الوسيم غير مرتبط؟

رميتها بسهام الغضب فابتعدت عني ضاحكة.

ضمت الجلسة كوبين من الشاي الثقيل، وشطيرتين باردتين بالجبن، ومستودعًا للأسرار، ورجلًا أوشك على الانهيار!

- بيتك مزبلة حقيقية، هل يلقي الجيران نفاياتهم عندك؟!

همستُ بضيق:

- "أم تهاني".

أخرجتُ هاتفي وأجريتُ اتصالًا مع المرأة التي تحججتْ بكثرة أعبائها، لكن خمسين جنيهًا إضافية كانت كافية لنسف كل العقبات. ألقيتُ الهاتف فوق الطاولة الزجاجية بعنف أحدث شرخًا في كليهما! لكن لم يكن ذلك بأسوأ من الشرخ الذي تتصدع به أركان حياتي.

- "ماهر" اهدأ.

رفعت أصبعي محذرًا بجدية بالغة:

- لو قلت لي اهدأ مرة أخرى فسألقي بك خارج البيت.

انحنى "شريف" بجسده وشبك أصابع كفيه قائلًا:

- حسنًا، ماذا تنوي أن تفعل؟

انتفضتُ واقفًا وقد اشتعل الغضب بعقلي وقلبي وكل ذرة بجسدي:

- لا أعرف يا "شريف"، رأيت بنفسك كيف أن تهديد الرجل جاد إن لم أرد إليه ماله. لا أخاف أن يقتلني فليس لحياتي أي معنى، لكن...

نظرت إلى الباب المغلق لغرفة "أروى" وأنا أعض على شفتي السفلى حتى كدت أدميها، شاطـرني "شريف" موضع النظر، حلَّ الصمت ضيفًا ثقيلًا حتى بددته قائلًا بحزم:

- لن أسمح لمكروه أن يصيب "أروى"، هذا الرجل قذر لا ضمير له، يظن أنه يمتلك أرواح الناس بثروته وسطوته، يجب أن أسدد له أمواله في أقرب وقت.



بسط "شريف" كفيه في حيرة، وأضاف كأنما لا يخطر سؤاله بعقلي:

- ومن أين ستأتي بالمال يا "ماهر"؟

بدا حزينًا وهو يقف أمامي، يضع كفه فوق كتفي ويقول بحرارة:

- لو كنت أملك المال لأعطيته لك، لكنك تعرف أمر الخسارة التي لحقت بي مؤخرًا، ودفعتني لرهن البيت والشركة للبنك.

وضعت كفي فوق كفه، وأقررت بما أضمره في نفسي:

- أعرف يا "شريف" أنك ما كنت لتتأخر عني لو كنت تملك المال.

انطلق رنين هاتفي ليقطع حديثنا، التقطه "شريف" ونظر إلى شاشته مفصحًا:

- سكرتيرتك.

أطلقت تنهيدة حارة، ثم افتتحت حديثي معها برجاء:

- "نيفين" أرجوكِ أريد أن أسمع خبرًا جيدًا.

كان صوتها مبتهجًا على غير العادة:

- مستر "ماهر" بالفعل لدي خبر رائع.

قلت بلهفة:

- أخبريني.

- اتصلوا بنا من شركة "بيانكو"، لقد فزنا بالعمل، مستر "ماهر" لم يقدم أحد عرضًا أفضل منا.

أطلقت صيحة عالية دفعت بـ"أروى" لأن تغادر غرفتها بعد أن بدلت منامتها لتستطلع الأمر، أنهيت المكالمة وأنا أنقل بصري بين "أروى" و"شريف" قائلًا بسعادة لم أشعر بها منذ زمن طويل:

- لقد فزت بالعمل مع شركة كبيرة، كل شيء سيكون على ما يرام.

قالت "أروى" معاتبة:

- الحمد لله انتهت فترة الاكتئاب، اسمع يجب أن نحتفل، لقد تحملت عصبيتك طوال الفترة الماضية ويجب أن تعوضني عن ذلك.

لففت ذراعي حول رقبتها، قبلت رأسها ولا تزال الأرض لا تسع سعادتي:

- لكِ ذلك.

ثم نظرت إلى "شريف" قائلًا:

- وأنت كذلك يا "شريف". سنحتفل ثلاثتنا بهذا الخبر السعيد.

تكونت على شفتيه ببطء بسمة عريضة، قال مؤكدًا:

- لا يمكن أن يفوتني ذلك يا صديقي.

ثم استطرد يذكرني بمشكلة كانت غائبة عن تفكيري:

- و"جميل" الذي طردته من سيحل محله؟

اختفت بسمتي، قلت مفكرًا:

- لا يمكن بدونه، يجب أن أعيد "جميل" للعمل، غدًا سأفعل اللازم.

***



(٨)

آسية

- "آسية" هناك رجل بالخارج يريد مقابلتك، اسمه "جميل"، "جميل عبد العزيز".

- حسنًا، أدخليه يا "شهد".

انتهي عملي اليومي في المدرسة، فتوجهتُ إلى شركتي لممارسة عملي الأساسي. رغم أن الشركة رسميًا ملك لخالي "إدريس" إلا أنني أديرها وحدي، مما جعلني أتحدث عنها دائمًا وكأنها شركتي الخاصة. أما "شهد" بشغلها منصب مساعدة لي كانت تيسر لي الكثير من الأمور. وما أروع أن تكون مساعدتي في العمل هي في الوقت نفسه صديقتي الوحيدة.

دخل الضيف بهدوء نسمات إبريل، لم أنتبه لوجوده إلا حينما تنحنح؛ فأشرت إلى المقعد المواجه لمكتبي، وطلبت منه أن يتفضل بالجلوس. سألته عما يشرب فالتقطتْ أذناي التوتر في صوته، حفز ارتباكه من تركيزي فاستندت إلى المكتب بذراعين أحدهما فوق الآخر، وأصخت السمع.

بدأ حديثه متلعثمًا، وهو يصدر صوتًا غريبًا لم أتبين مصدره:

- أأنا.. قدمت إلى هنا.. أعني.

تنحنح مرة أخرى ثم استطرد، ولا زلت أجهل مصدر الصوت الغريب:

- أحد أصدقائي نصحني بالقدوم لمقابلة الآنسة "آسية"، قال أنها ستساعدني.

- أنا "آسية"، كيف بإمكاني مساعدتك؟

عاد للتلعثم مرة أخرى، وكلماته مغلفة بحرج كبير:

- أأنا، أبحث عن عمل.

انتظرت منه المزيد من الإيضاح، فاستطرد:

- كنت أعمل في شركة صغيرة للاستيراد، ولكن صاحب الشركة طردني من العمل بسبب تأخري على أحد الاجتماعات.

ثم أضاف بلهفة:

- لم يكن التأخير ذنبي فأنا ملتزم بمواعيد العمل، لكن تعرضت للسرقة يومها، وللأسف لم يقبل مدير الشركة اعتذاراتي.

أخبرته أنني أقدر حاجته للعمل لكنني لا أعمل في الاستيراد، فعاجلني:

- أعلم ذلك، أنا في الأساس عملي ليس له علاقة بالاستيراد، سأشرح لكِ، كانت الشركة تعمل في مجال استيراد الورق والأقلام، وفي أحد الأيام تعاقد صاحب الشركة على صفقة ورق كبيرة وضع فيها كل رأس ماله، لكن جاءت حادثة اختفاء الحبر من الكتب لتقصم ظهره بعد كساد سوق الورق.

عندها بدأ مدير الشركة من الصفر مرة أخرى وألحق الدعاية والإعلان بعمله في الاستيراد، فأصبح يستورد المنتج ويقوم بالدعاية وخلق سوق له فيكثر عليه الطلب، لكنه تعرض لمشكلة كبيرة مؤخرًا عندما تم سرقة بيانات حملة دعائية لأحد العملاء من مكتبه، وبيعها إلى منافسه، فألزمــــه العميل برد مال الحملة كاملًا، وهذا عرضه لخسارة فادحة.

عملي أنا كان يتعلق بخلق أفكار دعائية مبتكرة، وبحسب شهادة الباشمهندس "ماهر" فإن عملي وجهدي هما سبب نجاح شركته ووقوفها على قدمها من جديد، أعمل معه منذ أن كنت في الفرقة الأولى في الجامعة ـ وأنا الآن بالمناسبة في الفرقة الرابعة بكلية الحقوق ـ لكنني أحببت مجال الدعاية والتسويق، وقرأت فيهما عشرات الكتب، أعتبر نفسي هاويًا، لكن "نيفين" سكرتيرة الشركة تقول دائمًا أن عملي احترافي، كما أنه يعجب العملاء كثيرًا، يعني أظن ذلك.

ران الصمت للحظات، فقطعته بقولي:



- فلأشرح لك الأمر بدوري يا أستاذ "جميل". شركتي لا تعمل في الدعاية والتسويق، بل أعمالنا تتعدى ذلك. نحن شركة تطوير أعمال نساعد الشركات التي تعثرت في أعمالها لكي تعود إلى السوق بقوة، ليس بالمساعدات المالية فنحن لا نملك الدعم الكافي لذلك، بل بنصائح الخبراء، عندي فريق ممتاز نجحنا حتى الآن في مساعدة عشرات الشركات خلال خمس سنوات هي عمر شركتنا.

لمست في صوته حماس الشباب، وقد أدركت أخيرًا مصدر الصوت، إنه يقوم بطرقعة مفاصل أصابعه واحدًا تلو الآخر، كنت قد قرأت ذات مرة أنها حركة تشير إلى توتر صاحبها:

- أرجو بشدة أن أكون أحد أفراد فريقك يا آنسة "آسية"، وإن أردتِ اختبار قدراتي فأنا جاهز لذلك.

كنت بالفعل بحاجة إلى شخص مثله، ولم أجد في المتقدمين لشغل الوظيفة بغيتي. غلبني الفضول وأنا أطلب منه أن يستعرض نماذج من الدعاية التي ابتكرها. كان مترددًا في البداية ولم يفهم كيف لكفيفة مثلي أن تدير هذه الشركة، بل وتنتظر منه استعراض قدراته أمامها وإرسال نماذج أعماله من حاسوبه إلى حاسوبها.

لم يكن الأمر صعبًا كما تخيل، فجهازي اللوحي قادر على القراءة الصوتية، وضعت سماعات الرأس في أذني، واستمعت إلى الصوت الإلكتروني حتى انتهيت من قراءة الملفات التي أرسلها، ثم عُدت إليه ببضعة أسئلة.

وكأن حماسته عدوى انتقلت إلى دمائي، تابعت بشغف حديثه وعلى ثغري بسمة صغيرة لا تفارقه. انتهى كلامه ولم ينته لهاث انفعالي.. رافقه في انتظار ردي على كل ما قيل، لم أجعله ينتظر طويلًا، وقلتُ أخيرًا:

- متى تريد أن توقع العقد؟

اهتاج كثيرًا وهو يعبر عن شكره وسعادته. سألته بعد حين:

- عندي فضول لأعرف من هو الصديق الذي نصحك بمقابلتي.

تردد طويلًا، ثم قال:

- أعتذر لا يمكنني الإفصاح عن اسمه.

سألته باستغراب:

- لماذا؟ هل هو سر؟

- نعم سر، وعاهدته على ألا أبوح به أبدًا.

فازداد فضولي حتى بلغ ذروته!

***

وقفتُ في مطبخ بيتي أعد طعام العشاء، صوت التلفاز ينبعث عاليًا من غرفة المعيشة، لا أحد في البيت سواي، ولا غير صوت التلفاز مؤنسًا لوحشتي. اعتدتُ على رفع صوته عندما أكون وحدي في البيت. هكذا أتغلب على رتابة الوقت حتى يعود خالي "إدريس" في المساء. أكره الوحدة وأحب أن يكون بجانبي رفقة، أحب الاستماع إلى صوت أنفاس تتردد من حولي، أشعر بدفئها حتى وإن لم تقترب كثيرًا مني، سماع الصمت يخنقني، يجعلني أشعر وكأنني وقعتُ من ذاكرة الدنيا. فأعود وأُذكر نفسي بأن لي ربٌ يرعاني.

لعلي أكسر بذلك التابوه التقليدي الذي انطبع في أذهان الناس عـــن

الفتاة الكفيفة التي تتقوقع حول نفسها، ولا تجيد سوى التحسر على أطلال مصباحين لن يضيئا أبدًا. أعرف جيدًا ما فقدته، لكنني أيضًا أعرف ما يمكنني أن أكسبه.

أشعلتُ النيران تحت وعاء الحليب، ووضعت بداخله قطعة زجاجية دائرية، وانتظرتُ أن تُصدر صوت تخبطها المميز عندما يبدأ السائل في الغليان. طاف بعقلي ما حدث في الصف اليوم، كنت أتحدث إلى طلَّابي عن:

- من يدعي بأن كل ظل يطابق أصله فإنه واهم أو مخادع، لا يوجد ظل مطابق لأصله!

علميًا فإن الظل ثنائي الأبعاد لا يقاس إلا بالطول والعرض، أما الأصل



فهو ثلاثي الأبعاد إذ أن له ارتفاعًا، أو حسب نظرية "آينشتاين" هو رباعي الأبعاد لوجود بُعد رابع وهو البعد الزماني.

توقفتُ لألتقط أنفاسي ثم تابعتُ:

- لا تلقوا بظلالكم على المجتمع وتنتظرون منه احترام كيانكم، والانتفاع بوجودكم، لا أحد ينتفع بظل! لا أحد يهتم بظل! لا تكونوا مجرد ظل يمشي على الأرض ثم تتباكوا أن الناس تسحقكم بالأقدام.

انطلقتْ ضحكة هازئة عرفت صاحبها، تجاهُلي لضحكته الأولى في بداية الدرس دفعه للتمادي، لذلك قلت بحزم:

- هل تراني ألقى عليكم النكات يا "أمجد"؟

أجاب بوقاحة حسبتها متعمدة:

- نعم، كلامك بالنسبة لي مجرد نكتة، لكنها نكتة سمجة.

تحديته ببرود:

- لو كانت سمجة كما تقول لما أضحكتك، أليس كذلك؟

- إذًا اسمحي لي أن أخبركِ بنكتة سمجة أخرى.

ثم استطرد دون أن أسمح له:

- نحن العميان..

شدد على مخارج حروف الكلمة كما يفعل دائمًا، ثم أردف بنبرة متهكمة:

- تريدين منا أن نكون جزءًا من هذا المجتمع الذي يحتقرنا، ليس فقط مجرد جزء بل جزء عامل متفاعل، لا أدري في أي عالم مثالي تعيشين لكن في عالمي الجميع ظلال تُسحق بالأقدام، مُبصرون وعميان.

هتفت بحماس:

- أحسنت لقد قلت شيئًا عظيمًا.

خمنت أن الحيرة لابد وأنها تعتلي قسماته الآن، ودلَّل عليها صمته.

فأردفت بالحماس نفسه:

- لأول مرة تضع المبصرين والعميان في كفة واحدة، حتى ولو كانت كفة لا تسع الجميع، لكن لا يهم ففي ذلك تقدم ملحوظ في طريقة تفكيرك.

همَّ بالحديث فقاطعته بحزم، وأنا أجدر على أن أتنقل بين اللين والحزم في الوقت الذي أريد، ولولا ذلك لفقدتُ زمام التحكم في صفي:

- لا ينقسم الناس في رأيي سوى إلى قسمين، قادر وعاجز، العاجز المثير للشفقة هو ذاك الذي يختار بإرادته أن يعيش تحت الأقدام.

احتك مقعده بالأرض، وسمعت صوت ارتطام جسده في المواضع نفسها التي يرتطم بها في كل مرة، خرج منفعلًا وهو يهتف:

- لا أريد أن أسمع هذا الهراء، لا طريق أمامنا سوى أن نسير مع التيار.

- لا يسير مع التيار سوى السمك الميت يا "أمجد"، فهل أنت سمكة حية أم ميتة؟

توقف وقع حذائه على الأرض لثانيتين قبل أن يُكمل سيره مبتعدًا، ثانيتين كافيتين لأعرف أن كلماتي تركت فيه أثرها.

استعدتُ تركيزي عندما أرقت بعض الحليب وأنا أصب منه في كوبي المفضل، فنظفته وأنا أحلم أن أنجح يومًا في تنظيف ما زرعوه داخل عقل "أمجد" من هزيمة نفسية.

***

كان ثقيلًا أكثر مما ظننت، بارد الملمس، بتفاصيل دقيقة ونقوش رافقتها أناملي مجيئًا وذهابًا، نقلت أناملي إلى البطاقة الملتصقة فوق طاولة العرض، وتحسست الحروف البارزة بطريقة "برايل" لهذه الكلمات:

"سيف مُقلد للسيف الدمشقي الخاص بـ"صلاح الدين الأيوبي"، والذي كان يُعرف بـ"السلاح السري"، ذو الثلاث خواص الخارقة: حدة الشفرة، خفة الوزن، خاصته الميكانيكية الفريدة التي تمكنه من قطع سيوف أعدائه وليس رقابهم فحسب.



ظلَّ السر حبيس دولة "صلاح الدين"، حتى أعلن الباحثون بعد قرون أن السيف يحتوي على أنابيب كربونية، والتي صارت اليوم قمة تكنولوجيا علم المواد متناهية الصغر".

انتهيت من القراءة بالتزامن مع صوت خالي "إدريس":

- قطعة فريدة، إنها تقليد مماثل تمامًا للأصل.

التفتُ إليه وقد ملأني السيف رهبة:

- وأين السيف الحقيقي الآن؟

حملت نبرات صوته من الحزن ما حملت من الغضب وهو يجيب:

- كل ما يهمني أن أعرفه أن تمثال "صلاح الدين" الموجود في "دمشق" سُرق سيفه تحت أنظار الجميع، أي أن السيف لم يعد في يد فارسه.

أضفتُ بمرارة غلبتني:

- ولا القلم!

أمسك كتفي بقبضتين محكمتين، وقال بصوت بقوة قبضتيه:

- لذلك "رابطة الدم" هي أملنا الوحيد.

في الحقيقة لم أكن في البداية من أنصارها، لكن بعد فترة أدركت أن لا سبيل لنا سواها حتى نتمكن من قول "لا" أمام تلك القوانين المتعنتة التي تمنعنا من كتابة التاريخ، والتي تسمح فقط لعدد محدود من الكُتاب المأجورين الذين يمنحهم "مجلس الوِصاية" تصاريحًا رسمية بالكتابة فيه. يكتبون تاريخًا يزيف الحقائق، تاريخًا مُفصَّلًا، كالترزي الذي يصمم أردية حسب رغبة زبائنه.

تشويه التاريخ يعني تدمير مستقبل أولادنا وأحفادنا، ولم نكن لنسمح بذلك مطلقًا. كانت "رابطة الدم" ملاذنا الوحيد حتى لا نصير سمكًا ميتًا.

فرَّت مني تنهيدة حارة ثم قلت وأنا أبحث عن تأييده:

- خالي، نحن نفعل ما في وسعنا، أليس كذلك؟

- بالطبع، لا يوجد أعظم مما نفعل، نحن نصنع من دمائنا حبرًا نُخضب به صفحات الكتب، شاء الله أن يكون الدم هو المادة الوحيدة التي تبقى فوق الورق ولا تختفي، الشيء الوحيد الذي تمكنَّا به من تدوين التاريخ في الكتب بعيدًا عن صفحات الإنترنت المُراقبة من قِبّل "مجلس الوِصاية". "رابطة الدم" هي الحارس الوحيد للتاريخ، للحق، هي السيف الذي نحارب به الكُتاب المأجورين لتزوير التاريخ وفقًا لأهواء "مجلس الوِصاية".

نفَّس صدري عن تنهيدة أخرى، قلت:

- لكن ليس بغير ثمن يا خالي.

عاجلني بحزم:

- لا يوجد شيء بغير ثمن يا "آسية"، لا توجد حرب بلا ضحايا.

- ومتى تنتهي الحرب؟

- حروب السلاح تتوقف، لكن حروب الأفكار لا تنتهي أبدًا، حتى وإن هدأت ظاهريًا إلا أنها كالسوس الذي ينخر في الألياف الداخلية للخشب، لن يظهر شيء على السطح إلا عندما يأتي على أساسه. نقطة ضعف حيوية واحدة، تهدم كيانًا بالكامل.

ثم أردف بحزم أكبر:

- لستِ مسؤولة عن الماضي ولا المستقبل يا "آسية"، أنتِ لكِ الحاضر فقط. إن صبَّ كل منا تركيزه على حاضره فسينتظر أحفادنا بالتأكيد مستقبل أفضل، وسيكون لديهم ماضي أجدادهم ليفخروا به.

قطع حورانا صوت "شهد":

- "آسية" هيا أنا جائعة جدًا، مرحبًا يا عم "إدريس".

- مرحبًا يا "شهد"، حسنًا اذهبا واستمتعا بوقتكما.

تشبثت بذراعه كما اعتدت أن أفعل في صغري عندما أرجوه أن يفعل شيئًا تشتهيه نفسي، وقلت:



- تعالى معنا، اشتقت لصحبتك وأصبح متجرك يأخذك مني كثيرًا.

سمعت ضحكته التي ترسل البهجة في عروقي، وقال:

- تعلمين أن مشاغلي لا تنحصر في متجر الأنتيكات هذا، لكن سمعًا وطاعة يا حبة القلب.

تعلقت برقبته وضممت نفسي إليه، وفي عيني بسمة لا يملك رسمها غيره، دائمًا ما يخبرني بذلك "عيناكِ لا تضحكان إلا معي يا "آسية".

يعوضني بحنانه عما فقدته.. منذ اليوم الكئيب الذي انتحر فيه أبي!

***

(٩)

ماهر

اقتربت منه بعدما انفضَّ من حوله الجمع، وعلى وجوههم أمارات الانبهار! استقبلني "الحاوي" بوجه مشرق وكأن صاحبه لم يعرف ألوان الهموم، لكن المكياج الذي صبغ به أسفل عينيه كان رديئ النوع؛ فلم يفلح في إخفاء بصمات الإرهاق والسهر.

كان يمسك بأوراق "الكوتشينة" في يده، أو كما يُحب أن يسميها "أوراق الشّدّة".. مجموعة من الشرائح الرقيقة، تلتصق كل شريحتين معًا، واحدة شفافة وأخرى سوداء اللون، وتظهر الكتابة فيما بينهما باستخدام حبيبات ذات لون متوهج.

خلط ورق "الكوتشينة" أمام ناظريَّ، ثم توقفت أصابعه بشكل عشوائي عند ورقة في منتصف مجموعة الأوراق، ورفعها أمام وجهي، وأمرني أن أتذكرها، كانت ورقة "آس بستوني" تأكدت من أنني الوحيد الذي يراها، فوجه الورقة كان لي وظهرها له.

صببتُ كل تركيزي على متابعة لعبته، أمسك بيد واحدة مجموعة الأوراق وبالأخرى خلطها بشكل عشوائي، ثم أراح المجموعة بين أصابعه، لم تكن مضغوطة فوق بعضها، بل رخوة بعض الشيء، وبهزة واحدة من يده خرجت من منتصف الأوراق ورقة واحدة فقط وسقطت فوق الطاولة. أمرني بالتقاطها ففعلت، قلبتها فصعقني أنها ورقة "الآس بستوني" التي نظرت إليها في البداية!

أذهلتني اللعبة فسألته كيف تمكن من إسقاط الورقة الوحيدة التي رأيتها، تعالت ضحكاته ثم غمز بعينيه قائلًا:

- قرأت أفكارك.



نزعت مجموعة أوراق اللعب من يده، وقلبتها في يدي ورقة ورقة، كنت أظن أن المجموعة كلها تحمل شكل "آس بستوني"، لكن أذهلني أنها مجرد أوراق لعب عادية ككل أوراق اللعب!

كيف إذًا أسقط الورقة الوحيدة التي رأيتها؟ هل قرأ أفكاري حقًا؟!

حتى وإن قرأ أفكاري وعرف شكل الورقة، كيف سقطتْ هي بالذات من بين واحد وخمسين ورقة أخرى بمجرد هزة واحدة من يده؟!

سألته مرة أخرى:

- كيف فعلتها؟!

- وهل يبوح "الحاوي" بسره؟

تذكرت كم المال الذي يحويه جيبي، والذي بالكاد يكفي لاحتفال اليوم، للأسف لن أتمكن اليوم من إقناعه بأن يبوح لي بسر خدعته.

فجأة مس "الحاوي" قبعته بكفه واستند بالأخرى إلى الطاولة، أمسكت بذراعه وأنا أسأله بقلق عما ألمَّ به، نزع عن رأسه قبعته السوداء التي لا تفارقها، فرأيت للمرة الأولى صلعته يلمع فوقها انعكاس أشعة الشمس، فتغير انطباعي عنه في ثانية!

لم يعد الرجل الغامض الذي يذهلني كل يوم بجديده، بدا لي لأول مرة بشريًا خالصًا، لديه من النقص والضعف ما نملكه جميعًا، لم أظن أن غياب شعر رأسه سيُحدث في نفسي هذا الأثر، حتى عندما كان يهرب من بيته صارخًا بجنون ليمنع الجيران من دس المنوم في عروق جسده النحيل، لم أره ضعيفًا وقتها، بكامل زيه الأسود الذي لا يفارق جسده.

أرحته فوق مقعد بالحديقة، وجلست صانعًا من جسدي دعامة

لجسده الرخو. رويدًا رويدًا استعاد قوته، تُرى كم يومًا تستطيع الأدوية التي يتعاطاها أن تُبقيه مستيقظًا؟!

راقب حركة السيارات دون أن ينظر إلى عيني التي كانت بدورها شاردة عنه، تنظر بعيدًا إلى آخر نقطة تتصل فيها السماء بسقف إحدى البنايات، تعلقت أنظاري بنصف سحابة، بينما يختفي نصفها الآخر خلف إحدى

البنايات كما لو كانت تلتهمها في صمت.

ماذا لو كانت تلتهمها حقًا؟!

- أنا بخير.

التفتُ إليه أسأله ما لا يحتاج إلى جواب:

- لماذا تفعل ذلك بنفسك؟

لم أنتظر منه الجواب، ولم ينتظر مني إعادة السؤال.

انطلق بغتة صوت مكابح سيارة تبعها صرخات لا تنقطع، فزعنا إلى مكان الاصطدام، انخلع قلبي من صدري لمرأى دماء غزيرة تتوسطها جثة امرأة محطمة تحت العجلات، بلا رأس تقريبًا. يبدو أن المسكينة مزقتها عدة سيارات قبل أن يتوقف الطريق.

سأل أحدهم في إشفاق عن سبب الحادث، وانصرف آخرون في إصرار للبحث عن مذنب. على الأرض جلست امرأة تبكي وجسدها ينتفض بقوة، دنوت منها وجثوت على ركبتي أمامها، فرفعت رأسها نحوي وكأن مسًا من الجنون أصابها، قالت:

- قلتُ لها لا تفعلي، فقالت "لم أعد أستطيع النوم".. أنا أيضًا لم أعد أستطيع النوم، وأعرف أنني يومًا ما سأفعل مثلها.

جمَّدتني كلماتها في مكاني، وعقدت عن الكلام لساني. همسَتْ وفي عينيها نظرات فزعٍ رهيب، تنظر نحوي بعيون تدور في كل اتجاه وكأنها لا تراني:

- أخاف على صغاري من كل شيء، من الهواء ذاته، لا أتحمل أن يصيب أي منهم مثقال ذرة من سوء، لكنني كلما نمتُ أحلم بنفسي مدفوعة لأن أعذبهم، أقتلهم، أمزقهم، وأسمع صرخاتهم من الألم تمزق أحشائي.

زلزلتني كلماتها، وأثقلت عيوني بالدموع نظرات الألم في عينيها. شعرتُ وكأن أحدهم يمزقها من الداخل، تتقطع أوصال روحها وتتقلب فوق نيران عذاب ضاري، لكن الجسد الذي يراه الجميع من الخارج سليم لا تشوبه شائبة. جريمة واضحة الأركان، جريمة بغير دليل، جريمة كاملة!



صاح الرجال بفخر وهم يمسكون بقائد مذعور لإحدى السيارات:

- وجدنا المذنب!

***

حدقتُ في "أروى" وهي تضيف الحليب فوق المثلجات "الآيس كريم" وتأكلها في تلذذ. سألتها عن سبب إضافة الحليب، فاسترقت لي النظر وهي تلعق ما علق منه بإصبعها وتقول:

- لأنه يجعل المثلجات أكثر برودة على لساني.

- كيف حال دروسك؟

- ألم تخبرك جاسوستك؟

تلاقت نظراتنا في تحدٍ، كم تشبهني هذه الفتاة، تشبهني أكثر مما أحب. أردفتْ وهي تضع بفمها آخر قطعة:

- ألن يأتي صديقك "شريف"؟ أنا جائعة جدًا.

قلت مداعبًا بمزاج رائق افتقدته كثيرًا:

- بمَ أنكِ الشخص الوحيد على هذا الكوكب الذي يبدأ بالتحلية قبل العشاء، إذًا فلا ضير من الانتظار قليلًا.

جُلت بنظري في أرجاء المطعم الأنيق، يجب أن أشكر "شريف" على اختياره، المكان أكثر روعة مما ظننت عندما حدثني عنه على الهاتف. تأملت قائمة الطعام المدونة فوق شاشة صغيرة ملتصقة بكل طاولة، والتي تُمكنني من طلب الطعام بنفسي بالضغط على الأصناف المطلوبة. سادت مثل هذه القوائم مطاعم بلادنا منذ حادثة اختفاء الحبر. حوَتْ قائمة الطعام أرقامًا تتألم لها محفظتي، لكنها ليلة للاستمتاع وقد استحققتها.

- "ماهر" انظر مَن هنا!

تتبعت نظرات "أروى" وهي تشير نحو طاولة إلى يساري، تبعد عنا بثلاث طاولات، تجمدت الدماء في عروقي للحظة ثم عادت تندفع بقوة ألهبت

أعصابي، أشحت بوجهي المحتقن إلى يميني. سحقًا لذلك، ماذا يفعل هذا البغيض هنا؟!

استرقتُ النظر إليه مرة أخرى، وعندها تنبهت إلى هوية مرافقه، استبد بي الضيق. لم يكن الرجل الأول سوى "شهاب" ابن عمتي الذي لم أبغض في العالمين مثله، أما الآخر فكان مدير شركة "بيانكو"! ماذا يفعل هذان معًا؟! لمَ جمع القدر بينهما؟ أم أن الدناءة ما زالت تجري

في عروق ابن عمتي المدلل وأراد سرقة العمل مني؟ لن أسمح له!

أمرت "أروى" أن تلزم مكانها، عدَّلت من مظهري وأنا أحمد الله أنني الليلة مكتمل الأناقة، تتزاحم الماركات العالمية فوق جسدي، ومن الصعب أن ينتبه أحد إلى كونها مُقلدة.

تجاهلتُ "شهاب" تمامًا، وكأن مقعده لا يحمل سوى الفراغ. استدعيتُ ابتسامة ورسمتها فوق وجهي، أحنيت قامتي قليلًا ثم وجهت حديثي إلى مدير شركة "بيانكو":

- بدأ يومي بشكل رائع، لكنني لم أظن أنها نهايته ستكون أكثر روعة، سعدتُ برؤيتك يا سيدي.

رجلًا وقورًا في عقده السادس، تنطق عيناه بالحنكة، وترسم تضاريس وجهه لوحة ألوانها مزيج من الخبرة والقوة والذكاء. رقص قلبي طربًا عندما حيَّاني بحفاوة، خاصة وأن هذا الحقير يتابع الحوار في اهتمام.

- لو كنت أعرف أنك متفرغ الليلة يا باشمهندس "ماهر" لكنت دعوتك للانضمام إلينا.

وئدت سعادتي في مهدها عندما أشار إلى "شهاب" قائلًا بتقدير ملحوظ:

- الباشمهندس "شهاب عز الدين" شريكي الجديد.. الباشهندس "ماهر" صاحب شركة الدعاية التي قررنا التعاقد معها، ومن المقرر توقيع العقود في الغد.

وكأن هذا لا يكفي، أضاف "شهاب" ملحًا على الجرح قائلًا بصوت ذكَّرني بكل ما أود أن أنساه:



- لا داعي لتقدم أحدنا للآخر، لقد تربينا معًا، "ماهر" ابن خالي.

وهل يجرؤ على قــول "تربينا معًا"؟! كــلا لــم نتربى معًا يا ابــن الأثرياء، كنت أمضي ساعات الليل محبوسًا في خُنّ الدجاج ببيت جدتك الفقير، بينما أنت تعيش لاهيًا عابثًا خارج البلاد، في ربوع الدول العربية مع عمتي وزوجها.

وجهت حديثي إلى مدير شركة "بيانكو" ولا زلت على تجاهلي لـ"شهاب":

- بالطبع كان سيشرفني الانضمام إليك سيدي، لكن بالتأكيد سنعوض ذلك في لقاء آخر.

فعاجلني بدعوته:

- ولماذا مرة أخرى؟ إن لم تكن بصحبة أحد فتعال وانضم إلينا.

- أشكرك سيدي، لكن أختي الصغيرة معي وأنتظر صديقًا لي.

فأردف بترحاب:

- لا مشكلة، سنسعد كثيرًا إن انضممتم إلينا، أنا سعيد للغاية أنك و"شهاب" أقرباء، هيا، هيا تفضلوا.

عدت إلى مكاني، أشرت للنادل لأعلمه بتغيير الطاولة من أجل الفاتورة، ثم اصطحبت "أروى" إلى الطاولة التي تجمع رجلين في أيديهما مستقبلي، بل حياتي كلها.

جلس مدير شركة "بيانكو" إلى رأس الطاولة، عن يمينه "شهاب"، وعن يساره أنا ثم "أروى". لحظات وانضمت إلى الطاولة فاتنة تليق بصحبة "شهاب". جلست جواره وهي تنظر نحونا في تساؤل. قام "شهاب" بمهمة تعارف ثقيلة، قدمهــا إلينا كخطيبته "مي". اكتفيت بهزة من رأسي وأبعدت أنظاري عن كليهما.

- إن كنتم أقرباء فلماذا لم تحضروا حفل خطبتنا؟

التزمتُ الصمت، تكفَّل "شهاب" برد مجامل وبسمة كالحة:

- باعدت بيننا السنوات، لو كنت أعرف لـ"ماهر" و"أروى" طريقًا لكنت

دعوتهما بالتأكيد.

كاذب، مخادع، حقير، ما كنت لتفعل، كنت لتخجل منا، وجَّهت "مي" حديثها إلى "أروى" ممازحة:

- اسمك "أروى"، مممممم اسم غريب وكأنه أراد أن يكون "مروة" ثم غيَّر رأيه.

أتبعت ذلك بضحكة مجلجلة، شاركها فيها مدير شركة "بيانكو"، بينما اكتفى "شهاب" بنصف ابتسامة. نظرتُ إلى "أروى" لأجد نارًا تشع من أذنيها كالتنانين في أفلام الرسوم المتحركة، نارًا لا يراها إلا من يعرفها جيدًا، تحرق الأخضر واليابس وما تحتهما.

- وأنتِ "مي"، أليس كذلك؟ مممممم علمت أنه اسم أنثى القرد، يا لها من مصادفة.

تبادل الفتاتان نظرات محاربين من الساموراي، فاتخذ كل رجل حول الطاولة لنفسه ساترًا!

باغتني "شهاب" بضربة رباعية:

- لم أعرف أنك التحقت بكلية الهندسة يا "ماهر"، أم أنه مجرد لقب لا علاقة له بدراسة الهندسة؟

ثم أردف مفتعلًا الضحك:

- كنت تكره الدراسة، وتحب اللعب وافتعال المشكلات، حتى إنك نلت من جدتي عقابًا أكثر مما يناله المحكوم عليهم في القضايا الجنائية، رحمها الله كانت امرأة ثقيلة اليد.

قالها وتحسس أسفل عنقه، فضج الملتفون حول الطاولة بالضحك، طبعًا باستثنائي و"أروى" التي قررت خوض جولة أخرى مع "مي"، فأشارت إلى طبقها قائلة:

- تحبين عين الجمل؟

رفعت "مي" حبة منه في شوكتها وقربتها من فمها وهي تقول:



- كثيرًا، وأنتِ؟

- لا أحبه أبدًا، فهو يذكرني بشكل المخ، وكأنك كسرتي جمجمة أحدهم وجلستِ لتلتهمي مخه.

جفلت "مي" وأعادت النظر إلى حبة عين الجمل، رفعت كأس المياه إلى فمي لأخفي ابتسامتي، استطردت "أروى" وهي تميل نحوها:

- هل تعرفين أن الأثرياء في بعض البلدان يأكلون أمخاخ القردة؟ يكسرون رأس القرد ويقدموه في صحن ليؤكل مخه طازجًا.. دومًا تساءلت هل عين الجمل التي تُقدم فوق الأرز في المطاعم الراقية خرجت فعلًا من قشرة حبة مكسرات، أم هي أمخاخ مجففة لأجنة قرود.

منعت بصعوبة ضحكة كادت تغلبني، اتضح أن العشاء أكثر متعة مما توقعت، أعادت "مي" الحبة إلى طبقها وهي تزدرد ريقها مشمئزة، امتدت يدها إلى كأس الماء، فاستطردت "أروى" بحذر مصطنع:

- سمعت أن المياه التي تقدم في المطاعم هي إعادة تدوير لمياه الصرف لديهم، في الواقع لا ألومهم كثيرًا من أجل تخفيف النفقات.

ثم اتسعت ابتسامتها الخبيثة وهي تضيف في رقة:

- بالهناء والشفاء.

أبعدت "مي" الكوب عن شفتيها بتردد ملحوظ، وأمارات التقزز تعتلي وجهها. دومًا تغيظني تعليقات "أروى" لكنني اليوم أشعر بالغبطة وأنا أراقب ضيق "شهاب" وتململه في جلسته.

استأذن مدير شركة "بيانكو"، ونهض ليجيب على اتصال هاتفي، فحلَّ التوتر محله، لا نتبادل نحن الأربعة كلمة واحدة، فقط نظرات لها ألف معنى.

رن هاتفي فتوجهت إلى شرفة المطعم، إحدى يديّ في جيبي، والأخرى تعتصر الهاتف بقوة وأنا أصيح:

- ما هذا العبث يا "نيفين"؟! وهل علمتِ في أي شركة بدأ "جميل"

العمل؟!

- نعم بالطبع مستر "ماهر".

- أرسلي لي العنوان فورًا.

يبدو أن الليلة التي كان من المفترض أن تكون للمتعة ستنتهي نهاية غير محتملة، اهتز هاتفي يعلن عن وصول الرسالة، قرأتها وأنا أتابع من طرف خفي الحوار الدائر بين "أروى" و"شهاب" دون أن ألتقط منه كلمة واحدة. نظرات "أروى" الجادة وإنصاتها الشغوف إلى "شهاب" أثار ارتيابي، فعدت إلى الطاولة التي لا تضم في هذه اللحظة سواهما، وعندها توقفا عن الحديث!

أين "شريف"؟!

***



(١٠)

الكتاب الذي لم يقرأه أحد!

ذات غروب حملني سيدي "بهاء الدين" وانزوى بي مفترشًا ركنًا قصيًا مستترًا عن عيون المدينة المقدسة. خط فوق صفحاتي بما جادت به قريحته من بديع الكلمات. انتشيتُ بهم فخرًا، وبين أقراني من كنوز الكتب ازددتُ عزة.

توقف مليًا ثم عاد ليصل الكلمة بالكلمة، ويغزل الفكرة بالفكرة، حتى صرت مأدبة من العلم تحمست لأن تُذهل العالمين من بعده. يومها انتهت الصفحة، فتأهب ليكحِّل غيرها بخطه الأنيق. سافرتْ بي الذكرى إلى وقت صناعة هذه الورقة تحديدًا، يوم أن كانت الكتب مُقدَمة في غنائم الحروب على الذهب، والفضة، والمال، والجواري! عندئذ ولدت هذه الورقة.

اقتحم البشري المدعو "أكرم سراج" خلوتي فأعادني إلى زمان يبحث فيه البشر عن الحقيقة في كل مكان إلا في بطون الكتب!

كعادة البشر ثرثر طويلًا، فلا يزال يتوسل ويترجى لأتحدث إليه مرة أخرى حتى صفعته بصمت لا يكسره كاسر. فلما يئس سريعًا كما هو متوقع من أمثاله، دار على أعقابه؛ فصحتُ به:

- ليس من فضائلكم الصبر.

التفتَ إليّ بلهفة كادت أن تسبب له تمزقًا في الرقبة، رفع كفًا ليسكن بها ألم رقبته. أحاول منع نفسي من التحدث، لكنني مدفوع برغبة تستبد بي، أستلذ كثيرًا بمحادثة البشر حتى وإن كنت منهم مغتاظًا. كانت دهشته عندما سمعني أتحدث إليه في المرة الأولى لا تختلف كثيرًا عن دهشتي من قدرته على سماعي، فتلك موهبة لا يملكها إلا القليل من بني جنسه. لمعت عيونه وهو يتمتم:

- أنت تتحدث، لم أكن واهمًا إذًا.

ثم أردف:

- أرجوك لا تتوقف عن الكلام، تحدث.. تحدث..

هتفتُ بغيظ احتشدت به أركاني:

- وهل هناك من يسمع؟

- أنا أسمع.

خبرتي بحماس البشر طويلة جدًا، إنها كعود ثقاب لا يطول به زمان حتى يحترق بكامله.

دنا مني البشري ومس بأنامله صفحتي الأولى، توقف عند حرق أصاب أسفلها؛ فسافرت بي الذكرى إلى يوم أصبت فيه بهذا الحرق الذي شوَّهها وبتر نصفها محولًا إياه إلى رماد. كان ذلك مباشرة عقب معركة عظيمة غيرت مجرى التاريخ، معركة "حطين". إذ سمح القائد المنتصر "صلاح الدين الأيوبي" لبقايا جيوش الصليبيين بالرحيل بسلام عن أرض القدس.

وفي مساء اليوم التالي للمعركة، وفي جنح الليل هجم أحد الجنود الناقمين على بيت سيدي "بهاء الدين"، خيرة علماء زمانه. لم يكن بالبيت وقتها، وكنت أول ما لمسته يد الجندي المحتقنة بالكراهية. أشعل شمعة وقربها مني حتى التقطت وريقاتي حرارة اللهب. لم أتألم قط مثلما تألمت في هذا اليوم، كنت أظنها النهاية، سأستحيل إلى رماد بائس قبل أن يقرأني أحد.

هجم أحدهم فجأة من الخلف على هذا الناقم، كنت أظنه سيدي أو أحد تلاميذه، لكن ما إن تطلعتُ إلى وجهه وهيئته حتى أدركت أنه مجرد جندي صليبي آخر. وقف الرجلان وجهًا لوجه، قال الذي بيده النار:

- لماذا هاجمتني "بيار"؟!

فأجاب الذي بيده الأمل:

- "لويس"، هل جننت لماذا تحرق الكتب؟!

- ولماذا تهتم؟ إنها مجرد هرطقة بعض المسلمين المشعوذين.



حاول المدعو "بيار" نزعي من قبضتي زميله دون جدوى، فهتف به وهو يسترق النظر إلى الباب في وجل:

- اسمع "لويس"، دعنا نرحل من هنا، وسأشرح لك ما يجول برأسي.

- لن أرحل قبل أن أحرق هذا المكان.

- لا تفعل "لويس" أرجوك، إنها الشيء الوحيد الذي فزنا به في هذه الحرب.

- أي عبث تتفوه به "بيار"؟! ألم تعلمنا الكنيسة أن علوم المسلمين من الشيطان، لماذا بحق الجحيم ترى في هذه القذارة مغنمًا؟

دفع به "بيار" إلى الخارج، وانزويا في ركن مظلم خلف البيت. هز "بيار" رأسه نفيًا وهو يهمس:

- ليست من الشيطان "لويس"، ألم تر كيف ما زلنا نعالج المرضى بالسحر والأدعية بينما هنا في الشرق يجرون على أجسادهم عمليات معقدة بأدوات لم نسمع بها من قبل؟ ألم تر كيف فشل الدعاء والتعاويذ في إنقاذ قائدنا "ريتشارد" عندما سقط صريع المرض، ولم يسترد صحته إلا بعدما أرسل له "صلاح الدين" أحد أطبائهم؟ لقد علمت الكثير أثناء تحدثي مع الناس هنا.

استرق نظرة إلى الطريق قبل أن يعود بأنظاره إلى "لويس" قائلًا:

- لقد رأيت بنفسي كيف عالج أطباؤهم الجرحى، وكيف يضبطون أوقات صلواتهم واتجاه قبلتهم بأجهزة معقدة، هل رأيت في المعركة أسلحتهم التي تمتزج فيها مواد خاصة، يلقون بها فوق رؤوسنا فتمطرنا بنار حارقة؟! هذا ليس سحرًا شيطانيًا "لويس".

ثم همس بجدية بالغة كمن يبوح بسر خطير:

- إنه علم.

هز "لويس" كتفيه بلا مبالاة وهو يسأل باستخفاف:

- وماذا سنفعل به؟

برق الحماس في عيني "بيار" وهو يقول:

- سنأخذه معنا إلى أوروبا. هذه هي معركتنا القادمة.

- أي معركة؟

- معركة الوعي، إن فزنا فيها فسنُخرج أوروبا بكاملها من عصورها المظلمة، لم أعد أرغب في أن أرى بلادي تعيش في ظلام بينما النور يضيء بلاد الشرق، يرفلون في نعيم عصرهم الذهبي، لم أعد أرغب في أن أرى طبقات البراز الكثيفة تكسو شوارع بلادي، بينما يملكون في كل بيت مكانًا لتنظيف أجسادهم وفضلاتهم، لم أعد أرغب "لويس" في أن أرى بلادي غارقة في الجهل والخرافات والقمل والمرض، لا أريد أن يبقى العلم والنظافة والصحة حكرًا على بلاد الشرق.

سنتوجه إلى "أوروبا" وبيدنا مشعل العلم لنضيء به عقول أبنائها يا رفيقي.

حكَّ "لويس" رأسه وقال:

- ولكن لا يمكننا أن نحمل كل هذه الكتب معنا تحت مــرأى من جنـــود "صلاح الدين".

أنارت بسمة واسعة وجه "بيار" وهو يقول:

- لن نأخذها "لويس"، فرفقائنا الذين سمح لهم "صلاح الدين" بمغادرة "القدس" سيكون بحوزتهم هذا العلم في أغراضهم، والأهم.. في رؤوسهم وصدورهم.

ظننت واهمًا أنني نجوتُ أخيرًا، إلا أن هذا الـ"لويس" قلبني بين يديه، كشفت بسمته عن أسنان صفراء نخرها السوس، ثم قال:

- لكن هذا الكتاب سأحتفظ به، علمت أن "بهاء الدين" الذي يبجلونه كثيرًا يصرف جل وقته في كتابته.. لهذا أردت حرقه نكاية فيه، إذًا بحسب كلامك لا بد أن لهذا الكتاب أهمية عظيمة.

حثَّه "بيار" باضطراب وهو يستطلع الطريق بأنظاره:



- حسنًا هو لك، لكن أسرع، هيا.

***

أعادني صوت البشري إلى زمانه، يحثني على الكلام. يظن كغيره أن بإمكاني أن أعلمه كيف يحيا، استبد بي غضب مبعثه الذكريات والأهوال التي لاقيتها حتى وصلت إلى هذا المكان، أعتلي مكتب هذا الأحمق؛ فهتفت به:

- وهل تظن أنك تملك العقل الكافي لتفهمني؟!

أجاب بسرعة وثقة لم أتعجب لهما:

- نعم أملك بالتأكيد، فقط تحدث معي.

- إذًا إليك سؤال بسيط، إن كان جوابك عليه صحيحًا فسأبـــوح لك بالكثير.

ثم أضفت بشراسة:

- أما إن كان جوابك خاطئًا ـ وسيكون كذلك بالمناسبة ـ فسأخفي كل الحبر من صفحاتي.

بتسرع الجاهل قال:

- اتفقنا.

التزمت الصمت حتى بدأ القلق في شق طريقه فوق وجه البشري، ثم ألقيت عليه سخرية مني:

- أخبرني باسم أول من فك رموز اللغة الهيروغليفية، سؤال بسيط كما ترى، لابد أنهم علموك إياه في المدارس.

اتسعت ابتسامته حتى بدت نواجذه، ثم قال دون أن يطلب فسحة للبحث عن الجواب:

- "شامبليون" بالطبع.. لقد أجبت بشكل صحيح كما ترى، والآن دورك لتخبرني بكل شيء عن نفسك.

فلما طال صمتي دنا مني، حدثني، هتف بي، هزني، قلبني رأسًا على عقب..

فتحني فلم يجد سوى صفحات صماء.. بلا نقطة حبر واحدة!

***



(١١)

ماهر

- لدينا الآن أحدث الأجهزة التي طورتها شركة "بيوترونيك" الألمانية، برامج مطورة تقيس معدل ضربات القلب، ونسبة السكر، والضغط، حيث يتم زرع حساس صغير في الصدر، يتصل بالهاتف المحمول إذا حدثت مشكلة بالقلب، مع فجر الهواتف الذكية كل شيء ممكن، الآن فقط بسعر..."

أوقفتُ السيارة أمام بناية صغيرة في شارع يتميز بالهدوء، لم يكن بها مصعد لذلك صعدت الدرجات إلى الطابق الثالث والأخير. استقبلتني لافتة مضيئة تعلو الباب، تتوسطها عبارة "شركة آسية لتطوير الأعمال"، فقط ولا شيء أكثر. ما إن دخلت حتى التقطت حاستي الشمية رائحة "عنبر" نفاذة، يا له من اختيار غريب للعطر!

استأتُ عندما لم أجد أحدًا في مكتب الاستقبال، خطوت بضع خطوات نحو باب مفتوح لإحدى الغرف، وجدتُ بداخلها "جميل" المنهمك في تثبيت ساعة بالجدار، كان أشبه بسمكة سلمون لديها قدرة فائقة على التكيف في أي نوع من المياه!

كانت من تلك اللوحات التي سادت بلادنا مؤخرًا، مرسومة بقشور ثمار مجففة وملونة. تأملت لعدة ثوانٍ الرسمة الغريبة التي تُمثل أشجارًا مزروعة في أرض ذات لون أخضر زاهي، خمس أشجار لكن بلا أوراق وبلا جذوع وبلا سيقان! فقط جذور نابتة تحت الأرض ولا يظهر فوقها سوى خمسة أعواد طويلة من القش يناقض ضعفه قوة جذوره! تدفعه الريـــاح

إلى أن يميل بعنف وكأنه في وضع ركوع.

قطع دندنته عندما التفتَ وبوغت برؤيتي، حكَّ شعر رأسه واتخذ من المكتب الصغير ساترًا. سألته

- ماذا تفعل هنا يا "جميل"؟

حرَّك بعض الأغراض فوق المكتب باضطراب، واكتفى بقول:

- أعمل.

- "نيفين" اتصلت بك عشرات المرات، لماذا لا تجيبها؟ لو لم يخبرها أحد أصدقائك بمكان عملك لما توصلت إليك خاصة بعدما غيرت عنوان منزلك منذ فترة دون أن تهتم بتدوينه في ملفك الإلكتروني بالشركة.

بدا أكثر اضطرابًا من تلميذ أمام معلمه، وضعتُ كفي في جيبي، ملأت رئتيّ بالأكسجين ثم قلتُ:

- لم أقصد طردك، تعلم أنني كنت أمر مؤخرًا بوقت عصيب، هيا فلتعد معي إلى الشركة.

- كلا يا باشمهندس "ماهر" لن أعود.

منعت نفسي بصعوبة من أن أصرخ بوجهه، قلت وأنا ألوّحِ أمامه بسبابتي:

- ستعود معي يا "جميل".. لقد فزنا بالعمل مع شركة "بيانكو"، إن كنت تريد زيادة في راتبك فلك ذلك.

- لا أريد شيئًا يا باشمهندس "ماهر".. بصراحة أحب العمل هنا.

حقًا لم يكن في نيتي أن أثور، لكنه أرغمني بعناده على ذلك، ويبدو أن هذه الثورة اقتحمت الأبواب المغلقة، فانفتح أحدها وخرجت من خلفه امرأة اقتربت منا بخُطى بطيئة، التفتّ إليها قبل أن تحاول دخول الغرفة قائلًا وأنا أشير بيدي إشارة توقف:

- كل شيء على ما يرام، لا داعي لتدخلك.

تسمرتْ خطواتها عند الباب، نظارة شمسية في مكان مغلق، أتخترع تلك المرأة صيحة جديدة للموضة؟! تجاهلتْ المرأة كلماتي، ولم يعجبني ذلك، ثم وجَّهت سؤالها إلى "جميل"، عرفت ذلك من اتجاه رأسها:

- ماذا يحدث هنا؟



فضح صوتها الرقيق حداثة سنها، بعد أن أوهمتني النظارة التي تلتهم نصف وجهها أنها امرأة أربعينية.

- لا شيء، الباشمهندس "ماهر" كان في طريقه إلى الخارج.

يا له من وقح! لم يسبق أن تعامل "جميل" معي بمثل هذه الوقاحة، على ماذا يعتمد هذا الأبله؟! تواضع الشركة التي يتمسَّك بها مفضوح للعين.

قلت بإصرار لا يسمح باعتراض مسددًا له نظرات نارية:

- لن أرحل بدونك.

اقتربت الفتاة، توقفت على بُعد ثلاث خطوات، عقدت ذراعيها أمام صدرها، وسألت بتعالٍ:

- ما مشكلتك؟

- مشكلتي ليست معكِ، من فضلك عودي إلى عملك.

أمالت رأسها وقالت بهدوء لكن بحزم:

- طالما المشكلة تخص أحد العاملين بشركتي، إذًا فمشكلتك معي.

- شركتك!

عرفت إذًا سر اختيار العنبر.

كان من الممكن أن يتطور الحوار بشكل سيء لولا أن قطعه دخول فتاة

تماثلها في العمر تقريبًا، لكنها أكثر أناقة وجمالًا، سددت نحوي نظراتها وهي تقول:

- "آسية"، الجميع بانتظارك.

- حسنًا يا "شهد".

التفتُ إلى "جميل" استعدادًا لاستكمال النقاش بعد رحيل الفتاتين، إلا أن تلك الـ"آسية" قالت:

- هيا يا "جميل"، وأنت أيضًا.

ثم خرجتْ، سمعت الفتاة الأخرى "شهد" تسألها:

- من هذا؟

فأجابتها:

- لا أحد!

رحل ثلاثتهم وبقيت وحيدًا في وسط الغرفة، يأكلني الغيظ.

***

في طريقي إلى مقر شركة "بيانكو" قام عقلي بعمل عشرات البروفات الذهنية لما ستؤول إليه نتائج الاجتماع، وكانت جميعها نهايات مبهجة كثيرًا، لكن ما إن وقع بصري على "شهاب" يجلس مغترًا بنفسه حول طاولة الاجتماعات حتى قفز لعقلي أسوأ نهاية ممكنة.

كنت متوترًا إلى الحد الذي جعل استدعاء ابتسامة واحدة أكثر صعوبة من أي وقت مضى.

- ... وهذه هي أعظم مقطوعات "باخ" الموسيقية، ألا توافقني في ذلك يا باشمهندس "ماهر"؟

أومأت برأسي مجاملًا وأنا لا أتذكر كيف وصل بنا الحديث إلى "باخ" ومقطوعته العظيمة؛ فقد كنت منغمسًا في تأليف مقطوعتي الخاصة!

عندما اتخذ الحديث منحنى أكثر جدية عن طبيعة الدعاية التي سأقدمها من أجل منتج شركتهم الجديد، قاطعني "شهاب" بوقاحة متعمدة:

- لا يشبه هذا العرض البسيط، النماذج البارعة لأعمال شركتك السابقة والتي عرضتها علينا يا باشمهندس.

و"باشمهندس" بالطبع كانت إمعانًا في إذلالي، لا شك لدي أن ابن الأثرياء يعلم جيدًا أنني لم أحصل على الشهادة الثانوية قط!



- هذا مجرد عرض مبدئي، فقد قمنا بالاستعانة بمصمم دعاية جديد، فالمصمم القديم نواجه معه مشكلة و...

قاطعني بصفاقة:

- لا نريد مصممًا جديدًا يا باشمهندس، نريد عرضًا مميزًا كالذي وعدتنا به، اعذرني يا "ماهر" لكن لا شأن لنا بالمشاكل الداخلية في شركتك.

ضاق صدري عندما تحدث مدير الشركة قائلًا:

- يبدو أننا سنؤجل توقيع العقد قليلًا، لكن أرجو أن تسرع في حل مشاكلك فكل تأخير ليس في صالحنا كما تعلم.

صرخت بصوت لم يسمعه أحد "أنا أيضًا التأخير ليس في صالحي أبدًا، لو تعلمون أنني مُهدد بالقتل لما جلستم أمامي وألقيتم عليّ شروطكم بمثل هذا البرود، أو لعلكم كنت ستفعلون الشيء نفسه، فحياتي لن تشكل لكم أو لغيركم أي فارق يُذكر، وماذا يُمثــل واحد من تسعين مليون؟".

لم أكد أخرج من المصعد وأنا غارق في أفكاري السوداوية حتى أتاني اتصال هاتفي من صديقة أختي لتفجعني بقولها:

- "أروى" على علاقة برجل لا أعرفه، رأيتها اليوم تركب سيارته بعد الدرس، وكانا في وضع غير لائق على الإطلاق!



(١٢)

آسية

دخلت الصف فسمعت حديث مجموعة من طلابي، أحدهم يحكي للآخرين عن النظارة ثلاثية الأبعاد التي اشتراها والده منذ أسبوع، وكيف أن أخاه الصغير قد طار بها فرحًا، وأخذ يتباهى بها أمام الجميع فقد أصبح يعيش الأفلام لا فقط يراها.

فسمعتُ "حسن" يقول لزميله:

- إذا تباهى أخوك أمامك مرة أخرى بنظارته، فقل له أنه لا يستطيع أن يمسك بيديه كتابًا ويقرأه مثلك، لأن حادثة اختفاء الحبر جعلت كتب المُبصرين بلا أهمية، أما كتبنا فقد ظلت على قيمتها، بل ازدادت قيمة بعدما لجأ إليها المُبصرون لإعادة تدوين كتبهم وإضافتها إلى المكتبة الإلكترونية العامة.

فتدخل طالب آخر في الحوار قائلًا بصوت مُلئ فخرًا:

- نعم كما قلت يا "حسن".. نحن في مدارسنا نقرأ من الكتب، أما في مدارسهم فهم محرومون من لمس الكتب ويلجأون إلى أجهزة لوحية غبية، علمًا بأننا أيضًا نستطيع استخدام النوع الناطق منها بكل سهولة.

صفَّقت بيدي فساد الهدوء، أنبأني صوت احتكاك المقاعد بالأرض أن كلًا منهم يعود إلى مجلسه. لا أستطيع انكار أن انتفاع الجميع بالكتب المدونة بطريقة "برايل" جعلني أنا نفسي أشعر بنقطة تفوق لصالحنا، يخجلني أن أشعر بذلك كما لو كنت مراهقة في عمر طلابي. أعرف أننا لسنا في مبارزة مع المُبصرين يثبت فيها كل منا نقاط تفوقه، لكن على الرغم من ذلك تسرب إلى نفسي شعور خبيث بالغبطة، يزداد استحواذه على نفسي كلما مسَّت أصابعي صفحات كتاب، وتشممت رائحته التي تتملك كل كياني



ألقيت عليهم سؤالًا يدور حول محور حديثهم واهتماماتهم، هكذا علَّمتني سنوات العمل التطوعي في هذه المدرسة، إن أردت أن يحوز كلامي على اهتمام طلابي، فيجب أولًا أن يكون كلامهم محور اهتمامي:

- هل يعرف أحدكم فكرة كاميرا الأطفال المجسمة التي تُباع في محلات اللعب بسعر زهيد؟

- كيف تسألينا عن شيء لا يعرفه إلا المبصرون؟!

وبالطبع كان ذلك "أمجد"، قالت "سالي" بحماس:

- أنا أعرف، كان لدي واحدة في صغري قبل أن أفقد بصري وأخبرني أبي بسرها.

كانت "سالي" هي الوحيدة من بين طلابي التي لم تولد عمياء، تمامًا كمُعلمتها. قلت لها:

- اشرحي لنا إذًا.

- الفكرة بسيطة جدًا، أبسط مما نتخيل، مجرد صورتين مختلفتين عن بعضهما اختلافًا بسيطًا، وعندما ترى كل عين صورة يقوم المخ على الفور بدمج الصورتين معًا، وترجمتهما كصورة واحدة مجسمة.

قال "حسن" بحرج:

- مس "آسية" أنا لا أستطيع تخيل ما تشرحه "سالي".

- الصور المجسمة كالفرق بين جسدك والظل يا "حسن"، وأعلم أن البعض لن يستطيع تخيل ما تشرحه "سالي" عن الكاميرا المجسمة، مثلما لا تستطيع أن تتخيل الألوان، لكنك بالتأكيد تستطيع أن تتعلم الكثير حتى إن كنت لم تر الألوان من قبل.

التقطت أنفاسي، وأردفت:

- بداخل عقل كل منا ملف للألوان والأشكال ولأشياء متنوعة أخرى، وكلما اكتسبنا خبرة أضفناها إلى الملف الخاص بها، قد لا يمكنك أبدًا تخيل اللون الأزرق، لكنك تستطيع أن تتعلم أنه لون مميز للبحر في

الصباح، ولون السماء قبل الشفق، وتعرف كذلك ما ينسجم معه من الألوان.

ثم أنهيت كلامي بقول:

- لا نرى لا يعني أننا لا نعرف.

قاطعني "أمجد" وكان لا يزال على حاله لم أتقدم معه خطوة واحدة،لم تكن المشكلة في عقله فقط بل للأسف في عقول من حوله قال:

- اللون الوحيد الذي نعرفه هو الأسود.

أجبته بحدة:

- إنك حتى لا تعرف اللون الأسود، أنت تردد فحسب ما يقوله الآخرون بشأنك، وإذا حدثت معجزة واستعدت بصرك ورأيت اللون الأسود فلن تجرؤ على ربطه بما تسبح فيه عيناك الآن، لا يمكنك أن تعرف الأسود يا "أمجد" إلا إذا قارنته بألوان أخرى، وعالمك خالٍ من الألوان.

لم ينطق بحرف، رقَّ قلبي له، وندمت على حدتي معه، فقلت بصوت حانٍ:

- أنت لا تعرف الفرق بين النور والظلام يا "أمجد"، لذلك لا وجود للاثنين في عالمك، وإن كان الظلام موجودًا فما يعيش فيه هو قلبك وليس عيناك.

علمتُ من الأخصائية النفسية بالمدرسة أن "أمجد" يعاني اضطهادًا

ديدًا في محيطه، هو شاب ذكي ولبق لكنه مضطر لأن يخوض يوميًا حربًا نفسية مع والديه، لماذا؟ لأنهم يخجلون من عاهته، لا يستطيعون تقبل النقص الذي ولد به "أمجد" والذي جعله مختلفًا عن باقي إخوته.

فكان أقرب الأقربين إليه يقفون في خانة أعدائه بدلًا من دعمه وتشجيعه، يحجبونه عن عيون الآخرين بدلًا من دفعه للاندماج معهم؛ فامتلأ قلبه بغضب فوق غضب، ولأنه لا يمكنه حبس غضبه بداخله طويلًا كان عليه أن يطلق سراحه كل فترة، فقط لكي يستطيع أن يتنفس، مثلما نفعل جميعًا.



يظن مثل أكثر الناس أن الغضب لا يمكن التعامل معه إلا بالتنفيس عنه، لا يعرف أن هذا التنفيس سيرفع من الشعور بالإثارة؛ فيتوهج الغضب بقلب صاحبه كجمرة حارقة.

وفي نهاية اليوم الدراسي كان هذا موعده مع تفريغ شحنته النارية بشجار عنيف أدى إلى كسر في ذراع أحد زملائه، وعندها تم استدعاء والده وعاقبته المدرسة بفصل لمدة أسبوع. غادرتُ المدرسة وقلبي ينفطر حزنًا، لم أواجه من قبل حالة بائسة مثله.

ماذا أفعل معك يا "أمجد"؟



(١٣)

(ماهر)

ضربتها، للمرة الأولى في حياتي أضرب "أروى".

لم أتوقف إلا عندما رأيت نزف شفتيها يصبغ قبضتي، عندها فقط عدت إلى رشدي.

رفضتْ أن تخبرني بهويته، عنيدة كما أعرفها ولم يفلح الضرب في كسر عنادها، حتى تهديدي لها لم ينجح في نزع الكلمات من فمها.

انسلت زجاجة مياه من بين أصابعي لتنسكب فوق أرض المطبخ، فأتبعتها بكوب زجاجي بعزم طاقتي لتتناثر شظاياه حولي، خرجت من البيت وأغلقت بابه بالمفتاح.

كنتُ ثائرًا بشدة، وأبحث عن جدار لألكمه.

***

اقتحمت شركة "آسية" دون أن أعبأ بأحد، وصلت لباب غرفة مكتبها، فأوقفتني الفتاة التي رأيتها من قبل لتحول بجسدها بيني وبين الباب، تمنعني من الدخول لكن هيهات!

- لا أحد بالداخل، إذا أردت أن تأخذ موعدًا...

قاطعتها وأنا أشعر بصداع يكاد يشق رأسي لنصفين:

- متى ستعود؟

- ليس قبل الرابعة.

التفتْ يدي حول خصرها وأدرتُ مقبض الباب، مرسلًا كلمات قاطعة لا تقبل المناقشة:



- سأنتظرها في مكتبها إذًا.

لم تملك "شهد" حيلة إلا أن تدعني وما أريد. ما إن ولجتُ إلى داخل المكتب حتى تأملته بعناية، أثاث كلاسيكي بسيط، لا أرى به ما يُميزه، وكأنه ينتمي إلى حقبة الثمانينيات، هذه الفتاة تعيش في الماضي!

فتحتُ النافذة وأرحتُ كفيّ إلى خصري، وقفتُ أمام البنايات المقابلة، أنظر إلى نوافذها المفتوحة وتلك المغلقة، أتخيل حكاية مختلفة خلف كل واحدة منها. استرعى انتباهي صوت ضحكات فوجَّهت أنظاري إلى الأسفل، رأيتُ شابًا وفتاة يتشابك كفاهما وترسل عيون كل منهما إلى صاحبه ألف رسالة.

ضبطتُ شعورًا بالحسرة اقتحم أضلعي ونفذ إلى قلبي. مرت أمامي صور لثلاث أو أربع فتيات صاحبتهن عندما كنت دون التاسعة عشرة، لم تكن علاقات بريئة بالكامل ولم تكن أيضًا لتتجاوز الخطوط الحمراء.

كنتُ دومًا الطرف السالب في أي علاقة حب، لم أسعَ قط خلف فتاة لأطلب ودها، حتى تلك الفتاة التي خطبتها لأشهر عندما كنت في سن التاسعة عشرة، كانت هي القائد لعلاقتنا. لكنني استنفذت كل رصيدي عندها بإهمالي المستمر لها، كانت السنة الأولى في تأسيس شركتي، وكل ما يملأ عقلي وقلبي وقتها جشع دفعني لأن أستغرق في العمل وأنا أصل الليل بالنهار.

لم أفهم قط عقول النساء، يشتكين ضعف طموحك، ويتذمرن من ضيق ذات اليد، ويرغبن في المال والجاه؛ وما إن يشغلك العمل عنهن حتى يتهمونك بالتقصير والإهمال. أنت المتهم دومًا فقيرًا كُنت أم غنيًا!

لم أعرف مذاق الحب سوى مرة واحدة فحسب، لم يكن حبًا ناضجًا مكتمل الأركان، لكنه ملأ قلبي كما لم يفعل أي شيء بعده.. ببراءته وطهارته ورقة نسماته. لو كان مُقدر له أن ينمو معي عبر السنوات، لأصبح حبًا متينًا لا يقوى شيء على هدمه، حبًا ينتشلني من عالمي المُدنس بالحقد واليأس وآلام الماضي. لكنه مات فَور ولادته، لأنني أفسدتُ كل شيء.. كل شيء.

استدرتُ إلى المكتب اتكئ عليه؛ فوقعت أنظاري على لعبة ذكاء كلاسيكية، مسمارين منثني أعلاهما في شكل دائرة، وعند موضع معين في كل منهما يمكن أن يتداخلا معًا، وعلى اللاعب أن يكتشف هذه النقطة التي تجمع المسمارين معًا، وتفرقهما عن بعض. تحسستُ اللعبة المعدنية في يدي أحاول إيجاد النقطة التي يحدث عندها كل شيء، نصف ساعة كاملة دون أن أنجح مرة واحدة، رغم إتقاني لهذه اللعب في صغري!

بدأت الذكريات تتوافد إلى عقلي في الوقت الذي دخلت فيه "آسية" إلى مكتبها، بنظارتها الشمسية ومشيتها الرصينة، وغطاء رأسها الطويل الذي يحجب عني خصلات شعرها. وضعتْ حقيبتها أرضًا، أزاحت مقعدها ثم جلست بهدوء، شبكت كفيها فوق المكتب وقالت بذات الصوت الرقيق:

- تفضل، أسمعك.

تركتُ اللعبة مكانها فوق المكتب المُغطى بلوح زجاجي، فأصدرت صوتًا وكأنني ألقيتها من علٍّ. امتدت يدها إلى اللعبة والتقطتها سريعًا، كان الملل قد التهم الكثير من عصبيتي فلم أعرف من أين أبدأ. قلتُ:

- مكتب أنيق.

- كان لجدي.

اكتفت هي بهذا التوضيح، واكتفيتُ أنا من إضاعة الوقت. راقبتها وهي تبعد المسمارين عن بعضهما، ثم تعود لتُشبكهما معًا في سلاسة!

قلتُ أول ما قفز إلى لساني:

- أنا "ماهر" مدير الشركة التي يعمل بها "جميل".. اسمعي، "جميل" موظف مهم جدًا لشركتي، وأنا في أمس الحاجة إليه هذه الفترة، افسخي عقدك معه، وسأحرر لكِ شيكًا بأي مبلغ تريدين.

كانت كلماتي تُرسم بدقة هدفها، انتظرتُ ردها لأعرف مع من تكون الكرة. سألتني بتقريع لا أحبه:

- طالما "جميل" مهم لك إلى هذه الدرجة فلماذا أهنته وطردته؟

حبستُ جملة "وما شأنك؟"، ومررت جملة "غلبني الغضب".



- عليك أن تتعلم كيف تتحكم في غضبك.

زفرتُ بقوة ورفعتُ أصبعي محذرًا:

- أريد أن أحل هذه المشكلة بهدوء، فلا تستفزيني.

انعقد الحاجبان الرفيعان بشدة، وتقوس فمها ثم قالت:

- هل تهددني؟!

أجبتها بوقاحة متعمدة:

- اعتبريه تهديدًا إن شئتِ، المهم هو النتيجة.

- النتيجة واحد/ صفر إذًا.

عقدتْ جرأتها لساني للحظة، ثم تساءلتُ:

- ماذا تقصدين؟

شبكتْ أصابع كفيها مرة أخرى وقالت بثقة ضخَّت ألمًا حارقًا في قولوني:

- "جميل" موظف في شركتي لا أريد الاستغناء عنه، وهو أيضًا متمسك بعمله هنا، أي كما يقولون "أعلى ما في خيلك اركبه".

لم تدرِ أنها بتلك الكلمات قد أشعلت لهيب ثورتي. انطلقتُ كالرصاصة وأدرتُ مفتاح الغرفة لأغلق بابها. توتر جسدها، وسألت بصوت فضح خوفها:

- ماذا تفعل؟ هل أغلقت الباب بالمفتاح؟

امتدت يدها إلى الهاتف فانقضضت عليها ونزعته منها لأطرحه أرضًا، وقفتْ فأمسكتُ كتفيها بقوة، شعرتُ بشياطين الغضب تتقافز أمام عيني وتصفق لي. قلتُ:

- وقعي قرار فصله الآن.

دفعتني في صدري بقوة بدت كدغدغة. صرختْ:

- هل أنت مختل عقليًا.. اتركني.

غرستُ أظافري أكثر في كتفيها، فأمسكَتْ هي بأصابعي التي تشبثت بها كالخطاطيف تحاول إبعادهم عنها، توقفت أصابعها عند الإصبعين الضامرين من كفي، فرأيت جبينها ينعقد بشدة، همستْ باسمي وكأنها تتعرف عليه للمرة الأولى:

- اسمك "ماهر"!

اجتذب صراخها "شهد" التي ظلت تطرق الباب بعنف، وتأمرني بفتح الباب. كنت أعرف أنني وصلت لنقطة لا رجوع عنها، سأمضــي إلى

نهاية الطريق إذًا. صرخت فيها:

- هل ما زالت النتيجة واحد/ صفر؟

بعناد لا يغيب عن بنات جنسها هتفتْ:

- بل أصبحت اثنين/ صفر، لم أصادف من هو أحقر منك، دعني وإلا أمرت "شهد" أن تستدعي الشرطة.

ما إن قالت ذلك بصوت جهوري حتى توقفت "شهد" عن طرق الباب، وصرخت بفزع:

- "آسية" إياكِ أن تتصلي بالشرطة، سيعثرون على ما تحويه حقيبة يدك.

توقف كل شيء للحظة، تركتها وحملت حقيبتها، أفرغت أحشائها فوق المكتب، فصدمني ما رأيت!

أمسكت ما عثرت عليه من أنبوب زجاجي صغير وقربته من وجهها، ثم قلت متشفيًا:

- أوووه.. انظروا ماذا يوجد هنا!

ثم أضفت وأنا أرفع راية النصر فوق أرض المعركة:

- إن كنتِ ما زلت ترغبين في استدعاء الشرطة فلا مانع لدي على الإطلاق، ولنرى كيف ستفسرين لهم سبب وجود أنبوب ممتلئ بالدماء في حقيبتك.



ثم أردفت بشراسة:

- أنت واحدة من أعضاء "رابطة الدم"، أليس كذلك؟ لقد انتهيتِ.

لم تفلح نظارتها الكبيرة في حجب خوفها، قبضت على ذراعها بيد وبالأخرى لوَّحتُ بأنبوب الدم أمام وجهها، وقلت متلذذًا بترويعها:

- هل تعرفين ماذا تفعل الشرطة بأعضاء "رابطة الدم"؟ دعيني أخبرك بذلك، إنهم يزرعون شرائح أحلام دقيقة بأمخاخهم، وعندها لن يعودوا قادرين على النوم ثانية بشكل طبيعي، هل تعرفين لماذا؟ لأن أحلامهم تتحول إلى كوابيس بشعة يتفاعلون معها في نومهم كما لو كانت حقيقية، يرى الواحد منهم الكابوس نفسه في كل ليلة، لذلك يهربون من النوم بأقراص تبقيهم مستيقظين لأطول وقت ممكن، لكنهم في النهاية يضطرون للنوم عندما تنهار أجسادهم، وعندها يواجهون أسوأ مخاوفهم من خلال كابوس صُمم بعناية من أجل كل واحد منهم.

ثم أردفتُ بشراسة، وأنا أتجاهل الطرقات العنيفة على الباب:

- عقاب بشع، أليس كذلك؟ كل ما أراده "مجلس الوِصاية" عقاب رادع لا يضطرهم إلى بناء المزيد من السجون تسع لأعداد المعتقلين المنضمين لـ"رابطة الدم"، ووقف التنامي المتزايد للرابطة، ونجح ذلك عندما أصبح في كل شارعٍ وفي كل بناية شخص يعاني ويتعذب أمامهم كل ليلة.. كل ليلة.

هل سمعتِ صراخ أحدهم من قبل عند استيقاظه من النوم؟ أنا سمعت، إنه أبشع صوت من الممكن أن تسمعيه طوال حياتك، صراخ يجمد الدم في العروق، ويعتصر القلب حتى تجف منه الحياة.

ظلَّت على صمتها، رغم أنفاسها المتسارعة، لم تنطق بكلمة واحدة تنقذ بها نفسها مني. ازداد حنقي فنزعتُ عنها نظارتها واعتصرتها في كفي، فكشفت عن عينين مشوهتين تمامًا.

عينين بشعتين خاليتين من بريق الحياة!

***

(١٤)

الكتاب الذي لم يقرأه أحد!

فلا يزال البشري يتهمني بالخداع حتى تلبسني غضب الصحراء، فالتزمت الصمت لألهب غيظه. أسبوع بأكمله يروح ويغدو أمامي، بدا أشبه بمجذوب فقد عقله، طال مكوثه بمكتبه في الليل فاقتحمت زوجته الغرفة المُحرمة عليها، تحثه على مغادرتها والنوم في فراشهما، لكنه أصر بحزم على ألا يغادر قبل أن أتحدث إليه مرة أخرى.

أطلَّ الحزن من عيون زوجته وهي تمسح فوق شعره الأشعث بشفقة أُم تتمنى أن يصيب ابنها من التعقل سهمًا.

حملني فجأة بين كفين مبللين بالعرق، تبًا له. ولأول مرة أغادر الغرفة منذ أن التقطني من فوق رصيف يضم الكثير من الكتب المُطعمة بالغبار.

انطلق بسيارته، وضعني في المقعد المجاور له هذه المرة. أدخلني بيتًا فسيحًا ما إن رآنا صاحبه حتى هش وبش. استقرت أنظار صاحب الدار فوقي كأنما يرى عفريتًا من الجن والبشري يحدثه عني.

فهمت أنهما أخوان، لا أعلم حتى الآن ما هو عمل هذا البشري لكنه بالتأكيد نوع تافه من الأعمال، فهذان البشريان تبدو عليهما أمارات الغباء بشدة، حتى إنهما لا يعرفان كيف يعاملان كتابًا بقيمتي.

وضعاني بجوار صينية يتوسطها فنجانان من سائل أسود كريه الرائحة يصر البشر على أنه طيب المذاق! وكأنه قدر مكتوب علينا أن نُبتلى بما يلج

أجساد البشر من روائح منفرة، وما يخرج منها!

حملني الرجل الذي ناداه البشري بـ"مالك". قلَّبني بين يديه كما تُقلَّب الشاة بعد ذبحها! تبًا له هو الآخر، لو كانت لدي قدم لأصبت منه مواضع الألم. ابتعدا عني مسافة كبيرة وتهامسا، وكأنني سأهتم كثيرًا بما يثرثران



حوله، بشريان غبيان!

استرقت النظر إلى طاولة استقر فوقها مجلد ضخم يحمل عنوان "أخبار التافهين".. فذكرني ذلك بحمقى يبذل الواحد منهم الوقت والجهد لمعرفة كل شيء عن أمر تافه، ولا يبذل معشار طاقته من أجل معرفة حقيقية مثمرة.

وكان قدري أن وقعت بين أيدي سلسلة من الحمقى ومدعي الثقافة، وها أنا لا أزال مُبتلى بهم من حولي.

دَنيا مني أخيرًا، جلسا قبالتي وتبادلا النظرات، ثم قال شقيق البشري كلمة واحدة ولم يزد:

- "النبطي".

الكتب لا تعرف الكذب، إنها تبوح فقط بما تعرفه، لذلك أقر بأنني تأثرت قليلًا، وفاز هذا المدعو "مالك" بمثقال شعرة من احترامي، لكنني لست طفلًا بشريًا بشعًا يستطيعون إلهاءه بالحلوى!

قلَّب البشري "أكرم" صفحاتي، انطفأ نور الأمل من وجهه عندما وجدها على حالها، فارغة كعقول بعض بني جنسه.

تبادلا الهمسات وهما يرمقاني بغريب النظرات، حملني البشري من جديد إلى بيته، ثم إلى مكتبه، تركني وغادر المكان، فحملتني ذاكرتي إلى غابر الأزمان.

***

(١٥)

ماهر

أثار الباب المكسور هواجسي، وقبل أن أخطو إلى الداخل استوقفني جاري "الحاوي" بقوله:

- يبدو أنك نسيت وأغلقت الباب على أختك الصغيرة، المسكينة ظلت تطرق الباب وتستنجد بالجيران حتى سمعنا صوتها وكسرنا الباب، اطمئن إنها بخير، أمها جاءت لزيارتها.

صفعتني عبارته الأخيرة، ولم أشأ التصديق. ألقيتُ نظرة سريعة على وجهه، صلعته متوارية خلف قبعته، ازدادت الهالات السوداء حول عينيه قتامة، نحف جسده حتى لم تعد بذلته السوداء محكمة حوله كما كانت.

طرقت مسامعي أصوات في غرفة المعيشة فتوجهت إليها مباشرة، يبدو أن هذا هو يوم المفاجآت، لكن هذه المرة كانت المفاجأة أقسى وأعنف من سابقاتها.

- "أروى"!

خرج اسمها محملًا بعدة انفعالات في آن واحد. ندم واعتذار لمرأى كدمة حمراء بوجهها، وأخرى تحتل موضعًا كبيرًا من ذراعها، غضب من نفسي لأنني لم أستطع أن أكبح جماح ثورتي، استنكار لسماحها لتلك المرأة بدخول بيتنا!

كنت أعلم أنهما تتواصلان سرًا منذ ثلاثة أشهر، منذ أن عادت تلك المرأة من الخارج وقد تذكرت أخيرًا أن لها أبناء حملتهم يومًا في وطن آمن أسفل قلبها، يتصلون بجسدها بمشيمة الحياة. رؤيتها أمام عينيّ وفي بيتي دفع بشياطين الغضب للرقص داخل عروقي من جديد.

بحزم أكبر هتفتُ باسمها، تجاهلتني وقالت للمرأة:



- كما اتفقنا، سأنتقل للعيش معكِ.

صفعتني كلماتها بقوة، فسرى الألم في جسدي كله، وقفت جامدًا بلا حراك وأنا أراقبها وهي تدخل غرفتها، ترتدي معطفها، ثم تعود حاملة حقيبة كبيرة. توقف كل صوت، إلا طرقعة عجلات حقيبتها على الأرض حتى وصلت إلى باب البيت واستدارت تستدعي المرأة بنظراتها لتلحق بها.

وقفتْ المرأة أمامي، فرأيتُ بصمات ثلاث عشرة سنة فوق وجهها، فقدتْ بشرتها حيويتها ونقاوتها، غاب عن عينيها العسليتين الواسعتين بريقهما، جفَّتْ شفتاها وتشققتْ وكأنها أرض بور لم تُروَ بالماء قط منذ أن فارقتنا. رغم ستار التعب الذي حجب وجهها إلا أنها بدت كثيرة الشبه ب"أروى"، أو بالأحرى تشبهها "أروى". بشرتها البيضاء، أنفها الطويل، جبهتها العريضة، لون عينيها المميز، جسدها الضعيف. أما أنا فلم أكن أشبهها مطلقًا، لم أكن أشبه أي أحد.

أبعدتُ أنظاري عنها، اقتربتْ مني ومستْ ذراعي فانتفضتُ، ابتعدتُ عنها عدة خطوات، وأوليتها ظهري. اعتصرني الألم حتى بات الكلام ثقيلًا على لساني، وأضحى التنفس ثقيلًا على رئتيّ.

همستْ المرأة باسمي فسرَتْ قشعريرة غريبة في جسدي، سددتُ مسامع قلبي، وأخفيتُ سحابة رقيقة غشيتْ بصري، لن أسمح لها أن ترى ضعفي، ولا أن تشعر باشتياقي لسماع اسمي يمتزج بأنفاسها مرة أخرى.

اقتربتْ ثانية، ومستْ ظهري، فنفضته مبتعدًا عنها، هتفتُ بعنف:

- ارحلي.

ثم استطردتُ بمرارة:

- ارحلا، لا تأتيا إلى هنا مرة أخرى.

أغلقتُ باب البيت؛ فارتفع من خلفه بكاء محموم، لم أميز فيه أنين "أروى" عن أنين أمي.

***

(١٦)

آسية

شربتُ كوبًا من العصير حتى ارتويت، توجهتُ بكلمة شكر إلى "شهد" التي أصرت على مرافقتي إلى البيت، جلستْ بجواري على الأريكة وأحاطت جسدي المرتجف بذراعيها.

انفجر خالي "إدريس" صائحًا:

- الحقير، سأربيه حتى يتعلم الأدب، وأنتِ يا "شهد" كيف سمحتِ لذلك أن يحدث؟!

- أقسم لك يا عم "إدريس" لم أستطع أن أفعل شيئًا، أغلق الرجل الباب من الداخل.

- لماذا لم تستدعي حارس الأمن أو أحد الجيران إذًا؟

كان هذا ما دار في خلدي بالفعل، فأجابت "شهد" بسرعة:

- لا أعرف، كنت خائفة كثيرًا، ولم أفكر بصفاء ذهن، لم يكن سوانا في المكتب وحاولت كسر الباب ولم أتركه لحظة واحدة، خشيت أن يفعل هذا الرجل بـ"آسية" شيئًا سيئًا.

ثم استطردت والحزن يملأ صوتها:

- "آسية" أنا آسفة حقًا، لم أستطع أن أساعدكِ.

لم أجد في نفسي قدرة على الكلام، قال خالي "إدريس" بغضب لازم نبرة صوته:

- سأشتكي هذا الحقير للشرطة.

تركتني "شهد" وهتفت بجزع:



- لا.. أرجوك لا تفعل، إن وشى بنا هذا الرجل للشرطة فسنعاقب جميعًا، أرجوك لا تفعل ذلك يا عم "إدريس"، أرجوك.

- وهل سأتركه ينجو بفعلته؟

- لقد وقَّعت "آسية" على قرار فصل "جميل" وانتهى الأمر، ها هو قد أخذ ما جاء من أجله، لا أظنه سيضايقنا مرة أخرى، أرجوك يا عم "إدريس" فلتغلق الموضوع عند هذه النقطة حتى لا نتآذى جميعًا.

كان عقلي شاردًا في نقطة بعيدة عن محور حديثهما، ضربتْ ريح عاصف بمصراعي النافذة فأفزعني الصوت، سألني خالي:

- ماذا كان يفعل أنبوب الدم في حقيبتك يا "آسية"؟

تكفَّلت "شهد" بالجواب:

- إنها دمائي، عندما اصطحبتُ "آسية" من المدرسة وضعت الأنبوب في حقيبتها لتسلمها لك، تعلم يا عم "إدريس" أن الدماء يجب أن تُستخدم للكتابة في اليوم نفسه الذي تغادر فيه الجسم.

عنَّفها وهو يقول بصرامة:

- ألم تتعلمي طوال هذه السنوات كيف يتم هذا الأمر بشكل سري وبعيد عن الأنظار؟

امتلأ صوتها بالندم:

- أعتذر كثيرًا، لم أتصور أن يفتح أحدهم حقيبة "آسية".

امتزجت بصفير العاصفة صرخة جمدت الدماء في عروقي، تبعتها صرخات أشد ضراوة، فعلمت صاحبتها..

عادت "سلمى".. وعاد معها الطنين إلى أذني.

***

كان يجب أن أراها في الحال، لم أحتمل الانتظار حتى الصباح، غادرتْ "شهد" إلى بيتها، فأوصلني "خالي" إلى بيت "سلمى".

شعرت بجو من الكآبة كما لو كنت أدخل سرادق عزاء. غابت عن البيت ضحكاته، وانزوى الأمان بخجل في ركن قصي، فامتلأت أركانه بالحزن والخوف. خلت غرفة "سلمى" إلا مني ومنها. اقتربت منها لأعانقها فنفرت مني، جلست فوق فراشها أحافظ على مسافة بيننا، وتحدثتُ إليها. قلت كلامًا كثيرًا أعلم أنه لن يستطيع التخفيف عنها وهي لا تزال في أيامها الأولى من العقاب، أرتني "سلمى" فشل محاولاتي بوضوح عندما قبضت على ذراعي بعنف آلمني، وقالت بصوت شرخه البكاء:

- كلما أغمضت عيني أراه أمامي، زوج أمي البغيض، يعود إلينا من جديد، يقترب ويلتصق ولا أستطيع دفعه عني، نجوت منه في الواقع، أما في أحلامي فلا أستطيع، أشعر بكل شيء كما لو كان حقيقيًا، أصرخ وأبكي ولا أحد يسمعني، كابوس يمر ببطء قاسي وكأن عقرب الثواني مُثقل بالعذاب والألم، كيف لأمي أن تنقذني في الحلم كما أنقذتني في الحقيقة، كيف لها أن تدخل رأسي وتدفعه عني، كيف لها أن تسمع صراخي الآن كما سمعته من قبل؟

تركت "سلمى" ذراعي لتضرب رأسها بكلتا قبضتيها بقوة وهي تصرخ بهستيرية:

- أخبريني يا "آسية" كيف أدخل أمي إلى رأسي، كيف أدخلها إلى أحلامي لتنقذني.

اقتحمت أمها الغرفة وضمتها إلى صدرها، امتزجت عبراتهما معًا وكل منهما تتشبث بالأخرى بقوة. صاحت أمها بحقد بالغ:

- كل هذا بسبب أولئك الملاعين أعضاء تلك الرابطة الدموية، لعبوا بعقل ابنتي عن طريق رسائلهم الإلكترونية المشؤومة، ما لنا وللكتب! فليحترق التاريخ أوله وآخره، حلوه ومره، ولتصحبهم جميعًا اللعنات.

غادرتُ بيتها أتخبط في أثاثه، أعادني خالي إلى البيت وأنا أكفكف دمعاتي، لم أتحدث معه بشيء، لم أجد في نفسي قدرة على الكلام. ظل



أنين "سلمى" وأمها يرافق أسماعي وأنا أستلقي فوق فراشي. زارني كابوس مخيف تلك الليلة وجثم بأنفاسه الثقيلة فوق صدري حتى الصباح، لم أذكر منه شيئًا عند استيقاظي سوى أنني كنت أصرخ بقوة دون أن يسمعني أحد.

***

(١٧)

ماهر

- ما هذا العبث يا "جميل"؟!

- هذا كل ما عندي يا باشمهندس "ماهر".

نظرتُ بإحباط إلى تصميماته البدائية، وأفكاره الدعائية المستهلكة. أغلقت شاشة حاسوبه بعنف ودرت حول نفسي في غرفة مكتبي كحيوان مذعور في طريقه إلى الذبح. دارت الأرض بي وأنا أمرر أصابعي العشرة فوق رأسي عدة مرات متتابعة.

لم أثب إلى رشدي إلا و"جميل" يندفع نحوي يحاول منعي من ضرب قبضتي مرة ثالثة بالجدار. تلاحقت أنفاسي في صدري وكأنني في حلبة الملاكمة، أنازل خصمًا لا أراه. فشلت أقدامي في حملي فاستدرت إلى الأريكة وانهرت فوقها.

غادر "جميل" المكتب مسرعًا، لم يبقَ لي أحد لألتمس منه المساعدة، لقد انتهيت ولا أمل في المقاومة، فليأتِ رجال "الباشا" ويأخذوا روحي التي لا قيمة لها، فليمثلوا بجسدي إن شاءوا، لم يعد للحياة أهمية عندي، ولا تمثل حياتي أهمية لأحد.

حللت أول ثلاثة أزرار من قميصي، وأرجعت رأسي للخلف وأغلقت عيني. لم أفتحهما إلا بعدما شعرت بحركة، لأجد "جميل" يجلس بجواري ويقدم لي كوبًا من المياه، لم أحرك يدي لالتقاطه، ولم أوجه له كلمة. أرجعت رأسي للخلف وأغلقت عيني ثانية.

بدأ "جميل" الحديث عن أي شيء وكل شيء، حثني على الكلام وكنت بحاجة بالفعل لأن أفرغ مكنون صدري الذي ضاق بحمله. بقيت عيناي



مغلقتين لكن لساني فتح كل الأبواب المغلقة، وعرى ما خلفها من أسرار، بُحت بكل شيء جعل مني "ماهر" الذي يراه الناس اليوم.

لم يقاطعني ولو مرة، فحفزني ذلك على الاسترسال في الحكي، تحدثت حتى اختنق صوتي بالألم، فترأس الصمت مجلسنا.

- اتصل بها.

لم أفهم أيهن يقصد بـ"بها"، ولا بد أنه أدرك ذلك فاستطرد:

- أقصد أختك.

عندها فقط أدركت هول ما فعلت، كيف بُحت له بشيء كهذا عن أختي؟! استحالت الراحة التي ملكت قلبي إلى ضيق ملأ صدري، فنظرتُ إليه أناشده ألا يبوح لأحد بما دار بيننا، فأكد لي بجدية بالغة أنه لا يمكن أن يخون ثقتي أو أن يفعل ما يؤذيني.

عزفت كلماته على وتر الندم بقلبي وأنا الذي فعلت كل شيء ليعود للعمل بمكتبي رغمًا عنه، قلت له:

- "جميل" أنا آسف، أنا...

قاطعني بقوله:

- لا تعتذر يا باشمهندس، لقد كنت حانقًا عليك كثيرًا لذلك أخرجت لك عملًا سيئًا، لكن بعد ما حكيته لي الآن أدركت أنني ظلمتك وحكمت عليك بشكل متسرع، أنت في مصيبة ولا أحد يعلم بذلك.. اعذرني لأنني تخليت عنك ورفضت مساعدتك.

ابتسمت له وأنا أفكر، ما أطيبه هذا الـ"جميل". تأملتُ قسمات وجهه التي تتنافى ومعايير الجمال، بأنفه الأفطس، وخشونة شعره الأسود المجعد، وفمه الكبير بشفاه سُفلى متدلية تُبقى فمه منفرجًا باستمرار، لكنني اليوم أدركت أن لقلبه من اسمه نصيب الأسد.

باغتني بقوله:

- ولا تظلم أختك أنت أيضًا، لا تتسرع في الحكم عليها دون بينة، لا تكتفِ

بكلمات صديقة وشت بها.

ليته أسمعني ذلك قبل أن أنقض عليها كالثور الهائج، أومأت برأسي قائلًا:

- معك حقك، الفتيات دائمًا لديهن دوافع كثيرة لتؤذي إحداهن الأخرى.

- واتصل بالآنسة "آسية"، المسكينة لا تستحق ما حدث لها.

احتل الضيق صدري ثانية، هززت رأسي نفيًا بقوة، قلتُ:

- أنا خجل جدًا مما فعلت، لا أستطيع أن أتحدث إليها مرة أخرى.

- لكن...

قاطعته بحزم:

- لا أستطيع يا "جميل".

أطرق برأسه ولم يعقب. خطر على ذهني سؤال فأفصحت عنه:

- هل كنت تعرف أنها عضوة في "رابطة الدم"؟

بدا مترددًا بشكل أسرى بالفضول في عروقي، دفعته للكلام فقال:

- نعم كنت أعرف، في الواقع، يعني... أنا... أنا أيضًا.

هتفت غير مصدق:

- أنت أيضًا أصبحت عضوًا في هذه الرابطة؟ هل أرغموك على ذلك؟

سارع بالنفي، وأنظاره مُعلقة بالباب المغلق لمكتبي:

- لا، لم يرغمني أحد، أنا عضو في "رابطة الدم" قبل أن أعمل في شركة الآنسة "آسية"، تقريبًا منذ شهرين.

سألته باهتمام:

- لماذا يا "جميل"؟

لم يكن ممن يحبون التحدث كثيرًا، لكن الخدر اللذيذ الذي دفع به إلى



عروقنا هدوء المكان ونوم القمر في مخدعه دفعنا لأن نبوح بما يواريه ضوء النهار.

- لأنني سئمت العيش على هامش الحياة، أريد أن يكون لي دور وأن أصنع فارقًا فيها، هل تعرف أن والدي يراني دائمًا إنسانًا فاشلًا لا نفع منه، لم يكن يناديني باسمي قط، كُنت "الفاشل" الذي لا يستطيع أن يتحصل على درجات عالية كإخوته، ولم يستطع أن يكون طبيبًا أو مهندسًا كإخوته، ليشرف والده ويرفع رأسه بين أصدقائه في المقهى.

ثم أردف:

- كنت بحاجة للشعور بالانتماء إلى شيء ما، الإيمان بقضية أمنحها نفسي، سئمت من العيش في الظل يا باشمهندس.

- وهل تؤمن بهذه القضية؟

- نعم، نعم، أومن بها كثيرًا، فدمائي لا تغذي جسدي الفاني فحسب، إنها أعظم من ذلك، لولاها لما استطعنا كتابة الكتب، لا يوجد حبر على ظهر الأرض بإمكاننا أن نكتب به داخل بلادنا إلا الدم.

لا أعرف إن كانت لعنة كما يؤكد "مجلس الوِصاية"، ولن تزول إلا بنبذ الفرقة والتزام القوانين، أو علامة من علامات الساعة كما يقول البعض خاصة بعد اختفاء الحبر من المصاحف، ولا أمل لنا إلا في الصلاة والدعاء، أو سحر كما يقول المؤمنون بنظرية المؤامرة، وعلينا الاستعانة بأمهر السحرة لفكه.

لا أعرف السبب ولا يهمني أن أعرفه، المهم هو النتيجة.

لم أقاطعه خلال حديثه، رأيت فيه "جميل" آخر غير ذاك الذي أعرفه منذ سنوات، "جميل" الذي أعرفه مسالم وانطوائي ومتطلباته من الحياة بسيطة جدًا، أما "جميل" الجالس أمامي الآن أكثر تعقيدًا من ذلك بكثير، ما أغرب أن نعيد اكتشاف الناس من حولنا من جديد! قلت:

- لكن النتيجة ليست رائعة يا "جميل"، أنت تعرف ما هو عقاب المنتمين لـ"رابطة الدم".

- نعم، نعم أعرف، وهذا يشعرني أكثر بأهمية ما أفعله، يشعرني بتميزي وتفردي... وكما يقول لنا دائمًا أحد المؤسسين للرابطة "لا حرب بلا ضحايا".

سألته بدهشة:

- عن أي حرب تتحدث يا "جميل"؟

أطرق صامتًا ولم يُجب، لا أعرف هل ظن أنني لن أفهم الجواب، أم أنه لا يملك جوابًا من الأساس!

غادرته ليلتها وأنا غارق في التفكير، فتشتُ بين الغضب واليأس والكره وعدم الرضا وكل المشاعر والأفكار السلبية التي تحتل رأسي عن طريقة لأتخلص بها من كل ذلك ولم أجد.. هل ما أفتقده لإعادة التوازن إلى حياتي هو "الشعور بالانتماء"؟

***

في البوذية هناك طريقان: أحدهما يسمى "الماهايانا"، والثاني يسمى "الهنايانا". "الماهايانا" طريق قاسي، شاق، ومؤلم مخصص للصفوة، أما "الهنايانا" طريق سهل، وأقل مشقة مخصص للعامة.

اليوم شعرت وكأنني انتقلت فجأة من قسوة "الماهايانا" إلى رحابة "الهنايانا".

أخيرًا تم توقيع العقود مع شركة "بيانكو"، واستلمت شيكًا بخمسين في المائة من مستحقاتي كما نص الاتفاق.

انتابتني رغبة جامحة في معانقة الجميع، طبعًا باستثناء "شهاب". أقبل نحوي وبسط كفه فصافحته مضطرًا، ثم تجاهلته كما أتجاهل برصًا يزحف أمامي في الشارع.

لكم سيكون ممتعًا أن أرى "شهاب" يزحف على بطنه فوق الأرض، عندها سأكون قد انتقلت من "الهنايانا" إلى جنة الخلد حيث كل الرغبات مجابة.



كدت أقفز في الهواء فرحًا عندما خرجت من مقر شركة "بيانكو" لأجد "شريف" ينتظرني مستندًا إلى مقدمة سيارته، لكمت كتفه بقوة وصحت به:

- يا بغيض، أين اختفيت طيلة الفترة الماضية؟

أمسك كتفه متألما وهو يقول:

- آه.. قويت قبضتك، هل كنت تتدرب في غيابي؟!

تركت حقيبة أوراقي فوق السيارة، واتخذت وضعية القتال، مشهرًا قبضتي في وجهه قائلًا:

- بل طاقة مكبوتة قررت التعبير عن نفسها الآن، هل أنت مستعد؟

أمسك بقبضتي القريبة منه، وقال ضاحكًا وهو يلتفت حوله:

- سيظن الناس أننا نتشاجر، مجنون في غضبك وفي سعادتك، هيا سنذهب إلى مكاننا المفضل، بالتأكيد هناك الكثير ليقوله أحدنا للآخر.

- حسنًا هيا بنا، بالمناسبة كيف عرفت أنني هنا؟

- اتصلت بـ"نيفين"، هذه المرأة تروقني كثيرًا.

أغلقت الباب وأشهرت في وجهه سبابتي محذرًا:

- إلا "نيفين" المرأة المسكينة لا ينقصها سوى أن تُبتلى بعلاقة مؤقتة مع رجل مثلك.

أثارت كلماتي ضحكاته، فشاركته فيها.

***

تعجبت لتوزيع الأرزاق! مطعم صغير يفترش صاحبه الطاولات فوق الرصيف، ويأتيه الزبائن من مشارق العاصمة ومغاربها، بعضهم للبساطة عنوان، وكثيرون تبدو عليهم سمات انتفاخ الجيوب، استبدلوا مقاعد المطاعم الفاخرة بمقعد خشبي بسيط حول طاولة مطعم شديد التواضع.

ماذا فعل صاحب المطعم ليستحق هذا الرزق؟

- "ماهر" أحذرك، إن لم تلتفت للطعام أكثر من تلفتك حولك فسأنسف الأطباق التي أمامك نسفًا.

انهمكنا في حديث طويل لم يسعه الوقت الذي قضيناه حول طاولة الطعام العامرة، فاستكملناه سيرًا على الأقدام مبتعدين كثيرًا عن مكان سيارة "شريف" التي تركت فيها حقيبة المال بعد أن صرفتُ الشيك الإلكتروني من البنك.

حكى لي عن سر غيابه المفاجئ، فيروس "C" اللعين غزا كبده منذ أعوام عديدة دون أن تظهر عليه أي أعراض، مرض صامت تخفَّى لسنوات كلص ذكي دون أن يترك أثرًا إلا بمسح دقيق أجراه مؤخرًا.

لمته قليلًا لعدم إخباري من قبل، ولمـــت نفسي كثيرًا لأنني كـــنت أمـــرر

فترات غيابه مكتفيًا بأعذار واهية. طمأنني أن حالته مستقرة، فقط يشعر بالتعب بين الحين والآخر. عانقته مُعتذرًا عن انشغالي بنفسي مؤخرًا دون أن أوليه الاهتمام الكافي لألحظ مرضه، وكان كعادته متفهمًا.

حكيت له عن كل ما حدث معي في غيابه عندما أصر على ذلك، فباغتني قائلًا:

- "ماهر" لقد حُلت كل مشاكلك، هؤلاء هم طريقك للخلاص من أزمتك المالية.

نظرت إليه بدهشة أطلب بصمت تفسيرًا لكلامه، جلسنا فوق أحد المقاعد والتفت إليّ مستطردًا:

- "ماهر" اسمعني جيدًا، ما أعرفه أن "رابطة الدم" تحتاج كثيرًا إلى الورق في كتابة الكتب، وخاصة الورق عالي الجودة المستورد من الخارج، كالورق الذي كنت تعمل فيه قبل حادثة اختفاء الحبر.

نظرت إليه ولا زلت لم أفهم مراده، فأردف بحماس:

- أقصد شحنة الأوراق الكبيرة يا "ماهر" التي ما زلت تحتفظ بها في المخازن، بإمكانك أن تبيعها لهم بسعر خرافي، وتحل كل مشاكلك المالية.

دارت كلماته برأسي فأعلنت كل حواسي حالة الاستنفار. ذكَّرته بعائق



لم يُشِر إليه:

- كيف أفعل ذلك يا "شريف" بعد كل ما أخبرتك به، هجمت على صاحبة الشركة وهددتها، كيف أطلب منها مساعدتي لأصل إلى رؤساء الرابطة لإتمام الصفقة؟

لكنني سكتُ فجأة ثم قلتُ مفكرًا:

- سأستعين بـ"جميل"!

- "جميل"! كيف؟!

- نسيت أن أخبرك، "جميل" أيضًا واحد منهم، ولكن إياك أن تُخبر أحدًا بذلك، لقد ائتمنني على سره.

شرد طويلًا ثم قال بثقة:

- لا أظن أن "جميل" سيساعدك.

- لماذا؟

- هل تظن أن "جميل" عضو بارز في هذه "الرابطة" أو يحتل فيها موضعًا قريبًا من رؤسائها؟ بالطبع لا. فـ"جميل" الذي نعرفه أقل قدرًا من ذلك بكثير، إنه مجرد خط صغير في لوحة كبيرة. أما مديرة الشركة بالتأكيد على تواصل مع الكبار، برأيي توجه إليها مباشرة فالتأخير ليس في صالحك أبدًا، الوقت يمر يا "ماهر"، إن لم يكن من أجل نفسك فمن أجل ألا يصيب أختك أي مكروه.

أصابني الغم كثيرًا، قلت متشككًا:

- هل تظن أنها ستساعدني؟ لا أظن ذلك أبدًا.

نسف "شريف" اعتراضي بقوله:

- هؤلاء ليسوا مثلي ومثلك يا "ماهر"، إنهم أصحاب قضية يضحون بأنفسهم من أجلها، أنا أثق أنها ستتغافل عما حدث طالما النتيجة لصالح قضيتها والرابطة التي تنتمي إليها.

هزرت رأسي نفيًا:

- لا أظن ذلك.

فقال بإصرار:

- جرب لن تضرك المحاولة، إن رفضتْ فلن تخسر أنت شيئًا، وإن وافقتْ فستربح أنت كل شيء.

في تلك اللحظة كانت نسبة قبولي لاقتراحه لا تزيد عن خمس وعشرين في المائة، وعندما عدنا إلى سيارة "شريف" أوصلني إلحاحه إلى نسبة خمسين بالمائة.

اصطحبني إلى سيارتي التي تركتها أمام مقر شركة "بيانكو"، وانطلق بسيارته مودعًا. ما إن ابتعد مسافة قليلة بسيارته حتى اعترضت طريقي سيارة جيب سوداء، نزل منها ثلاثة رجال حسبتهم في البداية رجال "الباشا".

كتفوني وانهالوا عليّ ضربًا بالعصي، رأيت أحدهم يفتح الباب الخلفي لسيارتي ويأخذ حقيبة المال، صرخت بقوة لم تكفِ لمنعهم.

تركوني هناك وسط الطريق أتقلَّب في دمائي وحسرتي، وغادروا بغنيمتهم. ما إن أدركت أنني عدت مرة أخرى إلى طريق "الماهايانا" حتى ارتفعت نسبة قبولي إلى تسعة وتسعين بالمائة.

لماذا لم يتدخل الناس لإنقاذي؟

لقد تظاهروا بأنهم كالعميان، أو كانوا بالفعل كالعميان!

***



(١٨)

الكتاب الذي لم يقرأه أحد!

- العالم المسلم "أبو بكر أحمد" المعروف بـ"ابن وحشة النبطي" صاحب كتاب "شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام"، الذي كشف به رموز اللغة الهيروغليفية في القرن الرابع الهجري، أي قبل عشرة قرون من كشف "شامبليون" لها، وأنا الذي كنت أظن أن "شامبليون" هو مُكتشفها الأول!

انتهى البشري من قراءة الورقة التي كتبها بخطه الرديء، واتخذ مقعدًا أمامي ينتظر؛ فلما طال به المقام دون كلمة مني، انصرف عني. ولم أكن لأتحمل هذا البُعد، كنت في شوق لأن أتحدث إلى هذا البشري الذي يهتم بالحديث معي، مر عليّ زمان طويل دون أن أجد هذا الاهتمام من بني جنسه. تحدثتُ قائلًا:

- إن أخطأتَ ثانية فلن أصفح عنك أبدًا.

تحررت اللهفة من أسوار عينيه تسبق قدميه إلى مكاني، حملني كأغلى كنوز الأرض، وجَدد على مسامعي العهد:

- لن أتسرع في الجواب مرة أخرى، أعدك.

عادت الحروف تتلألأ فوق صفحاتي، وعكفَتْ عيناه على التهام بديع كلماتي، بدا وكأنه سافر إلى غير زمان ومكان، نسى الجوع والعطش والنوم، وكل شهوة تَكبَّل بها عقل الإنسان.

لم يتوقف إلا عندما انتهى مداد سيدي عند كلمة حروفها ناقصة، فألقى عليّ سؤالًا أثار أشجاني:

- أين البقية؟!

- لا يوجد بقية، أنا كتاب لم يكتمل قط، أنا كتاب لم يقرأه أحد.

للحظات أصابني الهم، واستبد بأركاني الغم، كان لأنامله على وجهي روعة حبر دافئ، دغدغتني، روضتني، ومن نبضات الشغف بخافقه قربتني. همست له:

- أنا متعب.

فهمس لي:

- كيف أساعدك؟

- لن تستطيع.

لم يتبجح كعادته بقدرته، بل غلَّفه صمت وقور. بُحت له بأصل الداء، لا بحثًا عن الدواء، بل رغبة في أن أشعره بعجزه، وضعف قدراته:

- الكتب يجب أن تكتمل، ككل الحكايات التي لا ينبغي أن تظل ناقصة، ككل الألوان التي لا يجوز غيابها عن الأرض، وأكبر لعنة تصيب كتابًا هي أن يقف على الصراط بين الكتب المُكتملة، والكتب غير المكتوبة.

تركت كلماتي تجول بالرأس مُشعث الشعر، وتطلعتُ بحنين إلى قلم يجاورني فوق المكتب، أتذكر ريشة سيدي المغمورة بالحبر الغزير وهي تتحرك بشغف فوق جسدي لتبث فيه الحياة.

حملني فجأة بين يديه كما يحمل البشر فلذات أكبادهم، غادرنا غرفة مكتبه التي لم يخرجني منها إلا مرة واحدة عندما ذهب بي لزيارة أخيه، أدخلني غرفة فسيحة لم يأخذني إليها من قبل، أذهلتني المفاجأة، مكتبة ضخمة من الأرض إلى السقف، تحتل ثلاثة جدران وتضم عظيم الكتب!

ذكرتني روعتها بمكان سمعت به يومًا لكن لم أطأه قط، "بيت الحكمة"، أول جامعة في التاريخ، أنشأها "أبو جعفر المنصور" الحاكم العباسي واهتم بها من بعده "هارون الرشيد" ثم "الخليفة المأمون". كانت أكاديمية للبحث العلمي ببغداد، ضمت أركانها مرصدًا ومكتبة ضخمة ومركزًا للترجمة، كانت رمزًا للحوار بين الحضارات، تلهفت كثيرًا لزيارتها في أزمان الأمجاد.



هتفتُ بفضول بحجم السماء:

- من أنت؟!

فابتسم حتى بدت نواجذه.

***

(١٩)

آسية

قررت زيارة "أمجد" في بيته، اتصلتُ برقم أمه المدون في ملفه الإلكتروني بقاعدة البيانات الخاصة بطلاب صفي، أعلمتها برغبتي في المرور على بيتها لرؤية "أمجد"، لم يتحمس صوتها كثيرًا لهذه الزيارة، ورغم ذلك لم أتراجع عن قراري.

رافقتني "شهد" تقود سيارتي إلى الفيلا التي يعيش فيها "أمجد" مع أسرته، حدثتني "شهد" عن فخامة بنيانها، وروعة الحديقة المحيطة بها.

استقبلتنا شابة تعمل بالفيلا وأدخلتنا إلى غرفة بدت "شهد" منبهرة كثيرًا بما حوته من أثاث وديكور.

جاءت والدة "أمجد" لتضيف إلى صوتها غير المبالي على الهاتف تجاهلها لي وهي تُصافح "شهد" دوني، ثم تتوجه بالحديث إلى "شهد" تظن أنها مُعلمة "أمجد". فتحدثتُ للمرة الأولى منذ أن دخلت بيتها وقلتُ بوضوح:

- أنا معلمة "أمجد".

أتاني صوتها مُحملًا بالاستنكار وهي تقول:

- ظننت مُعلمته مُبصرة، لماذا تختار المدرسة مُعلمة كفيفة للعمل بها؟ يعني لا تؤاخذيني لكن ليس لأنها مدرسة للمكفوفين يجب أن يكون كل من طلابها ومعلميها فاقدي البصر.

كان لدي ألف رد أستطيع أن ألقيه في وجهها، لكنني لم أفعل، لأنني خشيت أن تتعالى أكثر فتمنعني من لقاء "أمجد"، وكان لقاؤه مهمًا جدًا لي.

جاء أخيرًا، حمل صوته من الفرحة ما لم يستطع أن يخفيه، فاحتفيتُ به كثيرًا وأوليته جل اهتمامي، أثنيت عليه فامتزج الفخر بصوته، تحدث إلى



أمه ولسان حاله يقول "انظري ماذا تقول مُعلمتي بشأني". لم تنطق أمه بحرف واحد، فتجاهلتها تمامًا طوال الجلسة التي استمرت ثُلث ساعة تقريبًا.

وما إن هممت بالانصراف حتى اقتحم والده مجلسنا بغير تحية، انتفض قلبي بداخل صدري عندما سمعت صوت لطمة نزلت بقوة فوق وجه "أمجد". هكذا قالت "شهد" وهي تميل نحوي لتصف لي ما يحدث. سمعت صوت "أمجد" مختنقًا بالألم ودون أن أرى استطعت تخيل الدموع التي لا بد أنها تتساقط فوق وجهه بقهر مميت.

كان أبوه يتهمه بالعبث في جهازه اللوحي ومحو بيانات هامة تتعلق بعمله، و"أمجد" يُنكر بقوة، ولما ازداد ضغط أبيه اعترف "أمجد" بأنه أخذ جهاز أبيه وهو يظنه الجهاز الخاص به، ولم يعرف بأنه تسبب في محو هذه البيانات إلا الآن.

أسمعه والده من الكلمات القاسية ما دفع بالدموع لأن تملأ عيوني، كيف له أن يعاقب ابنه على قدر لم يتدخل في كتابته، كيف لقلبه أن يكون خاليًا من أي عطف أو رحمة أو حنان أبوي، لماذا لا يجبر كسره، ويرحم ضعفه بدلًا من ذبحه بكلماته من الوريد إلى الوريد. ألا يدرك أنه شاب مراهق لديه ما يكفي من المشكلات النفسية ويحتاج إلى يد حانية تطيب جراحه وتدله على الطريق؟ لا أن تعمل هذه اليد على هدمه ونزع بساط الحياة من تحت قدميه. كيف لـ"أمجد" أن يحب الناس ويرأف بهم وهو يفتقد الحب والرأفة من أقرب الناس إليه.

لم أشأ أن أكون شاهدة أكثر على هذه الجريمة، غادرت بهدوء دون أن أوجه كلمة لأحد. غادرت لكن تركت من خلفي شابًا جميلًا يشوهون قلبه بعُقدهم وجهلهم، ويحولونه إلى مَسخٍ مقهور.. مثلهم.

❋❋❋

لمست ساعة هاتفي فأعلمني الصوت المبرمج بالوقت، لابد أن "ماهر" وخالي "إدريس" معًا الآن!

استحل القلق رفقتي لساعة أخرى ثم ساعة تَلَتْها، حتى ضقت ذرعًا بتحمله، حاولت طرده فأبى إلا ملازمتي. هاتفت "شهد" علها تبدد بعضًا منه لكن لا مجيب.. فانتصر القلق.

أوقف صوت فتح الباب تكهناتي عما يكون قد حدث في هذه المقابلة. استقبلتهما بشغف:

- خالي "إدريس" ماذا حدث؟

- لا تقلقي سنخبرك.

أعدَّت لنا "شهد" شايًا لم أكن بحاجة إلى شربه، أصخت السمع إلى خالي وهو يروي لي تفاصيل اللقاء:

- صُدم بالطبع عندما وجدني في انتظاره، كان يتوقع لقاءكِ أنتِ وظن أنكِ تخلفتِ عن موعده، فأخبرته بأنني أمرتكِ بمغادرة الشركة لأستقبله بنفسي، وأخبرته كذلك أنني مالك الشركة وأنكِ ابنة أختي التي تركت إدارة الشركة بالكامل لها.

- هيا، أكمل، وماذا أراد؟

تلبسني الضيق عندما عرفت أن هدفه الوحيد من مقابلتي لم يكن الاعتذار، وإنما مصالحه الخاصة، صفقة ورق يُريد أن يعقدها مع خالي. حجب عني الضيق ما تبقى من حديث خالي، حتى تحدثت "شهد" قائلة باستنكار:

- لماذا وافقت على مساعدته يا عم "إدريس"؟ لو كنت مكانك لطردته من الشركة وأسمعته مُر الكلام.

أجابها خالي بتعقله وحكمته التي ألفتها منه على مدار سنوات طويلة:

- لقد أخطأ ثم أقر بذلك واعتذر، فما الداعي لأن نقف عند خطئه رافضين تجاوزه؟

سألته وقد ساورني الشك للحظة:

- لماذا لا تكون خدعة منه للإيقاع بنا؟



أطربني خالي بضحكته المرحة ثم ربت فوق كتفي وقال:

- وهل يفوت هذا على خالك؟ لا تقلقي يا حبة القلب سأتخذ كل الاحتياطات اللازمة، المهم أن تبقي أنتِ بعيدة تمامًا عن هذا الرجل، وألقِ بكل شيء على عاتق خالك.

لا يعرف خالي أن ما يطلبه مني هو المستحيل بعينه، منذ اللحظة التي هاجمني فيها "ماهر" بمكتبي ومست أناملي كفه الذي يعاني شذوذًا منذ ولادته، حتى أدركت أن سنوات العمر أحدثت في نفسه شذوذًا أكبر.. كيف استطاع مهاجمتي حتى وإن لم يكن قد تذكرني؟ وفي عدم تذكره إياي ألم آخر أشد قسوة، كيف له أن ينساني؟!

***

(٢٠)

ماهر

- هناك أمر مهم أخفيته عنك مستر "ماهر"، وأريد أن أبوح لك به، الآن.

ليتكِ التزمتِ الصمت يا "نيفين" ولم تخبريني قط، خاطبت نفسي بذلك وقبضتيّ تعتصران مقود السيارة، لا يمكن أن يكون ذلك صحيحًا، مستحيل!

استعدت مرة أخرى تفاصيل القنبلة التي فجرتها "نيفين" في وجهي منذ دقائق فحسب.

- الحملة الدعائية التي كانت السبب في أزمتنا الأخيرة، والمعلومات التي تم تسريبها من حاسوبك الشخصي وبيعها لصالح الشركة المنافسة لشركة "الباشا"، أنا أعلم من سرق المعلومات وتسبب لنا في هذه الخسارة الكبيرة، هي الوحيدة التي دخلت غرفة مكتبك في اليوم السابق لاكتشافنا سرقة المعلومات، رأيتها وهي تعبث بحاسوبك الشخصي، وتضع قرصًا صلبًا في حقيبتها، توترت عندما رأتني وغادرت مسرعة، لم أتوقع بالطبع أنها سرقت المعلومات وإلا لكنت منعتها، وعندما اكتشفنا الكارثة في اليوم التالي خفت أن أخبرك حتى لا تحدث مشكلة كبيرة بينكما.

هتفت فيها:

- من هي يا "نيفين"؟ هل هي إحدى الموظفات اللاتي طردتهن في هذا اليوم؟

- "أروى" يا مستر "ماهر".. أختك "أروى".

- مستحيل!



أطرقت برأسها تقول بأسف كبير:

- أعلم أنه لا يوجد دليل على كلامي، وأن احتمال احتفاظها بما يدينها بين أغراضها هو احتمال ضعيف، لكنني لم أستطع أن أبقى صامتة أكثر من ذلك.. كان يجب أن تعرف.

أدرت المقود فجأة فانحرفت السيارة بحدة، سبَّني قائد السيارة التي تجاوزتها فلم أعره أي اهتمام. بين كل من آذوني طوال حياتي، فإن ضربة "أروى" لي ستكون القاضية.

دخلت غرفتها أقدم رجلًا وأؤخر الأخرى، تذكرت الحكمة القديمة "خذه بالموت حتى يرضى بالحمى". إن كان ما قالته "نيفين" صحيح فهو موتي إذًا، و"الباشا" لم يكن سوى ارتفاعًا طفيفًا في درجة حرارة حياتي.

قلبت غرفتها رأسًا على عقب، لم تتمكن يوم أن غادرت من أن تأخذ معها الكثير، تكوَّمت أغراضها فوق الأرض، وعندما لم يبقَ مكان آخر للبحث، نزعت عن السرير ملاءته وعريته من ألواحه الخشبية، رأيت صندوقًا كبير الحجم في أحد زواياه، زحزحته بوجل، توجهت إلى صندوق الأدوات الذي أحتفظ به في دولابي وأخرجت منه مطرقة وعدت لأكسر بها القفل.. كشفت ببطء عما يحويه الصندوق من أسرار، صعقني ما رأيت، حتى تمنيت لو لم أره قط!

أغراض فقدتها على مدار سنوات، نظارتي الشمسية الجديدة، حلق جدتي الذهبي الذي اختفى من أذنها وهي على فراش الموت، ساعة المعصم التي فقدها زوج عمتي!

التقطتها بأصابع مرتعشة، ولا زالت كل خليـة في رأسي تتذكـر لسعـات حزامه على ظهري وأنا أبكي قائلًا: "صدقني لم أسرقها".

لاحت أمام عينيّ نظرات "شهاب" الحاقدة، وشهادته الكاذبة: "بل "ماهر" هو الذي سرقها، لقد رأيته يا أبي".. كان كشهاب عبر حياتي فخلَّف من ورائه ذرات تحترق حتى اليوم. ما زالت الندبة هناك فوق ظهري عقابًا على ذنب لم أقترفه، دومًا ظننت أن السارق هو "شهاب"، وأنني عوقبت بدلًا عنه، بالحزام مرة، وبنظرات الاتهام في عيون من حولي ألف مرة.

قلَّبت باقي محتويات الصندوق لأجد أغراضًا قديمة وحديثة أجهل أصحابها، مشط شعر، قلم حبر، إيصال شركة، أسورة فضة فقدتها عمتي وجندت الجميع للبحث عنها! لم أجد بالصندوق قرصًا صلبًا، بل وجدته في زاوية أحد الأدراج!

قفزت إلى حاسوبي الذي أحضرته معي من الشركة، أدخلت القرص في مكانه، وفتحت الملف.

لأول مرة منذ سنوات طويلة تمتلئ عيناي بعبرات حارقة.. منذ اليوم الذي أهداني فيه والد "شهاب" الندبة على ظهري.

***

يتحفنا المثاليون دائمًا بحِكَم على غرار "العنبر يخرج من أمعاء الحوت"، إشارة إلى أن الطِيب موجود في كل مكان، حتى في قلب القذارة، لكن من بين كل هذه القذارة التي تحيط بحياتي لا أجد شيئًا واحدًا طيبًا.. لا شيء على الإطلاق.

ضحكتُ ملء السمع عندما توصلتُ إلى استنتاج لا يخلو من الكوميديا السوداء، حياتي أسوأ من أمعاء حوت!

أوقفت السيارة، ثم ألقيت نظرة أخرى على العنوان المــدون في رسالــة

نصية على هاتفي، مرت عيناي على تاريخ استلام الرسالة الذي يسبق يومنا هذا بثلاثة أشهر فحسب، يوم أن تذكرت أمي أنها أم وعادت من خارج البلاد لتمارس أمومتها المفقودة.

لماذا يظن الجميع أن الكسور سهل أن يجبرها الزمن؟! لماذا ينتظرون منا أن نغفر كل ذنوبهم في اللحظة التي يريدون فيها ذلك، فليطلبوا العفو من الله فقلبي لا يعرف الغفران.

خفت من النظر إلى عيني أمي، نظرتُ إلى كل شيء إلا عينيها، احتج قولوني العصبي على معيشته في جسدي تحت ضغط مستمر ورفع راية العصيان. دعتني للدخول فتوقفت هناك متسمرًا، لماذا أتيت إلى هنا؟!

خطوت للداخل بتردد، شقة صغيرة أبسط مما تخيلــت، كنــت أظنهــا



عائدة من الخارج محملة بمال وفير، لكن لم يظهر على بيتها أي أثر لذلك.

تحدثّتْ فشعرت نحوها بالنفور، وددتُ لو أنهض وأغادر بيتها كالفارّ من الموت، وهل يمكن الهروب من الموت؟!

خرجت "أروى" من إحدى الغرف فعاد الغضب إلى قواعده في قلبي، لكنه اتخذ له اليوم من الألم رفيق سمر، ضممت قبضتيّ بقوة، أقبلت نحوها أحدق في عينيها، أبحث فيهما عن سبب أو عذر. عقدتْ ساعديها ورمقتني بعتاب، لكن ليس بأكثر مما أنظر إليها. همستُ لها بكلمة واحدة:

- لماذا؟

علت الحيرة وجهها، فأخرجتُ ساعة والد "شهاب" من جيبي، ثم حلق جدتي، ثم آخر ما فُقد.. نظارتي، وأغراضًا لا أعرف أصحابها. اضطربتْ كما لم تفعل يومًا، احتقن وجهها بالدماء، عضت شفتها السفلى لا تقوى على رفع عينيها في وجهي، سألتها ثانية:

- لماذا؟

انتفض جسدها بالبكاء وهي تدفن وجهها بين كفيها، ضمتها أمها إلى صدر حرمتها منه لسنوات. أمسكت بذراع "أروى" ونزعتها من أحضان أمها، وكررت سؤالي بعنف:

- لماذا؟

لم أتلق منها جوابًا سوى عبرات غزيرة وحشرجة صوتها، التفتُ إلى أمي وصحت بها وأنا أصفق بشدة:

- ابنتكِ سارقة، أحسنتِ، أهنئكِ، فلتنقلي الخبر السعيد إلى زوجكِ العزيز، أخبريه أن ابنتك التي تخلّصتِ منها ورميتها لجدتها لكي تسافري إلى الخارج وتتزوجي وتستمتعي بحياتك عُدتِ لتجديها سارقة كبيرة، أثق أن زوجكِ سيكون فخورًا بكِ كثيرًا يا أمي.

اغرورقت عيناها بعبرات زائفة، وقالت:

- "ماهر" أنت لا تعرف شيئًا، زوجي مات منذ سنوات ليس لي أحد هناك.

هتفتُ بعنف يرويه حقد سنوات من الحرمان:

- وليس لكِ أحد هنا كذلك، ستعيشين وحدكِ مثلما تركتِنا نعيش من دونك.

كان الغضب يحكم قبضته على كل خلية من جسدي، بِتُ أتنفس الغضب ويتنفسني، وآكله ويأكلني. أخرجتُ القرص الصلب من جيب قميصي وألقيتُ به نحو "أروى" وأنا أصرخ بألم مزَّق أحشائي:

- لم أشك لحظة أنكِ الشخص الذي طعنني في ظهري وسرق بيانات الحملة من حاسوب الشركة، أهنئكِ أنتِ أيضًا، لقد نجحتِ في إطلاق قافلة من الكلاب المسعورة خلف أخيكِ.. إن رأيتِ بعد أيام جثتي ملقاة في أحد أكوام القمامة فاعلمي أن هذا من صنعك أنتِ

ثم أشرتُ إلى أمي بسبابة مرتعشة، قلتُ والألم ينهش صدري:

- وصنعكِ أنتِ أيضًا.





(٢١)

ماهر

بعد عدة أيام، أتاني "إدريس" في زيارة مفاجئة إلى شركتي، ومنحني ومضة أمل بقوله:

- سيصلك المال بمجرد استلام شحنة الورق.

تحفزت في جلستي ولم أصدق أن مشكلتي قد حُلت وأنني لست غارقًا في عالم الأحلام!

جُلت بنظري في وجه الرجل الجالس قبالتي وقلت بشك لم توارِه أحرفي:

- لماذا ساعدتني يا أستاذ "إدريس"؟ لماذا كشفت أوراقك لي بهذه السهولة؟

نظر في عيني مباشرة وقال مبتسمًا:

- أنت يا "ماهر" تعاني من مشكلة كبيرة في الثقة، أتعرف ذلك؟!

أجبته ببرود:

- نعم أنا كذلك، لا أعطي ثقتي للآخرين بسهولة.

ثم استطردتُ وطعم الخيانة كالعلقم في فمي:

- لأنه اتضح لي أن الكثيرين لا يستحقونها.

استمر في النظر لي بثبات، وقال بحرارة:

- ألا تعرف شيئًا عن لغة الجسد، ها أنا أنظر في عمق عينيك والكاذب لا يفعل ذلك أبدًا، ها أنا أقول لك يا بني إنني أريد مساعدتك فحسب.. ربما هناك ما لا أستطيع أن أخبرك به لكن ليس لدي أي نوايا سيئة تجاهك يا "ماهر".

قاطعته بإصرار:

- لكن لماذا؟ لماذا تساعدني رغم ما فعلته بابنة أختك العمياء؟

- لأنني رجل صاحب قضية.

قالها بشكل قاطع لا يقبل الطعن، جميعهم يتحدثون عن القضية، هل أنا الوحيد في هذا البلد بلا قضية أعيش لأجلها؟!

دفع ذلك ببسمة فاترة إلى وجهي، يبدو أنه ظنها سخرية من رده فاستطرد بحنان أبوي أثار اهتمامي:

- تمنيت كثيرًا أن أرزق بولد يرث القضية من بعدي، لكن لم يرزقني الله بذلك ولست معترضًا فلذلك حكمة لا يعلمها إلا هو.

منذ أن رأيتك وأنا أشعر أن بك شيئًا مني يا "ماهر"، وكأنك ابني الذي حُرمت منه طيلة عمري.

لمعت عيناه بعبرات أثارت حيرتي، أخفاها عني ونهض يستأذن في الانصراف.

ومن خلفه يتردد صدى كلماته "ربما هناك ما لا أستطيع أن أخبرك به"!

في هذا الرجل شيء لا يهضمه عقلي، شيء لا أعرف كيف أصفه لكنه لا يشعرني نحوه بالراحة، لعل المشكلة في شخصي، أنا الذي أصبحت لا أثق في أقرب الأقربين فكيف بالغرباء.

قطع تفكيري دخول "جميل"، بدا مرتبكًا فأشرت له ليجلس، تجاهل إشارتي ومد يده ليسحب شيئًا من الخارج، ليس شيئًا في الواقع بل شخصًا. تجمدت لثانيتين في مكاني ثم وقفت أنظر إلى "آسية" و"جميل" في حيرة، تلبسنا ثلاثتنا برداء الصمت للحظات، وكنت أول من نزعه قائلًا بترحاب لا يخلو من الدهشة:

- تفضلي.

ساقها "جميل" من حقيبتها إلى المقعد، جلستْ فحذوتُ حذوها، وكذلك فعل "جميل" في المقعد المواجه لها.. ثم عـــدت إلى ارتـــداء حُلـــة



الصمت مرة أخرى.

انساب صوتها كغلالة رقيقة مفصحة عن سبب قدومها إلى شركتي، أخبرتني أنها علمت بوضعي المالي من "جميل"، ولكم كانت دهشتي شديدة عندما فوجئت بها تعرض عليّ مساعدتها، ليس بالمال بل تقديم دعم لشركتي عن طريق فريق عمل اختارته بعناية. شرحت لي أن أهداف شركتها تبدأ من تطوير أعمال الشركات الصغيرة إلى مد طوق النجاة لشركات تواجه العثرات.

استرسلتْ وقسمات وجهها تحمل التردد تارة، والحماس تارة أخرى، انتهت من حديثها الذي لم يقطعه سوى صوت مزعج لطرقعة مفاصل "جميل" حتى كدت ألقي بكوب الماء في وجهه ليتوقف!

تركتْ لي دفة القيادة، فاستلمتها بقولي:

- يبدو أن هذا هو يوم حظي، الجميع قرر مساعدتي اليوم.

سألتني بحيرة:

- هل عرضت عليك شركة أخرى تقديم الدعم؟

التقطتُ سلسلة مفاتيحي واتخذت من حلقتها خاتمًا لسبابتي، أدرته دورتين ثم قطعتُ حيرتها قائلًا:

- كلا، لكن خالك كان هنا منذ قليل، وأظنك تعرفين سبب قدومه.

هزت رأسها وأضافت بوقار:

- نعم أعلم، آمل أن العمل سار على نحو جيد.

- نعم بالتأكيد، لكن أصبح فضولي مضاعفًا الآن.

ثم استطردتُ غير عابئ بحدة حديثي:

- لماذا ساعدني خالك؟ ولماذا تعرضين علي خدماتك من أجل إنقاذ شركتي؟ إن كان لديكِ إجابة على أي من السؤالين فأرجو أن تزيلي فضولي.

- بخصوص خالي "إدريس" فأنت تعلم السبب الذي دفعه لأن يساعدك،

لم يكن ذلك بغير مقابل، كنتَ بحاجة إليه وهو بحاجة إليك، الموضوع بهذه البساطة.

- وأنتِ؟

قلتها متحديًا وأضفتُ:

- ماذا تريدين مني مقابل مساعدتك؟

أنصتُ باهتمام إلى إجابتها الحماسية، شرحت لي أن الأمر لا يعدو أن يكون تحديًا، وأنها عاشقة للمهام الشاقة، وأن نجاحها في تحسين أوضاع شركتي سيدفع إليها المزيد من العملاء وستعلو أسهم شركتها في سوق العمل، وأكدت أنها لن تأخذ مني سوى ما تنص عليه عقودها مع الشركات الأخرى، وهو نسبة من الأرباح إلى أجل معلوم!

كان هذا العرض مغريًا، بل أكثر من مغرٍ إنه فرصة لا تعوض، لكني لم أعطها قرارًا فوريًا، وتركت سؤالها عن قراري معلقًا إلى حين دراسة عقودها التي تركتها في بطاقة للذاكرة فوق مكتبي. لم تُظهر أي بادرة اعتراض، ونهضتْ فجأة كما أتت فجأة، ساقها إلى الباب "جميل" الذي كان دوره في هذا اللقاء هو نفس دور زيتونة في برطمان مربى!

تأملت السماء الصافية من النافذة الكبيرة لمكتبي، وفي ذهني يتردد احتمالان لا ثالث لهما. إما أن لهذين سرًا مشتركًا.. أو أن لكل منهما سرًا منفصلًا، فإجاباتهما كانت بعيدة كل البعد عن مرمى إقناعي.

ماذا يريدان مني؟!

***

(٢٢)

آسية

- "آسية" تبدين متوترة بشدة، ماذا حدث اليوم وإلى أين ذهبتِ من دوني؟

أخرجني سؤال "شهد" من شرودي، تصنعت اللامبالاة وقلتُ:

- أردت التنزه قليلًا وكنتِ منشغلة بمقابلة عميل.

- فذهبتِ مع "جميل"!

سألتها بدهشة:

- كيف عرفتِ؟

- رأيتكما من النافذة.. ليس هذا من عادتك يا "آسية"، أنتِ لا تحبين أن يلمسكِ رجل ليوجهكِ في سَيرك.

تملكني الضيق، قلتُ بحدة غلبتني وأنا أتوجه إلى المطبخ لأقطع عليها الاسترسال في هذا الموضوع:

- اضطررتُ، قلت لكِ لقد كنتِ منشغلة مع عميل.

اعذريني يا صديقتي لا يمكنني أن أبوح لك هذه المرة بمكنونات نفسي، وكأن شيئًا يُلجم لساني ويمنعني من أن أخبرك بما يجيش به صدري. أشعر بتخبط كبير وأنا أجتر آلام الماضي من جديد، ولا سبيل للنجاة من هذه الدوامة إلا بالإنصات إلى حديث نفسي. لا أريد أن أشرككِ أنتِ أو سواكِ في هذا الأمر تحديدًا، لا أريد أن أسمع إلا الأصوات الصادرة من داخلي، فقد استمعتُ إلى حديث الآخرين بما يكفي.



كنت ما زلت أجتر ذكريات الماضي بكل تفاصيله حتى وأنا أدخل إلى الصف في اليوم التالي، أخرجني شجار "أمجد" من شرودي وأعادني إلى الحاضر الذي بذلت الكثير من الجهد من أجل بناء تفاصيله كما أحب.

لم أوجه إليه تهديدًا بالفصل مرة أخرى أو باستدعاء والده، لأنني أعرف أن هذا لا يكفي لإلجام تمرده، ولن يزيد والداه الأمر إلا سوءًا. كنت مصرة على الاستمرار في محاولة التقرب منه، استدعيته بعد الدرس وحاولت التحدث معه فيما يزعجه، كان وقحًا كعادته، وكأنه نسي تمامًا زيارتي الودية إلى بيته، أم لعل الموقف المُهين الذي تعرض له أمامي جعله يتصرف بهذه الطريقة ليستعيد كرامته المهدورة.

لكنني كنت كذلك حازمة معه بما يكفي كي أنزع منه الاحترام الكافي الذي يجب أن يكون بين الطالب ومُعلمه. أعرف أنني لو فقدت هذا الاحترام للحظة فسأفقد زمام السيطرة تمامًا، ولم أكن مبتدئة لأسمح بذلك أن يحدث.

أحسست به متخبطًا أكثر مما كنتُ أنا نفسي في الليلة الماضية، تائهًا لا يملك دليل إرشاد ولا يسمح للآخرين أن يدلوه على الطريق، لذلك فهو يذهب إلى حيث تأخذه قدماه، حتى ولو كان طريقًا مسدودًا لن يوصله إلى أي مكان، ولن يجني منه سوى ضياع جهده وعمره. المهم أن يتمكن من أن يقول "أنا موجود" حتى وإن كان ذلك بطرق لا يستسيغها الناس من حوله، حتى وإن كان لن يجني من وراء أفعاله إلا الكره والنفور، المهم أن يثبت أنه موجود. لم يحصل على اهتمام الآخرين بالحب، فقرر أن يحصل عليه بالإكراه.

وكانت مهمتي معه التي أسعى من أجلها مُخلصة، أن أعلمه كيف يقول "أنا موجود" بطرق أخرى أقل عدائية، تهدم الحواجز بينه وبين الآخرين.

ذكرتني عدائيته وأنا في طريقي إلى البيت بشخص آخر واجهته منذ وقت قصير، "ماهر" الذي أرجو ألا يكتشف خالي هويته، وإلا لن يكون كريمًا معه كما هو الآن.

استعدتُ كلمات خالي "إدريس" التي وصف بها "ماهر" بعد لقائه به:



- رجل يعيش من أجل نفسه لا يوثق به أبدًا، لا يهمه سوى أن يُحدث تأثيرًا زائفًا على غيره، هذا الرجل به شيء سوداوي لا يستطيع السيطرة عليه، رغم شعوري بعطف كبير نحوه، إلا أن البُعد عنه أسلم من القرب منه.

كيف حولتك السنون إلى هذا الرجل يا "ماهر"؟!

***

يُغير عطره بشكل مستمر لذلك لم أميزه حين دخل الغرفة واقترب منا.

- ماذا تفعلون في مكتبي؟!

كان السؤال موجه إلى ثلاثتنا، أنا و"جميل" وسكرتيرته "نيفين"، لم ينتظر جوابنا، اقترب أكثر ليحتل المقعد الرابع حول طاولة الاجتماعات الصغيرة، علمت ذلك من صوت احتكاك المقعد بالأرض، ومن العطر الذي بات قريبًا مني كثيرًا.

أستطيع بسهولة تخيل أمارات الاستياء على وجهه، شرحت له "نيفين" أننا ننظر في ملفات الشركات التي تم رفض التعامل معها، فازداد صوته حيرة وهو يسأل عن السبب، وهذه المرة كان الشرح على عاتق "جميل":

- لم تعد تأتينا أي طلبات عمل مؤخرًا، لذلك ننظر في العروض التي رفضناها علَّنا نجد فيها ما يصلح، وهذا ما حدث بالفعل.

أضاف إعلانه الأخير بابتهاج، لمست نبرة الاعتراض في صوت "ماهر" وهو يقول:

- وماذا تفعل الآنسة "آسية" هنا؟

هممتُ بالإجابة، إلا أن "جميل" تكفَّل بها:

- طلبت مساعدتها، انظر يا باشمهندس هذا العرض الذي رفضناه الشهر الماضي يصلح كبداية جيدة لنا بعد أزمتنا الكبيرة، هكذا قالت الآنسة "آسية".

انفعل "ماهر" قائلًا:

- "جميل"، هذه شركتي فكيف تقرر كل ذلك دون علمي؟ وأنتِ يا "نيفين" كيف سمحتِ بذلك؟

يبدو أن "جميل" أخذ على عاتقه اليوم ترويض الحصان الجامح. قال:

- بل شركتي أيضًا يا باشمهندس، ألم تمنحني نسبة خمسة بالمائة من حصص الشركة عندما عدت مرة أخرى إلى العمل؟

- خمسة في المائة لا تؤهلك لاتخاذ قرارات كتلك يا "جميل"!

- لماذا لا تسمح لنا أن نعرض عليك ما توصلنا إليه أولًا يا مستر "ماهر"؟

كان هذا اقتراح "نيفين". اعتبرنا ثلاثتنا أن الصمت علامة الرضا، فبدأتُ الحديث للمرة الأولى منذ أن دخل "ماهر" مكتبه:

- هذا العرض لا أعرف سبب رفضه، لكنني أراه فرصة جيدة لتظهر قدرات شركتك.

قاطعني بحدة ضايقتني:

- العرض الذي تسميه فرصة مقدم من شركة صغيرة لا اسم لها في السوق، تصنع الهواتف المحمولة بإمكانيات ضعيفة لن أدفع فيها أنا نفسي جنيهًا واحدًا، فكيف أقنع العملاء بمنتج كهذا وأروج له؟!

ساد الصمت للحظات، ثم سألته بهدوء:

- هل جربت منتجهم أو درست مواصفاته جيدًا؟

قال كمن أراد أن يفحمني، وعندها ذكرني كثيرًا بـ"أمجد":

- نعم فعلتُ.

- لا أريد أن أشك في قدراتك لكن سأفترض أنك لم تنتبه كفاية إلى صفة تميز هذا الهاتف عن غيره من المنتجات التي تغرق الأسواق.

شرحت له كيف أن الهاتف يأتي مع برامج مطورة كثيرًا تؤهل فاقدي البصر للتعامل معه والتبحُّر على الإنترنت بسهولة أكثر من أي برامج أخرى. وصفت له بدقة المميزات العديدة لبرنامج كهذا، وكيف أن إعلانًا موجهًا إلى فئة تلقى التجاهل التام من صانعي الهواتف المحمولة من الممكن أن



يصنع فارقًا كبيرًا في مبيعات المنتج رغم تواضع إمكانياته الأخرى.

ثم أردفتُ:

- أنت نظرت إلى مساوئ المنتج فحسب وغفلت عن الميزة القوية التي ستحقق لك النجاح إن أحسنت الدعاية لها، الإعلانات التي توجه للجميع في الغالب لا تحقق نتائج مُرضية لأنها تُشعر العميل أنه ليس المعني بالإعلان خاصة أن هناك عشرات البدائل الأخرى وبعضها يحتكر السوق بالفعل، أما الإعلانات الموجهة لفئة محددة تحقق نتائج أسرع بكثير، هل يمكنك أن تتخيل الأرباح من وراء الدعاية عن هاتف لمساعدة المكفوفين على التواصل مع أهلهم وأحبائهم وعلى الانخراط في المجتمع.. أنت لن تحقق بذلك أرباحًا مادية لشركته فحسب ولن تتوقف المنافع عند تسويق منتج، بل ستتعدى ذلك إلى تسويق اجتماعي لاسم شركتك.

أخذت نفسًا عميقًا ثم استطردت وقد بلغ مني الحماس مبلغه:

- ألم تسأل نفسك لماذا تقوم بعض القنوات بعرض مقاطع قصيرة عن النظافة أو النظام أو نشر فضيلة ما أو ذم عادة مجتمعية مستقبحة؟ ماذا تجني تلك القنوات من إعلانات لا تبيع للناس منتجًا ولا تحقق لهم أي أرباح مادية تغطي تكلفة إنتاجها؟ نعم، إنها تقوم بعمل تسويق اجتماعي لنفسها، أو للشركة الراعية للإعلان، عندما يرى المشاهد أن القناة "س" تهتم بالمبادئ التي يهتم بها وتدعو إليها في محاولة لجعل المجتمع مكانًا أفضل من خلال توجيهها للشباب إلى الأخلاق الفاضلة، فسترتفع عنده أسهم القناة بلا شك.

ثم أردفتُ:

- وكذلك لو قمت بالتسويق لمنتج موجه لفئة استثنائية لا يهتم بها أحد عندها ستحقق الربح المادي والمعنوي لشركتك.

ثم ابتسمت قائلة:

- شخصيًا إن نزل الهاتف إلى السوق فسأشتريه، يعني الهاتف الأول مُباع من الآن.

كنت أظن أن عدد أصابع "جميل" عشرة، لكن ما سمعته من طرقعة مفاصله خلال فترة حديثي أظنه تجاوز هذا الرقم!

بدا "ماهر" الذي يجلس إلى يميني ساكنًا بلا حراك حتى إن بإمكاني أن أظنه قد نام! أعلن "جميل" بابتهاج لم يفقده:

- وهذا العرض أيضًا الخاص بمنتج الشاي الذي عملنا فيه منذ عامين.

استيقظ "ماهر" فقط ليضع العقبات أمامي:

- هذا مستحيل، لقد حاولنا تسويق المنتج لكننا فشلنا تمامًا، واستعدنا رأس المال وربحًا بسيطًا بصعوبة شديدة، إن هذا المنتج إهدار للوقت والطاقة.. رغم أنه جيد بالفعل إلا أن ذلك لم يكفِ لنجاح تسويقه.

انتظرتُ إلى أن انتهى من صف العقبات أمامي، ثم بدأت في نسفها:

- نعم هو جيد بالفعل ولعله الأفضل من كل المنتجات الأخرى التي توازيه في السعر، "جميل" أخبرني بتفاصيل الحملة الإعلانية التي صاحبت ظهور المنتج، وأظنها السبب في هذا الفشل.

احتد "ماهر" مدافعًا عن نفسه:

- كيف ذلك؟! لقد أعلنّا أنه أفضل منتج في السوق وأنه يحتل المرتبة رقم واحد من حيث الجودة والسعر.

أجبته بحماس:

- وهذا تحديدًا هو الخطأ، لم يعد المشاهد يثق في الثناء المبالغ فيه على المنتجات، لأن الجميع يفعل ذلك، كل الإعلانات تقول نحن الأول نحن الأفضل.

- وماذا تقترحين سيادتك؟

تجاهلت نبرته المتهكمة وأجبته بجدية بالغة:

- ستؤكد الحملة الإعلانية على أمر واحد وهو "منتجنا في المركز الثالث، وهدفنا أن نصبح اختيارك الأول".. سيدفع ذلك المشاهد إلى احترامك لصدقك ولاجتهادك، وبالتالي لاحترام منتجك.. بالطبع لن يكون اختياره



الأول بين يوم وليلة، لكن بعد فترة مع استمرار الحملة الإعلانية بكثافة وتغيير المركز الثالث إلى الثاني، ستبدأ في جذب انتباه عملائك، ولأن الإنسان مفطور على حب التجربة فسيكون منتجك هو الخيار التالي كبديل عن المنتج الذي اعتاد العميل استخدامه، سيرغب البعض في أن يمنحوا منتجك فرصة، فقط فرصة واحدة وهم يتساءلون كيف استطعت أن تنقل منتجك من المركز الثالث إلى الثاني، وهل ستنجح في أن تصل به إلى المركز الأول؟ وإذا أُعجب البعض بالمنتج فتأكد أنك عندها ستكون قد حصلت على إعلان غير مدفوع سيقومون به في محيط عائلاتهم وأصدقائهم.

ثم ختمت كلامي قائلة:

- فقط احصل على ثقة واحترام بعض العملاء وستجد أنهم قد تحولوا دون أن تطلب إلى آلة دعائية متطوعة لتسويق منتجك.

خيَّم الصمت على المكان، لكن هذه المرة كان وقعه ثقيلًا، انتظرنا ثلاثتنا قرار "ماهر". شربتُ رشفة من زجاجة المياه التي وضعتها أمامي قبل بدء الاجتماع، لو لم أنجح اليوم في أن أكسب ثقة "ماهر"، فلن أنجح في ذلك أبدًا، أصابني الغم وأنا أظن أن صمته لا يبشر بخير، لكنه خالف ظنوني بكلمات جعلت قلبي يرفرف عاليًا:

- أوافق على العمل معكِ يا آنسة "آسية"، أظن أن وجودك سيُخرج الشركة من أزمتها الحالية.

***

(٢٣)

(ماهر)

- ... وستجد أنهم تحولوا دون أن تطلب إلى آلة دعائة متطوعة لتسويق منتجك.

أنهت حديثها بالثقة التي بدأته بها، تأملتُ من وجهها ما فشلت نظارتها في حجبه، رغم أنها أخفت عني أهم ما يعري الروح.. عينيها.

كيف يمكنني أن أفهم امرأة دون النظر إلى عينيها، خاصة إن كانت محترفة في مراقبة انفعالاتها والسيطرة عليها؟

التقطَتْ زجاجة مياه صغيرة من فوق الطاولة بتلقائية شديدة، لو لم أرَ تشوه عينيها بنفسي لما صدقت أنها لا تراني الآن! ألحَّ على رأسي سؤال جر المزيد من الأسئلة، كيف تتحملين العيش في الظلام؟ العالم صعب على أمثالي بما فيه الكفاية فكيف على من هو مثلك؟ كيف احتفظتِ بابتسامتكِ إلى الآن وأنا الذي فقدتها منذ زمن طويل؟ لماذا أشعر بالخوف منكِ؟ لماذا أرغب في الفرار؟!

- أوافق على العمل معكِ يا آنسة "آسية".. أظن أن وجودك سيُخرج الشركة من أزمتها الحالية.

من الذي قال ذلك؟! ليس أنا بالتأكيد، فأنا لا أريدها بالقرب مني.

ضاق صدري وثقلت أنفاسي، حتى لم أعد أستطيع احتمال البقاء في غرفة مغلقة.. معها.

استأذنت للانصراف بحدة غير متعمدة، وغادرتها مسرعًا.

ماذا يحدث لي؟!

***



(٢٤)

الكتاب الذي لم يقرأه أحد!

- أنا عاشق للعلم.

قالها البشري ثم اقترَّب مني بشغف لمعت به عيونه:

- انظر إلى تلك العروق البارزة في ذراعي، العلم يسري فيها مسرى الدم.

ضرب صفير الرياح العاصفة بمسامعنا، فرأيتُ البشري يدنو من النافذة ويحكم إغلاق ستائرها الداكنة، ثم يقترب من المدفأة الكهربائية ويُفرك كفيه ببعضهما، فشعرت بالحنين إلى ليالٍ شتوية كثيرة كان رفقائي فيها كلمات سيدي والنار والحطب. قال بكآبة استبدت به:

- لكن للأسف لا حظ لي، لم تُتح لي الفرصة لكي أحلم، لم يعلمني أحد كيف أحلم.

- لماذا؟

أشار بيديه فيما حوله، فعلمت أنه لا يقصد الكرسي والأريكة والمكتب والمدفأة، بل تخترق إشارته ما وراء الجدران، ما وراء الحُجُب، ثم قال بمرارة:

- انظر حولك، لم يعد أحد يهتم بالعلم، لم يعد أحد يقرأ الكتب.

ثم دنا مني قائلًا بانفعال:

- انظر إلى نفسك، كتاب عظيم مثلك يُباع بسعر زهيد فوق فرشة على الرصيف، كل من اقتناك قبلي تركك تتفلَّت من بين يديه، لم يقدر أحد منهم قيمتك، تعاملوا معك كأنك ورقة شجر خريفية تفترش الطرقات.

غلبني الحزن وأنا أتذكر الليالي الباردة التي أمضيتها فوق رمال الصحراء

والنهارات التي أحرقتني فيها شمس الظهيرة بعدما مات الجندي الصليبي "لويس" في الطريق إلى بلاده. بقيت هناك لقرون طويلة حتى وجدني رحَّالة عربي وأعادني مرة أخرى إلى الشرق، ومنذ ذلك اليوم وأنا أتنقل من بلد عربي إلى آخر، ومن يد إلى أخرى، دون أن يقرأني أحد، يرث الجميع جسدي، لكن علمي ظل حبيس صفحاتي، حتى اسمي لم يعرفه أحد!

مسني بحنو وقال:

- أعتذر إن كانت كلماتي أحزنتك، لكن كما ترى هذا هو حال شعوبنا المتخلفة جيل بعد جيل.

زمجرت الرياح حتى ظننتُ أن الجدران الأسمنتية لن تستطيع الوقوف أمامها. صحت فيه بحدة، وقد أثبت هذا البشري قدرة عالية على تحويلي من حالة السلام إلى الغيظ في لمح البصر:

- شعوبكم المتخلفة جيل بعد جيل! وهل التخلُّف صفة تُورَّث في أحماضكم النووية؟

احتار فيما يفعل أمام ثورتي، فاختار الحل السلمي وأطبق فمه بإحكام، أردفتُ لأزيل عن عقله حجاب الجهل:

- التخلف مرض يصيب كل جسد، من أي جنس وأي عرق، زاد من ضراوته القهر الذي يمارس على كبيركم وصغيركم، لكن ماذا يمكنني أن أقول.. أنتم لا تهتمون سوى بعلاج الأوبئة التي يمكن للطب أن يراها، وتتركون وباء التخلف يتفشى في أجسادكم دون علاج، وحتى تحققوا لأرواحكم توازنها النفسي تحاولون الهرب من القهر لا اقتلاعه من جذوره.

- الهرب من القهر؟!

همس باستفهام، بصوت خافت مخافة إغضابي، فأردفتُ بعنف:

- هل تعرف كم طريقة للهرب من القهر يجيدها بني جنسك؟ أنتم بارعون في ذلك حقًا، وأنت بنفسك تجيد إحداها، الهرب إلى الذات، إلى التغني بحظك العثر الذي جعلك ابنًا لهذه الأرض دون غيرها، إلى أفكار سوداوية دفنت نفسك فيها وأهلت عليك التراب.



قال بانفعال:

- وهل هذا ذنبنا؟ نحن ضحية حكامنا.

فقلتُ بانفعال مماثل:

- وهل تظن أن القهر علاقة طرفيها فقط حاكم ومحكوم؟ لا يا عزيزي البشري، بل طرف مقهور وطرف متسلط، الأم التي تُحب أبناءها حد التملك وتتحكم في مصائرهم متجاهلة رغباتهم، هي أحد طرفي علاقة قهر طرفها الآخر ينتهي عند ابنها المسكين، والزوج الذي يصم أذانه عن كل رغبات زوجته ويدفعها إلى تلبية كل رغباته بالإكراه يحول الزواج من علاقة حب وثقة وإحترام إلى علاقة قهر، القهر يُمارس حتى على الحيوانات والجمادات.. مجتمعكم كله بداخل حلقات من التسلط غير المنتهي.

ما إن قلت ذلك حتى أصبح وجه البشري خرقة من اليأس، وأطلق زفرة طويلة سكن بعدها؛ حتى ليظنه الرائي أنه قد مات في موضعه. خففتُ من حدة كلماتي وقلت له مبتعدًا عن عِلَّته:

- دعني أخبرك بما لا تعرفه عن الكتب.

جذب مقعدًا بلهفة وجلس أمامي مسترق السمع. قلتُ:

- الكتب لها أعمار كما للإنسان، وعندما يحين أجلها تذبل وتحتضر ثم

تموت، ويموت الكتاب في حالة واحدة إذا أصبح علمه حبيس دفَّتيه، ميت إلى حين أن يبعثه قارئ. نحن نحيا في العقول لا فوق السطور، في الصدور لا على الورق، في الحياة لا بين أكوام أتربة كَسَت رفوف المراجع والملازم والكتب.

- أنا سأحييك، أعدك أنني سأفعل، هل تعرف أخي "مالك" الذي اصطحبتك إليه؟ ها ها بالطبع لا تعرفه، إنه أخي الأكبر، لسنا من أم واحدة لكننا شقيقان من الأب نفسه، يا لي من ثرثار فلأعود إلى موضوعنا.. أخي هذا ورث عن أمه الكثير من المال ويريد أن يمول مشروعًا علميًا خدمة للبلد، وأشرف عليه بنفسي، هه هل تصدق ذلك؟

لم أتفوه ببنت شفة، فاستبد به الشغف أكثر وهو يعبث بفروة رأسه كمن يبحث فيها عن شيء فقده:

- بالطبع لم يصدقني عندما أخبرته أنك تتحدث، وكذلك فعلت زوجتي، لكن لا يهم، لا أسعى لإثبات ذلك لهم، المهم أننا أنا وأنت سنتحد لنصنع المستقبل معًا.

ثم أردف ببهجة بالغة:

- أنت ستُعلمني كيف أحلم، وأنا سأكمل صفحاتك الناقصة.

بدت لي صفقة رابحة، لكن إلى أي مدى يمكنني الوثوق في قدرات هذا البشري، هل سيتمكن حقًا من إنهائي، الكتب لا تُحب المخاطرة، لكنني كتاب ناقص على استعداد لأن يفعل أي شيء ليكتمل كيانه. أفصحتُ له عن قراري:

- اتفقنا.

لم أترك البهجة تتراقص فوق قسماته طويلًا إذ باغته بسؤال لم يتوقعه:

- تتحدث عن الأحلام والمستقبل، فهل تعرف الماضي جيدًا؟

علَت الحيرة قسماته، فأردفتُ لائمًا بعنف وقد تعكَّر مزاجي بشكل مفاجئ:

- وهل يبني المهندس بلا أساس؟ وعلى ذكر الأساس أخبرني ماذا تعرف عن الجاذبية التي تجعل قدميك مستقرتين فوق الأرض الآن؟

نظر إلى قدميه ثم رفع رأسه وأخذ يستعرض معلومات حفَّظوها له في المدارس من مصادر لم يطّلع على غيرها، وما إن أتى على ذكر "نيوتن" وتفاحته المشهورة حتى صحت ساخرًا:

- نعم بالفعل، التفاحة، بالطبع أعرفها، كان "نيوتن" جالسًا تحت شجرة تفاح يقرأ كتابًا عربيًا فسقطت على رأسه تفاحة لتوقظه من نومه، فرجع إلى صفحة الجاذبية كما وصفها "البيروني"!



اتسعت عيناه دهشة وسألني:

- ماذا تقصد؟ من هو "البيروني"؟ وما علاقته بالجاذبية؟

لم أجبه، فصاح وكأنما يعتذر:

- حسنًا، حسنًا، لا تخبرني.. سأبحث بنفسي.

فجأة انطلقت عقيرة زوجته بالصراخ فهرول خارج مكتبه، انتابني قلق كبير، تعجبتُ كيف أصبحت حياة هذا البشري في دائرة اهتماماتي، به شيء يميزه لم يصادفني في بشري غيره، شيء يجعله مختلفًا عن الجميع، لكن لا أعرف تحديدًا ما هو.

أقبل نحوي مذعورًا ومبتهجًا في آن واحد! يعتذر عن المقاطعة ويستأذن في المغادرة؛ فزوجته في مخاض الولادة، سألته قبل أن يرحل:

- صبي أم فتاة؟

التفتَ نحوي يسترق النظر. قال:

- لا أعرف بعد.. كلاهما خير.

أمرته:

- هيا أسرع، وريثك في انتظارك.

فقال بابتهاج وهو ينظر إليّ نظرة ذات مغزى:

- بل وريثنا.

***

(٢٥)

ماهر

بعد أسبوع استلمتُ المال، تمت صفقة الورق التي تأخرت لسنوات، ورُفع عن كاهلي حمل كبير بعدما حررت رأس مالي.

صحيح أن المبلغ الذي عرضه "إدريس" لا يمثل سوى نصف ديني للباشا، لكنني أشعر أن الباقي سيأتي بسهولة..

تجهَّزتُ لاجتماع عمل مع مدير شركة "بيانكو"، لكن هذه المرة في مكتبي. وبالطبع رافقه "شهاب" الذي نظرتُ إليه بنفس الروح العدائية، لم تتغير مشاعري نحوه ولو مثقال ذرة رغم معرفتي أن السبب في الندبة فوق ظهري كان أختي وليس هو.

لم أنسَ افتراءه، ولسانه السليط الذي كان يطلقه عليّ متى شاء وكيفما شاء، والمصائب التي كان يفتعلها محتميًا بأبيه وأمه، "شهاب" يخطئ، و"ماهر" هو الذي يتلقى العقاب.

ظلَّت مشاعري نحوه على حالها وكأنها عجوز تسيِّره الحياة كما تشتهي، لا كما يشتهي هو، الزمن هو السفينة والحياة هي الربَّان، أما أنا فمسافر لا يملك أن يعود أدراجه، ولا أن يغير دفة حياته.

أولى "شهاب" اهتمامه إلى "آسية" التي انضمت إلى الاجتماع بعد توقيع العقد معها، سيجمعنا القدر لعام كامل هو مدة العقد، ها هي جولة أخرى انتصرت فيها الحياة رغم أنفي.

لم أتحرّ عن شركة تطوير الأعمال الخاصة بها لذلك فوجئت أن مدير

شركة "بيانكو" يعرفها ويثني على عملها، وكذلك فعل "شهاب" بحرارة. ولا أدري حقًا لمَ ضايقني ذلك. قطعتُ حديثها مع "شهاب" والذي حاد بعيدًا عن موضوع الاجتماع، ثم عدنا مرة أخرى إلى النقاط محل النقاش.



بعد انتهاء الاجتماع بنصف ساعة، تركتْ "آسية" الغرفة التي خصصتها لها ولفريقها المكون من ثلاث فتيات ودخلتْ مكتبي، بمفردها للمرة الأولى دون مساعدة. علمت من "نيفين" أنها تحضر باكرًا كل يوم وتسير في المكان برفقتها حتى تعتاد على مواضع الأثاث وأماكن الأبواب. أسبوع فحسب وتمكنت من السير في أرجاء الشركة بدون مرافق، وبمَ أنها دخلت مكتبي، واتخذت لنفسها مقعدًا بهذه السهولة فلا بد إذًا أن التدريبات الصباحية شملت مكتبي أيضًا.

لا زلت أذكر طلبها يوم أن وقعنا العقود على الحاسوب، بألا أخبر خالها عن عملنا المشترك، لم أفهم السبب لكنني لبيت رغبتها ولم ألمح له بأي شيء، لنرى ماذا تريد هذه الـ"آسية".

- هناك أمران يجب أن أتحدث فيهما معك يا باشمهندس.

هل تسخر مني؟ أثق أن خالها تحرَّى عني بما يكفي ليعرف أنني لم أطأ جامعة قط، عادة تفضح العينان والصوت مشاعر السخرية المبطنة في عبارة صاحبها، لكن عينيها بلا روح وصوتها أصفى من أن ألمس فيه ما يشين.

هل يمكن اتخاذ الشفتين بديلًا؟ ورديتين منطبقتين بإحكام كصندوق أسرار، يعلو عالمهما الأيسر سرب من النمش الصغير، يحلق عاليًا كلما ابتسمتْ.

- كيف تترك مكتبك وحاسوبك الشخصي بلا رقيب خاصة بعد حادثة السرقة التي ألحقت بشركتك ضررًا كبيرًا؟

- وما شأنكِ أنتِ؟

حلَّ العقاب على شفتيها بصف من الأسنان النظيفة، كيف تهتم بأمورها الخاصة وبتفاصيلها الحياتية، ضبطتُ عينيّ وهما تسترقان النظر إلى أصابعها العشر الخالية من أي حلقات معدنية، فنفضت عن رأسي التفكير، واتخذت من مكتبي متكئًا.

- دعني أذكرك بأهم بنود العقد، لمدة اثنا عشر شهرًا سيكون لي حرية مراجعتك في كل أمور العمل، من أصغر تفصيلة إلى أكبرها.. وهذه

إحداها.

كنت أعلم أنها محقة في اعتراضها لكنني لم أشأ أن أُشعرها بالانتصار، فأضفتُ على صوتي بعضًا من الحدة وقلتُ:

- وما هو الأمر الثاني؟

تجاهلتْ حدتي وأجابتْ:

- كان تعاملك مع الباشمهندس "شهاب" غير احترافي على الإطلاق، كنت تتعمد طوال الاجتماع إما تجاهله أو استفزازه، حتى إنك سخرت مما كان يقوله بناء على خبرته في العمل بالدول العربية التي كان يعيش فيها، أرجو أن تفصل بين المسائل العائلية والعمل.

ازدادت حدتي فهذه المرأة قادرة على إخراج أسوأ ما في نفسي:

- وما شأنكِ أنتِ بـ"شهاب"؟! أنتِ تعملين في شركتي لا شركة "شهاب".

تجعَّد جبينها للمرة لأولى منذ أن دخلت الغرفة، يبدو أن الجبل الجليدي على وشك الانهيار. قالت ببطء مدروس:

- أنا لا أعمل في شركتك، بل أعمل معك.

ترددتُ للحظة واحدة، قبل تسديد اللكمة:

- لكنني لم أسع لذلك، بل أنتِ التي فرضتِ نفسك عليّ.

شممتُ رائحة الحطب، وانتظرت ذوبان الجليد، لكن الجبل ظل شامخًا، ودون أن يهدر قطرة واحدة تركني وانصرف.

فارتفعت حرارة المكان.





(٢٦)

(آسية)

- عُدتِ لمشاهدة "سندريلا" وأنتِ تشربين قهوة الاكتئاب.. يبدو أن الموضوع جدي!

أخذتُ رشفة من فنجان القهوة الذي يتوسطه شريحة من الليمون، تجرعت السائل المر بمذاقه الحمضي وأنا أمنح "شهد" ابتسامة مغتصبة. شاركتني الجلوس فوق فراشي، فتصنعت متابعة الفيلم.

- لو قمنا بحساب عدد المرات التي شاهدتِ فيها هذا الفيلم منذ ولادتكِ لدخلتِ موسوعة "جينيس" للأرقام القياسية.

لم أكن في مزاج رائق للمزاح، فتظاهرتُ بأن أكثر ما يهمني في هذه اللحظة أن يجتمع الحذاء الزجاجي بصاحبته. لكن هذا دفعني للتفكير.. متى سيعلم الأمير أنني صاحبة الحذاء؟!

- "آسية" ماذا بكِ؟ ولا تقولي لا شيء، عندما نقول لا شيء فهذا يعني أن هناك الكثير.

- لا شيء حقًا يا "شهد"، متعبة فحسب.

- ماهر؟

لا يشترط أن يكون الطريق الأقصر هو الأنجح، لو علمت "شهد" بذلك لما صاغت سؤالها بهذا الوضوح.

ويبدو أنها قررت معاقبتي بمحاضرة طويلة لم أكن في حاجة إلى السماع إليها، أثق أنها لن تفشي سري لخالي، وأنها ستغطي ساعات غيابي في الوقت الذي أكون فيه بشركة "ماهر"، لكنها لا تمل نصحي أن ما أفعله هو عين الخطأ. لم أكن بحاجة لأن يخبرني أحد بذلك لأنني أعرفه بنفسي لكن ليس

بيدي حيلة، لا أستطيع أن أدير ظهري للخطأ هذه المرة.

أتبع قلبي دائمًا لأنه يعيش في تصالح مع عقلي وكلاهما يرشداني إلى الصواب فألزَمه، لكنهما متخاصمان للمرة الأولى، فيدفع بي قلبي إلى الوجهة التي يرضاها دون أن يعبأ بحسابات عقلي.

كنت أظن دومًا أن المخطئ جاهل بالصواب، لكنني عرفت الآن أنه قد يكون كافرًا به.

يوم.. اثنان.. ثلاثة أيام، ولم يهتف الصوت المبرمج بهاتفي باسم "ماهر"، بل في الواقع لم يهتف به قط.

قادتني قدماي إلى دولاب ملابسي، ومن زاوية أعرفها وتعرفني أخرجت لعبة كتلك التي أحتفظ بها فوق مكتبي بالشركة، لكنها ليست كاملة، بل نصفها فحسب.. مسمار حديدي طويل، مستقيم من جهة، ومن الأخرى يُشكل حلقة بحجم عقلة أصبع، بدا كجزء من عقدة لم تكتمل، فضي اللون ذو ملمس محبب كرمال شواطئ الأحلام. احتضنته بين أصابعي؛ فأصابه من حرارة دمائي الكثير، يبدو أن اللعبة عادت لتشتاق إلى نصفها الآخر، بأكثر مما كانت تشعر به في الماضي.

أرحتُ كفي فوق صدري؛ فشعرتُ بقلبي يعزف مقطوعة بديعة أسرت بداخل عروقي الفرحة والخوف في آن واحد، لم أنتبه قط إلى أنني كنت أحمل "ماهر" بداخلي طوال هذه السنوات، لم أفهم ذلك إلا عندما التقيته ثانية، كيف استطاع الاختباء بداخلي دون أن يراه عقلي؟ كيف ترك في نفسي هذا الأثر دون أن أدرك وجوده؟

حاولت أن أجبر المايسترو على أن يوقف معزوفته الصاخبة، وأن يعود إلى لحنه الرتيب، لكنه عصاني وارتفع بها عاليًا حتى طالت عنان السماء، لم أجد نبضًا قريبًا أستودع فيه سري، فدفنته في قلب سحابة.

***



(٢٧)

ماهر

لم يشكل غيابها فارقًا يُذكر، كل شيء يسير كما أشتهي.

النساء إما قاسيات جدًا، أو هشات جدًا، ولا حاجة لي بالنوعين، الشركة بدونها أفضل حالًا، وأنا أيضًا.

- العرض الذي كانت تشرف عليه الآنسة "آسية" لم يكتمل بعد، والاجتماع مع مدير شركة الهاتف المحمول بعد يومين فحسب.. ماذا نفعل يا مستر"ماهر"؟

هذه ليست مشكلة بالتأكيد، لدي قائمة طويلة بالحلول التي لا تشمل على أن أطلب منها العودة.

- معسكر مغلق لمدة ثماني وأربعين ساعة لكل العاملين في الشركة وعلى رأسهم أنتِ و"جميل".

أعلم أنني أضغط عليهم كثيرًا، لكن لا حل أمامي غير ذلك، أين باقي حلول القائمة؟ للأسف كانت جميعها تحوي اسم "آسية".

ابتلعت حبتين لأرشي قولوني ليلتزم الصمت، ففعل هذه المرة بطاعة أبهجتني، يجب أن أرد لك الجميل بزيارة إلى الطبيب، أعدك بذلك... في يوم ما.

لكن ما أبهجني أكثر من قولوني هو زيارة "شريف" لمكتبي، وأخجلتني أيضًا لإهمالي له ثانية وسط مشاغلي، بدا أكثر ضعفًا، أو هكذا خُيِّل إليّ.

أخبرني أن علاجه يكلفه الكثير من المال والطاقة، وكلاهما في الطريق إلى النفاد.

- رصيدي في البنك صفر، لا أدري كيف سأسدد القسط الخامس من

رهن البيت والشركة، خمسون ألفًا هي كل ما أحتاج إليه، على الأقل الآن.

لم أفكر أكثر من مرة، في الحقيقة فكرت لكن كومضات سريعة طافت بعقلي ثم استقرت على قرار واحد.

- خذ وسدد دينك.

نقل بصره من وجهي إلى كفي الذي يحمل المبلغ الذي أراد، عملات ورقية مطبوعة بشكل بارز، يتداخل في نسيجها علامة من خيط معدني رفيع أضافه "مجلس الوِصاية" لتتميز عن العُملات المزيفة التي سادت الأسواق في العام الماضي. أحضرت حقيبة صغيرة يزين أعلاها حفرًا لشعار شركتي، أدخلت المال فيها ثم وضعتها أمامه فوق الطاولة الصغيرة التي تفصل بين مقعدينا المتواجهين.

- ماهر!

لم أسمح له ليُكمل اعتراضه، كيف وهو صديقي الوحيد الذي رافقت خُطايَ خطاه، لمت نفسي كثيرًا للانغماس في مشاكلي الخاصة وتركه يواجه مرضه وظروفه بمفرده. عاهدته ثانية وأنا أشد حرصًا على وعدي هذه المرة:

- أنا معك دائمًا يا صديقي.

مسح التأثر وجهه، تعانقنا بقوة من يتشبث بطوق النجاة الوحيد في بحر لجي عاصف.

تحدث عن دين "الباشا" الذي يجب عليّ تسديده، فتبسمتُ قائلًا:

- "الباشا" لن يقبل المال ناقصًا على كل حال، لا تقلق بدأنا أعمالًا جديدة وأوضاعي تتحسن يومًا بعد يوم.

لا أعرف إن كنت صادقًا أم كاذبًا، لكن هذا ما أرجوه بالتأكيد.

- أخبرني يا "ماهر" ماذا حدث منذ آخر لقاء لنا.

حكيت له كل شيء بدءًا بـ"آسية"، وانتهاءً بها! فما كان منه إلا أن قال:



- "ماهر" كنت قاسيًا جدًا، الفتاة أرادت مساعدتك، وهي ناجحة في عملها، وأنت تحتاج بالفعل إلى خبراتها ومهارة فريقها.

انفعلتُ مستنكرًا:

- لا بالطبع، لا أحتاج إليها، أنا أدرت شركتي بدونها لسنوات.

لكن "شريف" قال بإصرار:

- السوق لم يعد مغلقًا كما كان، انتشرت شركات الدعاية والإعلان في البلد أكثر من انتشار محلات الكشري! ولكي تنجح عليك أن توظف تحت يديك أشخاصًا ذو مهارة خاصة، وتستعين بنصائح الخبراء في هذا المجال، أنت بحاجة إليها لتعمل عندك اعترف بذلك.

ابتسمت بتهكم وأنا أردد ما قالته من قبل:

- هي لا تعمل عندي، بل تعمل معي!

- "ماهر" هناك شيء آخر لا تخبرني به، ما هو؟

تركت لأصابعي حرية النقر فوق سطح المكتب، زفرت بقوة وأنا أقول:

- لا أعرف يا "شريف"، وجودها يوترني ولا يشعرني بالراحة.

مازحني بقوله:

- وكأنك ترغب في الانفراد بها في حلبة الملاكمة، أو تتخذ منها كيس رمل للتدريب.

قلت له بجدية:

- ولا هذا أيضًا، ما أشعر به نحوها ليس كُرهًا.

- ماذا إذًا؟

أجبته بتردد:

- خوف.. شيء بها يخيفني ولا أعرف بالضبط ما هو.

***

جاء اليوم الموعود، لم أرض تمامًا عن العمل المنجز، لكن هذا كل ما استطعنا تنفيذه في هذا الوقت القليل، ارتديت أفخر حلة عندي، وطلبت من كل العاملين بالشركة أن يتأنقوا لهذا اليوم، ففي مجال عملنا المظهر يعني الكثير.

بلغ التوتر ذروته عندما بدأ الاجتماع، وضعتْ "نيفين" أمامي القرص الذي يحوي بيانات عرض الحملة الدعائية، جُلت بنظري في الوجوه الجالسة أمامي واستدعيت ابتسامة ثقة، لكن انعكاسها في أعينهم لم يكن طيبًا كما أردت.

ببطء توجهت إلى آلة العرض المرئي، وقبل أن أدخل بها القرص بثانية واحدة انفتح الباب، جاءت منقذتي تتقدم بخطى ثابتة فاتجهت إليها كل الأنظار، وجَّهتها "نيفين" إلى المقعد الوحيد الفارغ، جلستْ بوقارها الذي عرفته، وقالت بصوتها الذي ألفته:

- أعتذر عن التأخير.

ودون أن تضيف المزيد أخرجت قرصًا صلبًا من حقيبتها وأعطته إلى "نيفين"، فتوجهت به "نيفين" نحوي. نظرتُ بحيرة إلى القرصين، واسترقتُ النظر إلى الوجوه التي تعلوها الحيرة والترقب، استقرت أنظاري للمرة الأخيرة على الوجه الهادئ المُحاط بحجاب أزرق، كانت مختلفة هذه المرة، لكل قطعة من ملابسها لون مُبهرج لا يجمعهم ذوق! أما صندوق الأسرار فكان منفرجًا قليلًا. أخذتُ شهيقًا عميقًا ثم وضعت القرص في الجهاز.

وبدأ العرض..

***



(٢٨)

آسية

- أعتذرعن التأخير.

لا أعرف إن سمعها أحد، قلتها بخفوت كي لا يُفتضح توتري، كدت أُسقط القرص الصلب أرضًا لولا يد "نيفين" التي التقطته سريعًا، ليتني أعرف الآن فيما يفكر "ماهر"، هل غضب كثيرًا؟ هل استاء لحضوري؟ هذا الصمت يقتلني، تحدث أرجوك، قل شيئًا.

أعلم أنني أبدو كأنني أتحداه بمجيئي إلى هنا، أفرض نفسي لحضور هذا الاجتماع الهام، لكنني كنت أعلم أنه لن ينجح من دوني، لن يستطيع أن ينجز حملة بأفكار مختلفة وقوية في هذا الوقت الضيق، لذلك فضَّلت المخاطرة.

وبدأ العرض..

لقد اختار أن يعرض بيانات الحملة التي صممتها بنفسي، لم أستطع منع ابتسامة نبتت فوق ثغري، أطرقت برأسي كي لا يراها، تُرى هل رآها؟

اضطرب قلبي عندما نطق باسمي يرافقه طلب استكمال الشرح بدلًا منه، لابد أنه تنبه إلى إضافاتي التي لم أناقشها معه، تُرى هل أعجبته؟

مررتُ به فالتقطتُ عطره الجديد، فعرفت أنه لا يهتم أبدًا بأي قديم، استاء قلبي وأراد الصراخ في وجهه، لكنني أسكتّه ووعدته بموعد قريب سيبوح فيه بكل ما يريد.

انتهى الاجتماع بفرحة توقيع العقود الإلكترونية، باتت الأمور أكثر سهولة على من هم مثلي عندما أصبحت الحياة كلها تُدار من خلال الشاشات، فكل فرد في البلد يحصل مع رقمه القومي على بصمة إلكترونية

للتوقيع من خلال الحاسوب، رمز كبصمة الإصبع لا يتشابه فيها اثنان، محاط بتدابير حماية عالية منعًا من نسخه أو سرقته.

سمعت الثناء من الجميع، إلا واحد بخيل، كل ما قاله:

- يجب أن نتحدث.

بقيت حين انصرف الجميع، أنا وهو والترقب ثالثنا، وعندما شكر جهدي بكلمات مقتضبة، علمت أن الكِبر هو الضيف الرابع. باغته:

- ألن تعتذر؟!

عقد سؤالي حبل الصمت بألف عُقدة، تركته يجاهد في فكها، طال انتظاري، فقلت أستفزه:

- هل تبحث عن الجواب بالقرب من النافذة؟

أتاني صوته مُحملًا بآيات الاستغراب وهو يسأل:

- كيف عرفتِ أنني واقف بالقرب من النافذة؟

ابتسمت قليلًا ثم قلت:

- لا لستُ أملك حاسة سادسة قوية أو يأتيني جن ليهمس في أذني بما خفي عني.. عرفت ذلك من صوت خطواتك واتجاهها.

قال بصوت مبهم:

- أشاهد "الحاوي" الذي يقوم بخدعة جديدة في الحديقة الملاصقة للشركة.

ثم استطرد دون أن أطلب منه شرح الخدعة:

- يقوم الآن بوضع كفيه على بُعد سنتيمترات فوق طاولة تزن على الأقل

عشرة كيلو جرامات، ويغطي يديه والطاولة بمفرش أسود، يتفوه ببضع كلمات ثم يحرك يديه إلى أعلى فترتفع الطاولة عن الأرض وتتحرك معه في الاتجاه الذي تتحرك فيه يداه كما لو كانت بخفة الريشة!

خطر على ذهني سؤال بدا لي منطقيًا فسألته:



- وكيف عرفت وزن الطاولة؟

قال مؤكدًا:

- بالنظر إليها.

- هل وزنتها بعينيك؟

لم يحر جوابًا. فأضفتُ:

- لعلَّها إسفنجًا لا يزن سوى بضع جرامات تم طلاؤه من الخارج ليبدو كما لو كان طاولة حقيقية، لا تثق دائمًا بعينيك.

طال صمته، ثم قال فجأة:

- كنتِ محقة بشأن مكتبي الذي أتركه مفتوحًا بعد انصرافي، أصبح يُغلق الآن ولا يُفتح إلا حين عودتي في اليوم التالي، ومفتاحه الوحيد مع "نيفين"، أترك معها دائمًا نسخة احتياطية من مفتاح منزلي، وهي شخص موثوق بالنسبة لي.

ثم استطرد بكلمات حاسمة:

- أما بخصوص "شهاب" فهذا أمر خاص لا أحب أن يتدخل فيه أحد.

- طالما أن هذا الأمر الخاص له علاقة بالعمل إذًا فمن حقي التدخل.

زفر بقوة وشت بوقع كلماتي على نفسه، فانتظرت تطاير حمم البركان، لكنه خالف توقعاتي هذه المرة، قال:

- سأتحدث معكِ بصراحة وأرجو أن تنتهي هذه النقطة بانتهاء هذا الحوار، بيني وبين "شهاب" عداوة قديمة، نعم هو ابن عمتي لكن ليس له عندي أي رصيد طيب، وكوني مضطر إلى العمل معه الآن لا يعني أن أنافقه وأُظهر عكس ما أُبطن.

قلت بهدوء حتى لا أثير البركان:

- الموضوع ليس نفاقًا، بل التزام بأخلاقيات العمل، أتفَهَّم ما تقول لكن لا أريد لهذه العداوة القديمة أن تؤثر على عملنا مع شركته لأننا في أمس الحاجة إليه.

- لأننا؟!

لم أفهم إن كان استفهامًا أم اعتراضًا. قلت:

- هل تعرف لماذا أنا ناجحة كثيرًا في عملي؟

كان لكلماته طعم المرح:

- لأن الثقة بالنفس لا تنقصكِ بالتأكيد.

- لأنني وفريقي نهتم بالشركة التي نساعدها كما لو كانت شركتنا.

- لماذا اخترتِ هذا النوع من الأعمال؟

ملأت السعادة قلبي لسؤاله، تُرى حقًا هل يهتم؟ بُحت له بأصدق جواب عندي:

- عندما كنت صغيرة واجه أبي أزمة مالية كبيرة، وعرفت أنها بسبب معلومة حُجبت عنه، وعندما سألته لماذا لم ينصحك أحد حتى لا تخسر، أجابني أن لا أحد ينصح غيره، لأن الجميع ينافس بعضهم بعضًا.. فأحببت أن أكون استثناء وأن أؤسس شركة يكون الهدف منها تقديم النصح لمن يحتاج إليه.. فحقق خالي "إدريس" الحلم.

ليتني أعرف فيما يفكر الآن، لكن هذه الأمنية لم تتحقق، نهضت وأوليته ظهري، لكن سؤالًا قفز من مكان ما برأسي فالتفتّ إليه وأفصحت عنه:

- هل آذاك ابن عمتك كثيرًا حتى لا تستطيع مسامحته؟ ألا تستطيع نسيان الماضي؟

صعقني جوابه:

- أنا لا أسامح أبدًا.

التفت بكل جسدي إليه، اضطربت أنفاسي وتسارعت وتيرتها، همستُ بذهول:

- أبدًا؟!



قال بقسوة:

- نعم، أبدًا.. المغفرة من الله لكن نحن لا يجب أن ننسى كيف آذانا الآخرون لأننا إن نسينا فسنُجرح من جديد.

لم أتحمل قسوته، أشعلتْ حممه في صدري نارًا لا تنطفئ، خنقني دخانها حتى شهقت طلبًا للهواء، تبللت عيني بدموع وخَزَتها، فغادرت مكتبه مسرعة.



(٢٩)

ماهر

لماذا تأثرَتْ بهذا الشكل؟ هل آلمتها كلماتي حقًا؟ لكن لماذا؟!

يبدو أنني ذكَّرتها بما أحزنها، هل آذاها أحدهم، أم هي من آذته؟ هل رفض أن يسامحها؟ توقفت عن توجيه الأسئلة إلى نفسي وأنا أتمتم، ما شأني لماذا أشغل نفسي بذلك؟

استعدتُ في رأسي تفاصيلها، حركاتها وسكونها، عجزها وقوتها، لينها وحزمها، وكأنها صنعت بين المتناقضات حلقة وصل. ها هو الخوف يملأ صدري مرة أخرى، حدسي الداخلي يأمرني أن أهرب من هنا، إلى مكان لا يوجد به "آسية".

رن هاتفي وأنا أخرج من المصعد، يبدو أن السيدة التي أنجبتني شعرت بالوحدة وأرادت أن تلعب معي لعبة الأمومة. لم أجب لكن اتصالاتها لعشر دقائق كاملة دفعتني أخيرًا إلى الصراخ فيها:

- ماذا تريدين مني؟

أجابتني بصوت مُكبَّل بالبكاء:

- "ماهر".. "أروى".. أخذوا "أروى" يا "ماهر".

أوقفت السيارة بغتة وهتفتُ بهلع:

- من أخذ "أروى"؟!

تحشرج صوتها، وتداخلت كلماتها:

- الشرطة، يظنون أنها عضوة في "رابطة الدم"، أخذوا ابنتي مني يا "ماهر"، أحتاجك كثيرًا، أنا و"أروى" نحتاج إليك.



تلبَّسني الفزع وأنا أشق الطريق بسيارتي إلى بيتها، شلَّ الخوف عقلي فأضحى عاجزًا عن التفكير. وصلت إلى البناية، لم أستطع انتظار المصعد قفزت فوق كل درجتين حتى وصلت إلى الباب. استقبلتني بوجه أغرقته الدموع، وعينين حمراوين تتحركان في جنون، تشبثَتْ بقميصي بشراسة قطة فقدت أولادها، وهتفتْ:

- "ماهر" أرجوك افعل شيئًا، أختك ستضيع، لن تعود كما كانت، سيدمرونها يا "ماهر".

كنت أعلم كما تعلم هي تمامًا أن لا أحد بوسعه أن يفعل شيئًا، لا توجد محاكمات ولا أدلة ولا دفاع، والقاضي هو نفسه الشاكي والجلَّاد.

كنت أرى ذلك يحدث للآخرين خارج أسوار حياتي، وأظن أنه سيبقى دائمًا في ملعبهم بعيدًا عني، لكنني فجأة انتقلتُ من مقعد المتفرجين إلى وسط الملعب، والمشكلة أنني لا أعرف إلى أين أتوجَّه بالكُرَة.

طُفتُ مع "شريف" على الكثير من أقسام الشرطة، لكن الرد موحَّد، ستعود إلى البيت بعد زرع "شريحة الأحلام" في رأسها، لا شيء سيمنع ذلك، رُفعت الاعتراضات وجفَّت القرارات!

ازداد بيت أمي ضيقًا عندما حضر ابن عمتي "شهاب". هل استدعته لإغاظتي؟! تظاهر بالبحث والاهتمام وأنه لم يترك واسطة إلا واستغلها لإعادة "أروى". لكن باءت كل محاولاته بالفشل، وجر ذيول الخيبة وهو ينصرف.

أكره لحظات الانتظار، لكن الانتظار الآن أكثر بشاعة من أي وقت مضى، تشققتْ قلوبنا شوقًا إلى قطرة أمل. رفعتُ وجهي الذي بقى لدقائق مدفونًا بين كفيّ، نظرتُ إلى أمي المستلقية فوق فراشها بعد أن غادرها الطبيب، نائمة تهذي باسم "أروى".. وباسمي.

- لم أترككما برغبتي.. كُف عن سحق قلبي يا "ماهر".

امتلأت عيناي بعبرات غزيرة حجبت عني تفاصيل وجهها، سكبت عيناي حملهما لتمتلئ بغيره، أمسكتهما بأصابعي لأوقف انهمار الشلال

المالح، لكن جسدي كله ارتج بالبكاء، بكيت كما لم أفعل يومًا، بكيت القهر والألم والعجز.

****

بعد أسبوع عادت "أروى" لكن ليست أختي التي أعرفها، كيف يمكن أن تذبل بهذه السرعة؟ ماذا فعلوا بكِ يا عصفورتي الصغيرة؟

أخذتها في أحضاني أخفيها عن الجميع، قبلت رأسها ولا زلت أضمها بقوة إلى صدري، جذبت أمي ذراع "أروى"، الشيء الوحيد الذي استطاعت انتزاعه مني، وانهمرت عليه تقبيلًا..

هل تبكين الآن؟ أين كنتِ عندما كانت طفلة صغيرة تتمسك بردائك وترجوكِ ألا تتركيها في بيت جدتي، أين كنتِ في ألمها ومرضها، انتظرتكِ كل ليلة تلت رحيلك، هل تعرفين ذلك؟ لم تمل انتظارك قط، كانت تقول لي: أمي ستعود لنا يا "ماهر.

صدقتْ وعُدتِ، لكن نحن من ذهبنا يا أمي.

كانت الليلة الأولى لـ"أروى" كارثية لها ولنا، انتفضتْ فزعة من نومها تبكي وتصرخ وتهذي وهي تدق الأرض بقدميها:

- لا أريد أن أنام، انزع الأحلام من رأسي يا "ماهر"، أرجوكِ أخرجيها من عقلي يا أمي".

دفنت رأسها في صدر أمها المنهارة بجوارها على الأرض. رجعتُ خطوتين إلى الخلف وانهرتُ جالسًا فوق فراشها، يحاصرني العجز من كل مكان.. دون تفكير امتدت أصابعي إلى هاتفي واخترتُ رقمًا من قائمته، رفعته إلى أذني، لم يكن صوتي ما سمعته، بل صوت رجل آخر يعيش بداخلي ويقول:

- "آسية" أنا في حاجة إليكِ.

****

لبَّـت "آسية" النداء بالسرعـــة التي رجوتهـــا، اتخـــذتْ مجلسًا بجـــوار



"أروى"، عانقتها، مسحت عبراتها، همست في أذنها بكلمات لم أسمعها.. أفاضت عليها من الحنان ما لا تفعله سوى أخت لأختها!

اجتذبت حركتها انتباهي، وكلماتها تفكيري. وجدتها تسأل "أروى" منذ متى وهي منضمة إلى "رابطة الدم". فأجابت "أروى" بكلمات خنقها البكاء:

- أنا لم أنضم إليها.

تركناها ترتاح في غرفتها وتوجهنا إلى الصالون. خرجت أمي من المطبخ تحمل مشروبًا دافئًا للجميع، فحملت عنها "شهد" الصينية وبدأت في توزيع الأكواب، نهض "شريف" وفتح الشرفة ليتجدد هواء الغرفة. خيم الصمت على الجميع للحظات طويلة، حتى ألقيتُ سؤالي على "آسية":

- هل كنتِ تعرفين أن أختي منضمة إلى "رابطة الدم"؟

هزت رأسها نفيًا بقوة وقالت:

- كلا لم أكن أعرف، فأنا لا أعرف كل أعضاء الرابطة، ولا أتواصل سوى مع عدد قليل منهم.

احتدت أمي بقولها:

- لكن "أروى" تنكر ذلك.

فعدتُ إلى "آسية" بالسؤال:

- هل يمكن أن تُعاقب دون أن تكون عضوة بالفعل؟

هزت رأسها نفيًا وقالت بصوت متعب:

- كلا مستحيل، هذا العقاب أعده "مجلس الوِصاية" خصيصًا من أجل المنضمين للرابطة، بمجرد تبرعها بالدم ولو لمرة واحدة يتم عدها واحدة منا، لابد أنها فعلت ذلك دون علمكما، وأمر بديهي أن تنكر ذلك، فالكثيرون ينكرون في البداية ثم يسلمون بالحقيقة.

لم يسعني المقعد، صار البيت وكأنه مرجل يشوي جسدي، نهضت صائحًا:

- وما الحل الآن؟ هل انتهت حياة أختي بهذا الشكل، هـــل ستضطـــر إلى

مواجهة تلك الأحلام المُصنعة من مخاوفها إلى آخر يوم في حياتها؟

لم أشعر بنفسي إلا و"شريف" يكتف ذراعيّ خلف ظهري، تسارعت أنفاسي وأنا أنظر إلى الطاولة المنقلبة إثر ركلة عنيفة من قدمي، نزع من يدي مزهرية كنت أنوي قذفها نحو الجدار. أجلسني هاتفًا:

- "ماهر" اهدأ، لن تساعد أختك بهذا الشكل.

صرخت بوجه محتقن بالغضب:

- وكيف أساعدها إذًا، أخبرني يا "شريف".

لكن "آسية" هي التي أجابت السؤال:

- سأخبرك كيف تساعدها.

اتجهت كل الأنظار إليها في لهفة، إلا نظرات "شهد" اللائمة وهي تحذرها بقولها:

- "آسية" لا تتهوري، يجب أن تأخذي رأي عم "إدريس" أولًا.

لكن "آسية" لم تهتم بتحذير "شهد" وقالت:

- أثق بكل الأشخاص الموجودين هنا الآن، الوحيد الذي لا أعرفه هو الأستاذ "شريف".

طمأنتها بقوة:

- "شريف" أكثر من مجرد صديق، إنه أخ لي.

- حسنًا، إذًا بإمكاني أن أخبركم أن خالي أحد الأعضاء الكبار في الرابطة ويُعد من المؤسسين لها.

حاولت "شهد" من جديد أن تثنيها عن استكمال الحديث، لكن "آسية" أصرت على مواصلته:

- طوال العام الماضي والرابطة تحاول تطوير علاجٍ مضادٍ يوقف عمل "شريحة الأحلام".. وحتى هذا اليوم لا يزال العلاَج في طور التجريب، لكن المبشرات ممتازة جدًا.



قلت بلهفة:

- كيف نتحصَّل على هذا الدواء؟ وكيف سيساعد "أروى" بالضبط؟

أخرجت من حقيبتها أنبوبًا صغيرًا تحكمه سُدادة تحجز بداخله سائلًا شفافًا، وقالت:

- عمله هو وقف الحلم الذي تعرضه "شريحة الأحلام" برأسها أثناء النوم، فيصبح نومها هادئًا خاليًا تمامًا من الأحلام، لكن للأسف الجرعة الواحدة يمتد تأثيرها لعشرة أيام فحسب، أي أنها ستحتاج إلى ثلاث عبوات مثل هذه شهريًا.

انفعلت أمي بشدة وأصرت على منعي من الموافقـــة على حقــن "أروى"

بهذا العقار، هل يمكن أن أثق في هذا الدواء المضاد حقًا؟ وهل يمكنني أن أثق بـ"آسية"؟!

كان رد فعل أمي عنيفًا إلى الحد الذي دفعها لاتهام "آسية" بمحاولة إيذاء "أروى" عن عمد، تعجبتُ من موقفها الهجومي على "آسية" التي احتقن وجهها بشدة. كانت أعصاب الجميع تالفة بما يكفي ليمتزج التوتر والاضطراب بأنفاسنا.

قلتُ لأضع حدًا لهذا الأمر:

- سأجرب العقار بنفسي أولًا.

اعترضت "آسية" بأن الدواء مخصص لمن يحملون في رؤوسهم "شريحة الأحلام" وأنها لا تعرف تأثيره على غيرهم، لكنني أصررت لأنني لم أجد حلًا آخر، لم يكن اعتراض أمي و"شريف" بأقل من اعتراض "آسية"، لكنني أسكتهم جميعًا وقلت بحزم:

- انتهى الأمر، سأجربه بنفسي.

ذهبت إلى بيتي هذه الليلة ومعي الدواء رغم احتجاج أمي، لم يتركني "شريف" بمفردي وشاركني ليلتي ليكون على أهبة الاستعداد لإسعافي إن واجهني الخطر.

لا أنكر الخوف الذي استبد بصدري وتوغل بعقلي، لكن الألم الذي عانته "أروى" أمام عيني أوقف عقلي، وختم بالصمت على قلبي.

ارتجافة أصابعي منعتني من حقن نفسي، ففعل "شريف" بتوتر ملحوظ وأفرغ السائل في وريدي، استلقيتُ فوق الفراش أحاول النوم، وكان آخر ما رأيته وجه "شريف".. ونظراته الـ... الـ.. الغريبة!





(٣٠)

آسية

كنت ثائرة كثيرًا وأنا أوجه حديثي إلى "شهد" قائلة:

- أنتِ خيبتِ ظني بشدة يا "شهد"، لماذا أخبرتِه؟

لكن خالي "إدريس" قاطعني بقوله:

- بل أنتِ التي خيبتِ ظني يا "آسية"، كيف تخفين كل ذلك عني، ألستُ خالك الذي اعتدتِ على أن تخبريه بكل شيء؟

كان خالي "إدريس" محقًا في غضبته، أخفيت عنه الكثير، لم يتوقع ذلك مني بالتأكيد، الأصعب أنه لا يزال هناك ما لا يعرفه، وما أخاف أن يعرفه.

نهرني قائلًا:

- لماذا تخاطرين بكل شيء؟ أنتِ تتصرفين بتهور لم أعتدْه منكِ من قبل.

لم أتمكن من صياغة إجابة شافية يرضاها خالي، فتركت سؤاله معلقًا في هواء الغرفة المشحون بالخوف والقلق.

قلتُ:

- أليست "أروى" واحدة منا الآن؟ لماذا لا نساعدها كما نفعل مع غيرها؟

أجابني خالي بتعقله:

- لأننا نتحرى جيدًا عن كل حالة نساعدها بالعقار الجديد، ألم تفكري أنها قد تكون خدعة للإيقاع بنا؟

قلت مؤكدة بثقة لا ريب فيها:

- ليست كذلك اطمئن يا خالي.

فاستطرد:

- كما أن الجرعة الذي أعطيتها لكِ كانت تخص "سلمى".

قلت على الفور:

- أثق أنك ستحضر لها غيرها، خالي افهمني لم أستطع أن أمنع نفسي من مساعدة "أروى".

سألني بعتاب كبير، كأب يعاتب ابنته:

- متى كنتِ تنوين إخباري بكل ذلك؟

أسعدني عتابه لأنني أراه دائمًا كدليل اهتمام، قلت له أنني كنت سأخبره الليلة قبل أن تسبقني "شهد"، اعتذرت له كثيرًا وعانقته طويلًا، ورجوته أن يعطيني المزيد من العقار لمساعدة "أروى" فأومأ برأسه مرتين. سألته إن كان للعقار تأثير سلبي على "ماهر" فأخبرني أن لا نتيجة له على الإطلاق لأي إنسان طبيعي، فارتاح قلبي كثيرًا. وعندها سألني السؤال الوحيد الذي لا أستطيع أن أجيبه بصدق:

- لماذا "ماهر" وأخته مهمان لكِ إلى هذه الدرجة؟

باضطراب تمنيت ألا يلاحظه قلت وأنا أعبث بشعري:

- ليس لسبب خاص، فقط أردت المساعدة.

بعد مغادرة خالي للبيت التفتُ إلى "شهد" محتدة:

- شكرًا يا "شهد" على المشكلة التي سببتها لي مع خالي.

أقبلت نحوي تقول:

- أقسم أنني لم أود أن أسبب لكِ المشكلات، أنا فقط أخبرته بما حدث

اليوم مع "أروى" ومساعدتك لها، فعلت ذلك لأنني خفت عليكِ يا "آسية"، أرجوكِ لا تغضبي مني لا أتحمل ذلك.

أبعدتُ نفسي عنها وقلت بضيق:



- أنا ناضجة بما يكفي لأتخذ قراراتي بنفسي، من فضلك لا تفعلي ذلك مرة أخرى، لست معتادة منكِ على ذلك، كنتِ دائمًا بئر أسراري، أرجوكِ لا تفشي مرة أخرى سرًا ائتمنتكِ عليه، أنتِ صديقتي لا صديقة خالي يا "شهد".

قالت مؤكدة وأنا لا ألمس في صوتها ندمًا حقيقيًا مما ضخّم ضيقي منها:

- حبيبتي أنا ما زلت بئر أسرارك، أنا لم أخبر عم "إدريس" عن تعاقدك مع شركة "ماهر"، وأنك تمضين ساعتين يوميًا في شركته، هل لاحظتِ ذلك أم أنك لم تلاحظي سوى ما أغضبكِ مني، سامحكِ الله.

كانت محقة في عتابها، ولم أشأ أن أحمل ما فعلته بأكثر مما يحتمل، قلتُ:

- حسنًا، أعتذر عن حدتي معكِ، لكن من سيتحملني غيرك يا "شهد"، أنتِ صديقتي القريبة والوحيدة.

- لو كنت كذلك لكنتِ تحدثتِ معي عما يجول في عقلك، لن أضغط عليكِ يا "آسية"، سأنتظر حتى تكوني مستعدة للتحدث معي.

هززت رأسي مؤكدة وقد أسعدني تفهمها:

- سأفعل، فقط امنحيني بعض الوقت لأعيد ترتيب أفكاري.

لازمني إحساس غريب تجاه "شهد" طوال فترة المساء التي قضيناها معًا ما بين مشاهدة التلفاز وإعداد العشاء، كانت باردة وبعيدة، رغم الدفء الذي تُغلف به كلماتها، وكأنني أتعامل مع اثنين "شهد" لا "شهد" واحدة. ليست المرة الأولى التي أشعر فيها بانقسامها إلى شخصين، لكنها المرة الأولى التي يطول فيها ذلك إلى نحو الساعتين.. وقبل مغادرتها قالت بخبث فاح به صوتها:

- أرجو ألا تكوني قد وقعتِ تحت سحر هذا الوسيم.

- من تقصدين؟

- ومن غيره.. "ماهر".

أنكرتُ بصوت مضطرب:

- كلا بالطبع.

فقالت بغنج قبل أن تقبل وجنتي وتنصرف:

- جيد، لأنني وقعت، وأنوي أن أصارحه بذلك في أقرب وقت.

هل قالت ذلك لتختبرني أم لتضايقني؟ لا أعرف أيهما لكنها نجحت في مسعاها؛ إنكاري الواهي كان بمثابة إقرار، أما الضيق فلازمني طيلة الليل حتى لاح في الأفق ضوء النهار.

***



(٣١)

ماهر

أقف في منتصف عالم اتساعه المدى، تتطاير من حولي الصور، تمتد يدي إلى مشارق العالم ومغاربه، أعلاه وأسفله. صور ليست كالتي نعرفها، صورة لها شكل وأبعاد ورائحة، لها طعم وصوت وذكرى!

ومن خلفها تتتابع آلاف الصور، كتتابع صور الأفلام في آلة العرض. الأفلام ما هي إلا مجموعة من الصور، تُعرض بسرعة معينة، لا يفصل كل صورة عن سابقتها ولاحقتها إلا زمنًا قصيرًا لا تلتقطه العيون.

لا هذا ليس حلمًا كما هي الأحلام المعتادة، فأنا بكامل وعيي، ومدرك أنني لست في العالم الواقعي، لي حرية التحرك وفق رغبتي، لكن جسدي بخفة ريشة، أين أنا إذًا؟! وكيف أدخلني العقار إلى هنا؟!

أمسكتُ بصورة وتفحصتها، كانت صورة في مدرسة، تلاميذ وسبورة ومُعلمة، وتتابعت من ورائها الصور، سألت المُعلمة سؤالًا، فأجاب طفل لا أراه، طفل يقف مكان الناظر إلى الصور، كانت إجابته خاطئة، فضحك منه جميع الأطفال، أطرق برأسه في انكسار فاختفى وجه المُعلمة!

تركتها وأمسكت بأخرى تأملتها، كانت صورة في امتحان، المراقب يغدو ويروح في انتباه، انقلبت ورقة الإجابة الخالية من أي إجابة! فرأيتُ الاسم أعلاها، إنه اسمي!

هربت من بين يدي الصورة فاصطدتُ غيرها، رأيتُ فيها بحرًا وأمواجًا وطفلًا يوشك على الغرق، سبح أحدهم لينقذه فتعلق الطفل برقبته، يبكي ويقول "لا تتركني يا أبي"، لكنني أعرف أن أباه بعد وقت قصير سيتركه.. وسيكون الانتحار أحب إليه من طفله.

عندها عرفت من التقط هذه الصور.. إنه عقلي أنا!

استيقظتُ وجسدي غارق في العرق، تحرك شيء في الظلام ففزعت وصحت:

- من هنا؟

اقترب مني شبح مجهول الملامح وانحنى فوق فراشي، تجهزتُ لتسديد لكمة إلى وجهه لكنه أوقف قبضتي على بعد سنتيمترات، وهتف:

- "ماهر" إنه أنا.. "شريف".

وضعتُ رأسي على الوسادة لا أقوى على رفعها، حاولتُ أن أفتح عيوني مرة أخرى، لكن سلطان النوم أصدر أوامره.

***

كنتُ بحاجة لأن أتحدث مع "آسية"، كنت بحاجة لأن أفهم.

لكن هاتفها المغلق أعاقني، وفشلت في معرفة مكانها بالاتصال بـ"شهد" التي تمنَّعت وكأنها ستفشي سرًا حربيًا! لذلك لم أجد سوى "جميل" حلقة الوصل الأولى بيني وبينها. عرفت منه أن "آسية" تعمل في مدرسة للمكفوفين، وأنها تكون بالمدرسة في مثل هذا الوقت.. أتعمل مُدرسة؟! وماذا أيضًا سأكتشف عنكِ يا "آسية"؟

بعد نصف ساعة تقريبًا كنت أترجل من السيارة وأدخل إلى المدرسة، سألت عنها فوجهتني إحداهن إلى صفها، كان الباب مواربًا فدفعته ببطء ليتسع مجال الرؤية.

جالسة تستند بذراعيها إلى مكتب صغير وأمامها كمبيوتر لوحي، يواجهها ستة صفوف من المقاعد وطلاب يولونها جل انتباههم، سألها أحدهم:

- هل يراها المبصرون يا مس "آسية"؟

فنقلتُ بصري إلى وجهها الخالي من نظارته السوداء، وددتُ لو أقترب أكثر لكنني لم أرغب في أن تدرك وجودي. أجابتْ الطالب:

- لا يا "حسن"، لا أحد يراها.



ثم استطردتْ وقد فازت بانتباهي أنا الآخر:

- إنها حولنا في كل مكان مثلما يُحاك الماء باليابسة على سطح كوكبنا، فاليابسة تمنح الحدود للبحار والمحيطات والأنهار وبدونها لما اتخذ كوكبنا شكله الحالي.

وكذلك "المادة المُعتمة" إنها تطوف حولنا لتحدد لنا شكل الكون بكل ما فيه من كواكب وأجرام ونجوم.

ثم استطردتْ وكأنها ترى ما تتحدث عنه:

- عالم معتم نعم، لكن له حياة داخلية خاصة غنية، بها الكثير من التفاصيل المثيرة التي لم نكتشفها بعد.

عام مظلم نعم، لكن بداخله حياة قوية وقوانين مختلفة عن العالم المرئي، لا يمكن أن نقارن بين العالمين فنتساءل أيهما أكثر أهمية من الآخر، لكن بإمكاننا أن نفكر أن الله له حكمة من خلق كل شيء، وطالما خلق هذا العالم المعتم وأضافه إلى العالم المرئي إذًا فلا بد أن لذلك حكمة حتى لو لم تتسع عقولنا لفهمها.

كان الجميع وكأن على رؤوسهم الطير، توجهتْ "آسية" إلى أحد طلابها بالسؤال:

- لم أسمع صوتك اليوم يا "أمجد"، ألا يوجد ما تعترض عليه؟

أجابها طالبها "أمجد" وكان فتى ضخمًا ويبدو على وجهه آثار شجار:

- لا ليس لدي ما أقوله اليوم، لكنني عرفت إجابة سؤال الدرس الماضي، هل تريدين معرفة الجواب؟

بسطتْ "آسية" كفيها وعلى وجهها ابتسامة مبتهجة لا يراها غيري، وقالت:

- بالطبع، لكن ذكِّر زملاءك أولًا بالسؤال.

قال بحماس وكأنه يستلذ بعرض هذا النوع من المعلومات:

- السؤال كان عن قصة كتاب تم تغليفه بجلد بشري.. كان هناك رجل

يُدعى "جون هوروود" اتهم بقتل فتاة اسمها "إليزا بالسوم" عام ألف وثمانمائة وواحد وعشرين، بعد إعدام "جون" في سجن "بريستول" بالمملكة المتحدة، وكان بالمناسبة أول رجل يُعدم في هذا السجن، قام الطبيب "ريتشارد سميث" بتشريح جثة "جون" وصنع من جلده غلافًا لكتاب يحمل وثائق عن قضيته، ثم كتب عليه كلمات مُذهَّبة بحروف لاتينية تقول "جلد جون هوروود الحقيقي".

أما الكتاب ذو الغلاف البشري فموجود حتى الآن في مكتب سجلات "بريستول".

أضافتْ "آسية" إلى إجابة طالبها:

- كانت ظاهرة تغليف الكتب بالجلد البشري معروفة في القرن السادس عشر، وكانت بعض العائلات ترغب في تخليد ذكرى أحبائهم في شكل كتاب!

عقَّبت إحدى الطالبات بتقزز:

- حمدًا لله أن هذه الظاهرة انتهت الآن.

فلمع وجه "آسية" بابتسامة لمستُ خبثها، انتهى الدرس فانتحيتُ جانبًا ليخرج الطلاب بحُرية مع المشرفة.

ظلت "آسية" جالسة فوق مكتبها تنقر بأصابعها فوق جهازها اللوحي، يرافقها صوته المبرمج، دنوت منها وسألتها بصوت حرصت ألا يسمعه أحد:

- هل انتهت تلك الظاهرة حقًا أم أنها...؟

لم أكمل السؤال، ولم أشك في ذكائها في إكماله، تبيَّنتُ دقة استنتاجي عندما رفعتْ رأسها إلى الجهة التي أتاها منها صوتي وقالت بإقرار:

- أم أنها..

ارتفع حاجباي في دهشة وقلت وأنا حريص على إبقاء المحادثة بعيدًا عن آذان الآخرين:

- هل تفعلون ذلك حقًا؟ بجلود بشرية؟!



اتسعت ابتسامتها وهمست:

- نعم بجلود المتبرعين، وأحتفظ بواحد كُتب بدمائي ويحوي غلافه جزءًا صغيرًا من جلدي.

جذبتُ مقعدًا وجلست في مواجهتها. قلت باستنكار غلبني:

- لماذا؟

هزت كتفيها وقالت ببساطة:

- ربما لإضفاء المزيد من الأهمية على هذه الكتب.

فسألتها ولم أمل النقاش:

- وماذا تفعلون بالكتب؟

هزت كتفيها مرة أخرى وقالت:

- نبقيها في أمان.

سألتها بحيرة:

- ألا يقرأها أحد؟

منحتني جوابًا مقتضبًا بعد لحظة تردد:

- لا.

صحتُ باستنكار كبير:

- وما أهميتها إذًا؟!

قالت بصبر أم تحاور صغيرها:

- حتى تقرأها الأجيال القادمة، وتعرف تاريخها الحقيقي.

فسألتها كطفل مشاغب يصر على المشاكسة:

- إن كنا نحن لا نقرأها، ولا نبثها بداخل أبنائنا في الصغر، ولا نربيهم على ما فيها، فكيف سيؤمنون بها ويعلمونها لأولادهم وأحفادهم؟

انعقد الحاجبان الرفيعان بشدة، واستغرقتْ في التفكير ثم قالت بوهن:

- هذا أفضل من لا شيء.

تعجبتُ لمنطقها! لم أقتنع قط أن الكتب وحدها قادرة على تشكيل الوعي، أثق بالميراث الإنساني أكثر مما أثق في المعلومات المجردة، الكلمة لها ألف معنى، وقد تأخذنا إلى آلاف الاحتمالات، لكن وعي الإنسان هو من يختار بخبرته معنى واحدًا دون غيره. ما فائدة حبس العلم في الكتب دون تعليمه للآخرين والعمل به، هل الجماد أكثر أهمية من الإنسان؟! لماذا تعرف صفحات الكتب تاريخنا أفضل منا؟! باستثناء قلة مصطفاه لا تخالط العامة، وتحتقر جهلهم، لا تسمعهم ولا يسمعونها. لعل هذا هو السبب الذي لم يجعلني أهتم بدعوات الانضمام إلى "رابطة الدم" التي أتلقاها باستمرار على بريدي الإلكتروني.

قالت لتنهي النقاش:

- وأنت.. ماذا تفعل هنا؟

سألتها بفضول:

- بل أنتِ ماذا تفعلين هنا؟ أي مادة تُدرسين لطلابك؟

- الحياة.

- الحياة!

قالتها ببساطة، ورددتُها من خلفها بدهشة. هل تتعمد أن تكون مختلفة عن الآخرين أم أنها بالفعل تختلف؟

لفَّنا الصمت للحظات ثم تذكرتُ ما جئت من أجله، فألقيت نظرة على الصف الخالي إلا مني ومنها ثم قصصتُ عليها ما كان في أحلامي بالأمس بعد أن حقنتُ نفسي بالعقار. ازداد انعقاد جبينها، فسمحتُ لنفسي بالتحديق في عينيها، مشوهتين بالفعل يختلط فيهما الأبيض بالأحمر والأسود، لكن لم أستشعر فيهما بشاعة المرة الأولى، بدت عيونها أكثر ألفة.

- غريب!



أومأت برأسي ثم انتبهتُ فقلتُ:

- نعم غريب.

أخبرتني أن خالها قال أن العقار تم تجربته على أشخاص أصحاء يحلمون بشكل طبيعي ولم يُحدث العقار فيهم أي أثر، تأثيره فقط مقصور على المعاقبين بـ"شريحة الأحلام". فبدا الأمر أكثر غرابة، كنت أظنها ستزيل الغموض فإذ بها تُضيف إليه المزيد!

طلبتُ منها جرعتين من العقار، فوعدتني أن تأتيني بهما اليوم.

- كيف حال "أروى" الآن؟

سألتْ باهتمام حقيقي، صدَّق عليه صوتها وقسمات وجهها، لم أجب فقالت:

- تبادلتُ معها أرقام الهواتف بالأمس فإن سمحتَ لي سأبقى على تواصل معها.

أومأتُ برأسي ثم انتبهتُ ثانية فقلتُ:

- حسنًا.

أعجبني اهتمامها بمشكلة "أروى" فتساءلتُ في نفسي إن كان هذا هو حالها مع كل أعضاء الرابطة التي تنتمي إليها، لا أدري لماذا تمنيت أن تكون "أروى" بالنسبة لها حالة خاصة، ربما لأنني تمنيت أن نحظى منها بأكبر قدر من الاهتمام.

قلتُ لها بجدية بالغة:

- "آسية" لا تخبري أحدًا بما حكيته لكِ.

أعرف أنه يمكنني الوثوق بها، لكنني لن أكذب على نفسي ثقتي بها ليست عمياء كعينيها. سألتني:

- لماذا؟ ولا حتى خالي "إدريس"؟

- ولا أي مخلوق، أما لماذا فلا أعرف ولكن تجربة الأمس تركت بي أثرًا غريبًا لا أعرف كيف أصفه لكِ، وكأنني لا أستطيع أن أثق بأي أحد على

الإطلاق.

تفلتتْ منها ضحكة صغيرة ثم قالت:

- وما الجديد في ذلك؟

فتبسمتُ ضاحكًا من قولها. أقبلت "شهد" تحييني بحرارة أثارت الدهشة في نفسي، فقلت لها بفتور:

- كما ترين استطعتُ إيجادها بدون مساعدتك.

لم أنتظر ردها، ونهضتُ لأغادر المكان.

***



(٣٢)

آسية

انطلقت بنا سيارتي تقودها "شهد" دون أن نتبادل كلمة واحدة، لم تمر إلا دقائق حتى بادرت هي بالحديث معي. افترسني القلق وتاه تركيزي عن حديثها حتى نبّهتني، اعتذرتُ وسألتها أن تعيد عليَّ حديثها. فقالت:

- "ماهر" أقول.. ماذا أراد منكِ؟

قلت ببساطة وأنا أحاول تجنب الكذب:

- ينتظر المزيد من العقار من أجل "أروى".

- فقط؟

قالتها بحدة أدهشتني.. لماذا أشعر وكأن المسافة بين مقعدينا هي آلاف الأميال؟

منحتها ردًا مقتضبًا بتر الحوار من منتصفه. توجهنا إلى الشركة وبعد ساعة أتى "جميل" لاصطحابي بسيارتي إلى شركة "ماهر" في ميعادي اليومي. قبل خروجي أعلمتُ "شهد" فلم تقل شيئًا.

لم يأتِ "ماهر" اليوم إلى شركته، على الأقل خلال ساعات وجودي، عدت مرة أخرى إلى شركتي، وفي المساء حضر خالي "إدريس" واصطحبني إلى البيت.

رقدتُ فوق فراشي وقد بلغ مني الإرهاق الجسدي والنفسي مبلغًا عظيمًا، أغمضتُ عيني والحيرة تعيث في رأسي فسادًا، يبدو أن "ماهر" لن يعرفني إذا لم أذكره بنفسي، هل أفعل ذلك أم أترك الجراح القديمة وشأنها. لم أنس كيف عاملتني والدته بحدة أزعجتني، تُرى هل تعرَّفت عليّ؟

تمنيتُ إشارة واحدة أدرك بها وجهتي.. كان هذا آخر ما فكرت فيه قبل

أن تستسلم عيوني لسحر النوم.

***

بسط "الحاوي" ملاءة كبيرة فوق الأرض، ومنحني ابتسامة صغيرة لها طعم المكر، جذب الملاءة بقوة فانقلب اليابس إلى بحر ثائر تُظلله سحابة من الغضب!

هدرت الأمواج بعنف وتسابقت إلى الشاطئ، جرفتني معها إلى عرض البحر، حاولت الصراخ وطلب النجدة لكن لم يخرج صوتي، أولعل الرياح العاصفات سرقته وأخفته بين جنباتها، امتلأ البحر بأناس توشك على الغرق، رؤوس أينعت وتنتظر أمواج الحصاد.

اقترب مني أحدهم يمشي على الماء، لم أتبين وجهه بوضوح، ألقى على جسدي قميصًا أبيض ذا أكمام ثم اختفى، تلحَّفتُ بالقميص الذي التصق بي وكأنه بشرتي، فوجدتُ نفسي فجأة فوق رمال الشاطئ، امتدت يدي لجيب القميص فعثرتُ على مفتاح كبير، قلبته بين أصابعي محتارة، وتساءلت بلهفة مستثارة، تُرى ما الذي ستفتحه لي أيها المفتاح؟!

جذبني صوت أذان الفجر من عالم الأحلام، ولا زلتُ أشعر ببرودة المفتاح في كفي.

نهضتُ مثقلة بالتفكير، توضأت وأديتُ السُنة ثم أتبعتها بالفريضة، عدتُ إلى فراشي وألقيت رأسي على الوسادة متيقظة الذهن.

لا أعرف إن كان ما رأيته أضغاث أحلام، أم رؤية لها تأويل.. وإن كانت الثانية فيا تُرى ما هو التعبير؟

ولماذا يراودني إحساس قاهر، أن صاحب القميص حبيبي "ماهر"؟!

***



(٣٣)

ماهر

ها أنا ألتقيه ثانية بعدما ظننتُ أن لقاءنا السابق هو الأخير. الحياة تُصر على الجمع بين طريقينا بشكل عجيب.

كنتُ من طلب هذا اللقاء، فأعطاني عنوانًا ذهبت إليه لأعرف للمرة الأولى أنه تاجر أنتيكات!

تركني "إدريس" واستأذن للتحدث مع عميل، قضيتُ تلك الدقائق في متابعة خبر في التلفاز المعلق على الجدار، قال المذيع:

- ... هذا وقد فشلت الحكومة اليمنية حتى الآن في معرفة سر التعدي على نوع من الأشجار المهدد بالانقراض يُعرف بـ"دم الأخوين"، تشتهر به محمية طبيعية في اليمن، هذا النوع من الأشجار يحتوي على مادة قرمزية تُشبه الدم تُستخدم في الأصباغ وحبر الطباعة.

حوَّلت إلى قناة أخرى؛ استوقفني إعلان عن الشيخ "أبو طويلة المغربي" القادر على جلب الحبيب، ورَد المطلقة، ومعرفة نوع الجنين، وكشف خيانة الزوج، وأعادة الحبر إلى كتابك المفضل في ثلاثة دقائق فحسب!.. جلس "إدريس" أمامي مُرحبًا ومعتذرًا عن دقائق انشغاله، بدا مرتاحًا وكأنه يملك الدنيا بأسرها. حاولتُ أن أرى فيه ما يراه الجميع، بطلًا مغوارًا تحدَّى "مجلس الوِصاية" ليكتب التاريخ تخليدًا للحقائق واحترامًا لها، كانت الصورة مذبذبة لا تتضح فيها التفاصيل، فقط إطار مزخرف بالغالي والنفيس، مُطعم بجلود البشر والدماء الأبية، إطار مُقدس غير قابل للكسر وهذا أكثر ما أزعجني.

قطع حبل أفكاري بحقيبة صغيرة بريئة المظهر وضعها أمامي فوق طاولة ضمت فنجانين من القهوة السادة. ألقت عيناي عليه سؤالًا عن

محتوى الحقيبة، فرمتني عيناه بالجواب، ثم أضاف بلسان كريم:

- إن أردت المزيد أخبرني، علمًا أن تصنيع هذا العقار يكلف الكثير من الوقت والجهد والمال.

شكرته بإشارة من رأسي، ولذتُ بصمت العاجز عن الكلام. فاستطرد:

- يا بُني نحن لا ننسى أبناءنا، من منحونا قطرة واحدة من دمائهم. يمكنك الثقة بعمك العجوز "إدريس"، سأفعل ما بوسعي حتى لا تتألم "أروى".

- منذ متى وهي واحدة منكم؟

- منذ وقت قريب.

قالها باقتضاب، أومأت برأسي وهممتُ بالانصراف، لكنني تراجعتُ وتوجهتُ إليه بجسدي وأنا أحدق فيه قائلًا:

- قلت لي في زيارتك الأولى والأخيرة لمكتبي، أن هناك ما لا تستطيع أن تخبرني به، ما الذي تخفيه عني؟

هربت عيناه بعيدًا عني، شرد طويلًا وتجعد جبينه بالتفكير، فازداد قلقي، وتحفزتُ أكثر في جلستي، هيا يا "إدريس" اكشف لي عن سرك، لأنني أشعر أنه سر غير عادي.

ظننت أنه سيتجاهل سؤالي، أو في أفضل الأحوال سيمنحني جوابًا لا يسمن ولا يغني من جوع، لكن صوته اكتسى بجدية بالغة، ونظر في عمق عيني وقال:

- منذ أن التقيت بك وأنا في حيرة من أمري، هل أخبرك أم أستمر في السكوت، هل ستصدقني، هل ستساعدني، أم ستستمر في حياتك وكأنك لم تعرف شيئًا.

دفعته أكثر للكلام، وحاولت تبديد تردده، حتى قرّب رأسه من رأسي وهمس لي قائلًا:

- هل تريد أن تشفى "أروى" تمامًا من آثار "شريحة الأحلام" بغير عقار؟



قلت بلهفة:

- طبعًا أريد.

بلغ الفضول مني مبلغ السحاب من الأرض، قال بغموض من يعرف كل الأسرار:

- إذًا اسأل أمك عن "الكتاب الذي لم يقرأه أحد".. ثم عد لي لأخبرك المزيد، وتذكر يا "ماهر"..

أنت أتيت لي بنفسك، أنا لم أسع إليك قط.

***

(٣٤)

الكتاب الذي لم يقرأه أحد!

- نحن لا نهتم أبدًا بالأسباب لذلك نجهل علاقة "البيروني" بالجاذبية.

قاطعته بحدة غلبتني:

- أنتم تجهلون أكثر مما تعرفون، والمصيبة أنكم تتبجحون بغير ذلك.

أفصحتْ كلماته عن عظم خجله، ذكر المراجع التي قرأها عن تاريخ الجاذبية، وما بثَّته فيه من دهشة عندما وقف على أن "نيوتن" ليس أول من عرَّف الجاذبية وتحدث عنها، كتب العالم الجليل "البيروني" من قبله عن الجاذبية وعرَّفها، ثم جاء "نيوتن" العظيم وأضاف إلى هذا التعريف، ثم صاغ ذلك في قوانين رياضية ليسهل التعامل معها في المعادلات.

ثم قال البشري وهو ينفض عن يديه ترابًا علق به بينما ينظف رفوف مكتبته:

- الغرب لم ينكر فضل علماء العرب والمسلمين في بعض كتبهم، نحن الذين لا نقرأ ولا نعرف تاريخنا حق المعرفة.

ثم أردف بحماس كعادته عندما يتحدث عما يثير شغفه:

- هل تعرف... ما هذا السؤال بالطبع تعرف، ها ها.. اكتشفت أيضًا أن علماء العرب ترجموا علوم الثقافات الأخرى وطوروها بشكل كبير، مثل اليونان والفرس والهند، والمُشرِّف في الأمر أنهم اعتادوا على ذِكر المرجع والمنشأ لعلومهم بعكس أوروبا التي كانت كثيرًا ما تتجاهل المصدر.

استطرد لاهثًا وهو ينقل الكتب من فوق الرفوف لتنظيفها من الغبار العالق بها:

- ظلت صناعة الورق سرًا يحافظ عليه الصينيون حتى أخذ العرب سر



الصناعة من أسرى حرب وأسسوا أول مصنع للورق في "سمرقند"، ثم انتقلت صناعته إلى أوروبا.

حتى أول قلم حبر في التاريخ صنعه "عباس بن فرناس".

ترك الكتب أرضًا وتحرك من مكانه مستغرقًا في التفكير، لدقائق طويلة لم أسمع إلا الصوت الرتيب لساعة الحائط. حكَّ رأسه ثم التفت إليَّ يسألني بحنق العاجز:

- لماذا انقلب الحال بصانع الورقة والقلم وأصبح بهذا التخلف والجهل، ما الفرق بيننا وبين أجدادنا العظماء؟ ما الذي يميزهم عنا؟

فابتسمت ابتسامة لم يرها، وتركته وسؤاله بلا جواب، لأنني كنت على ثقة من أنه سيعثر عليه في النهاية.

أخذ بحماس يُعدد لي ما علمه عن إنجازات أبناء عرقه وعقيدته، وأخذ يتمنى بحسرة لو كان لديه آلة للزمن فيعود للعيش في أزمنة الأمجاد، فصحتُ به ساخرًا:

- مرحى مرحى، تركت الباب الأول للهروب من القهر، والآن تلج بابه الثاني.

نظر لي مستفهمًا، فأجبت سؤالًا لم ينطقه:

- الهروب إلى الماضي، إلى الأيام الخوالي، إلى زمن الأبطال والإنجازات، وصدقني رأيتُ الكثيرين يلجون من هذا الباب، ويستمرون إلى نهاية الطريق، إلى تحويل الأعراف التي سادت هذه الأزمان إلى قوانين صارمة يخنقون بها حاضرهم.

هتف مستنكرًا وهو يمسح كفيه بردائه:

- وهل تُنكر عليّ فخري بأجدادي؟

- كلا بالطبع، لكن احذر من أن تفني عمرك في العيش على أطلال مجد، دون أن تبني ليومك، من يعيشون في الماضي ليسوا مؤهلين لحل صراعات الحاضر، هذا ما أردتُ قوله.

ارتفع صوت بكاء طفله الرضيع، كان مريضًا منذ أيـــام، أولاه البشــري

اهتمامًا كبيرًا، كان يتركني لفترات طوال ويلازم فراش طفله، لذلك ما إن سمع بكاءه حتى تركني وغادر الغرفة مسرعًا..

منذ أن حمل طفله بين ذراعيه وهو يحدثني عن أحلام كبيرة ينسجها حوله، كان يعده ليكون وريثًا لي وله. فأخبرته أن أحلام الآباء مهما كانت عظيمة إلا أن لأبنائهم الحق في أن ينسجوا أحلامهم الخاصة؛ دوره كأب لا يشمل الحلم بدلًا عن طفله، بل إرشاده لطريقة بناء حلم عظيم.

فوعدني أن يبذل كل ما في وسعه، لكي يساعد صغيره "ماهر" على أن يسلك درب العظماء!





(٣٥)

ماهر

أمي.. كل شيء يبدأ بها وينتهي إليها!

هي سبب ضياعي وضياع "أروى". فهل أيضًا ستكون اليد التي تمتد إلينا فتنقذنا؟

وقفتُ على أعتابها أنظر إلى عينيها المكحَّلتين بالأرق، طيَّات الزمن تُطوق رقبتها وكفيها وكأن الحياة امتصت من جسدها رحيق الشباب قطرة تلو قطرة.

لا أعرف ماذا قرأتْ في وجهي حتى تهمس باسمي بشفتين مرويتين بدموعها. قلتُ بصوت قطعه أنفاسي:

- أنا جاهز لسماعك.

أدخلتني، طوقت كفي بكفيها كأنها تخشى ذهابي عنها، ساقتني إلى أريكة وأجلستني، مسحتْ شعر رأسي بكفوف الحنان، فسمحتُ لها.

همستْ لي:

- كنت ابني ورفيق أيامي.

همستُ لها:

- لذلك الألم كبير.

أردفتْ وكأنها لم تسمعني:

- كنت تخبرني أنني أمك وصديقتك، كنت عطوفًا رقيق القلب، لم يمسح دموعي سوى يدك الصغيرة يا "ماهر".

قلتُ مضطرب الأنفاس، يعتصر الألم قلبي:

- لذلك تخلصتِ مني ومن أختي وبحثتِ لنفسك عن رفيق آخر لأيامك.

التفتُ إليها بعنف وزمجرتُ في وجهها:

- رحلتِ في اليوم الذي فقدنا فيه أبي، لم يكفِكِ أن صرنا أيتامًا بلا أب، فتركتِنا أشلاء بغير أم.

صاحت والألم ينسج قسمات وجهها:

- كنت مضطرة.

لم أحرك يدًا لمواساتها، لم أنطق بحرف لأوقف انهمار عبراتها. استبشعتُ نفسي كثيرًا، احتقرتُ الرجل متحجر القلب الذي أصبحتُ عليه.

كنت كغريب يبحث عن وطن يحتضن أوجاعه، اعتصرت أمي رأسي في أحضانها، قاومت هذا الوطن لكن ذراعيها كانا كالقيد يمنعا افتراقي عنها، اشتد جسدي كوتر القوس وانتظرت اللحظة المناسبة لإطلاق السهم.

وبدأت تقص حكايتها..

- عندما كان والدك صغيرًا كانت أحلامه عظيمة، أكبر من أن يسعها واقعه، فعلَّموه أن يُقيد أحلامه ويبقيها دائمًا حبيسة رأسه؛ فالأحلام لها عالمها والواقع له عالمه، ولا يمكن لأحدهما أن يحل محل الآخر. لذلك مر بفترة اكتئاب طويلة انتهت قبل زواجنا. بعد زواجنا كانت حياتي مع والدك تسير برتابة حيوات أمثالنا من الناس، أشارك أباك حب القراءة ويشاركني تفاصيل الحياة بحلوها ومرها. ذات يوم عاد يحمل كتابًا بلا اسم، وصار يغلق باب مكتبه ساعات طوال، وحرَّم عليَّ

دخوله، زهد صحبتي، والطعام والشراب، زهد الحياة كلها..

كنت أسمعه من خلف الباب يتحدث إلى نفسه، وعندما أواجهه يصر على أنه يحاور الكتاب، وأن الكتاب يكلفه ببعض المهام..

أصبح أبوك أسير الكتب، تحيطه في كل مكان، رفض الذهاب إلى طبيب فذهبت بنفسي ووصفت له ما كان من أبيك من أوهام، فقال الطبيب أن به حالة متطرفة من مــرض نفــسي يُسمى Bibliomania أو"هَــوَس



الكتب" وهو نوع من أنواع الوسواس القهري.

وعندما بشَّرني الله بك يا "ماهر" ظننت أن والدك سيترك عزلته وينضم إلينا في ركب الحياة، لكن عقله صار أسير الحروف والأرقام، كتب في كل مكان، كل يوم يقتني منها المزيد، حتى إنه كثيرًا ما كان ينسى أن يشتري لنا الطعام.

وعندما بدأ في تخصيص إحدى الغرف كمعمل صغير كان الأوان قد فات على إعادته إلى عالمنا. ساعده عمك "مالك" الذي كان يعيش بالخارج، أظنك رأيته مرتين، تَذكُره، أليس كذلك؟

أصاب بطني دفعة قوية من التشنجات، كان اسم عمي "مالك" يجتر معه ذكريات يضيق لها صدري، دفنتها بداخلي لسنوات طويلة، ذكريات تشاركني فيها ابنته "عنبر"، الطفلة التي أسأتُ إليها أكبر إساءة بحياتي. قلتُ باقتضاب:

- نعم أذكره.

أكملتْ أمي من حيث توقفتْ:

- تعرف أن عمك "مالك" ورث مالًا وفيرًا عن أمه، الزوجة الأولى لجدك والتي ماتت بعد طلاقها منه، فتواصل عمك "مالك" مع أبيك بشكل ما بعد سنوات من القطيعة، وقام عمك بتمويل أبحاث والدك وأنشأ له معملًا كبيرًا وجهَّزه بكل ما أمر به..

لا أعرف عما كانت تدور أبحاثه لكنه جاءني بعد ميلاد "أروى" بثلاثة أعوام ليخبرني أنه توصل بمساعدة الكتاب إلى اكتشاف خطير سيقلب العالم رأسًا على عقب، لكنه سيخضعه إلى المزيد من التجارب، وبعد هذا الحوار بعدة أشهر رأيته يجلس في أحد أركان البيت ويرتجف كمن مسه الجنون وأخبرني أن العالم كله يطارده!

لم أظن أنها حالة خارجة عن المعتاد فلم أكن أصدق نهائيًا هلاوس والدك، لكن في الصباح التالي فوجئت باختفائه وعندما تفقدتك لم أجدك في فراشك، مررت بأسبوع من أسوأ أيام حياتي.. حتى عاد أبوك ويدك في يده ليخبرني بكل برود أنه أخذك معه في رحلة كمكافأة لك

على نجاحك فيما كلفك به من مُذاكرة!

فهددته بالانفصال عنه إن كرر فعلته مرة أخرى.. وبعد أسبوع في مساء أغبر انتحر أمام عيني، ألقى بنفسه من الشرفة، دون أن يعبأ بتوسلاتي ولا ببكاء "أروى" التي أحملها فوق ذراعي.

شردتُ بعد كلمات أمي وعدتُ بذاكرتي إلى هذا اليوم العصيب، في تلك الساعة كنت ألعب مع ابن جيراننا في بيتهم، الذي يقع في الطابق العلوي، بعد إلحاح كبير من أمي لأختلط بالأطفال في مثل عمري، وأترك ما يرغمني أبي على مذاكرته من كتب. أفزعنا صوت ارتطام قوي وصرخات النساء فاتجهنا إلى الشرفة التي تعلو شرفة بيتنا لأرى جسد أبي مُلقى فوق إحدى السيارات، تُغادره الحياة بأسرع مما أراد.

أردفت أمي بعد أن التقطت أنفاسها:

- قبل أن يقفز أمرني أن ألتجئ إلى عمك "مالك" ليساعدني على أن أرحل بكما إلى مكان أمين حتى لا يعثر الأشرار على الإرث!

صحت بدهشة:

- أي إرث؟!

- لا أعرف، هذا كل ما قاله، قال أنه ترك لك الإرث ويجب أن تحميه وتدافع عنه.. بالطبع لم آخذ كلامه على محمل جدي، هربت بكما إلى بيت جدتك، تعرف أن أمي وأبي ماتا قبل ولادتك، ولم يكن لي أحد أطلب منه المساعدة، عثر علينا عمك وجاءني ليطلب مني الرحيل للنجاة بحياتي، قال أن هناك من يطارد زوجي من أجل أبحاثه وأنهم لن يصدقوا أنني لا أعرف شيئًا عنها، وحذرني إن أخذتكما معي فسأعرضكما لخطر كبير، قد يمسكون بي قبل أن أتمكن من مغادرة البلاد. ففعلت ما أمر به، فكل ما كنت أخشاه أن يصيبكما أي سوء، كنت على استعداد لأن أفديكما بنفسي يا "ماهر"..

وآخر ما قاله عمك "إياكِ واستخدام الهاتف للاتصال بهم، أنا سآتيك بأخبارهما أولًا بأول، ثم إياكِ وإخبار أحد أن الإرث لدى أولادك"!

حقدتْ جدتك عليَّ بشكل رهيب، نسجت القصص حول موت والـــدك



واختفاء جدك، وظننت أنني السبب في كل ما حل برأسها من مصائب، منعتني من التواصل معكما هاتفيًا ومعرفة أخباركما خاصة بعد وفاة عمك "مالك".

توقفت أمي عن الكلام، فسافرت بي الذكرى إلى يوم اقتحم فيه رجال أشداء منزل جدتي وجردوني أنا وأختي من ملابسنا، فتشونا كما لو كنا مجرمين لا أطفال أبرياء، ثم تركونا وأخذوا جدي معهم، لم يعد جدي من بعدها إلى البيت قط.

نظرتُ إلى أمي نظرة طويلة ثم سألتها بإرهاق من كان على سفر طويل:

- ولماذا عدتِ الآن؟

امتلأت عيناها بنظرة متحدية، وقالت:

- لأنني لم أعد أخشى الموت.

***

(٣٦)

ماهر

عدتُ وحيدًا إلى بيتي مُثقلًا بأفكار ممزقة لا تنسجم ولا تتحد، أسترجع كلمات أمي التي نكأت جراحًا كثيرة، ما لي وللماضي! يكفيني حاضر أقاسيه، ومستقبل يلوح بعَصاه.

لم تتركنا برغبتها إذًا، كانت مضطرة إلى ذلك من أجل حمايتنا وحماية نفسها؛ فهل معرفة ذلك تمحو ما سطَّرته داخل قلبي بحبر أسود؟ لا أعرف، وكأن مشاعري في حالة بيات شتوي، أخفتْ نفسها بين ثنايا قلبي، ولم أجد في نفسي الطاقة لأفتش عنها.

كانت تلك هي الليلة الخامسة لمفعول الجرعة التي تناولتها من العقار، والتي تستمر لعشرة أيام. أغمضتُ عيني واستغرقتُ في النوم. فطافت الصور مرة أخرى من حولي مُحمَّلة بألف ذكرى، ولكل منها طعم الألم. تجرعتُ رشفة من المر وراء أخرى من العلقم، حتى تمنيت لو ينتهي الحلم سريعًا، وأخرج من هذا العالم الذي لا ينسى ولا يغفل!

كل ذكرى مررت بها مسجلة هنا في صور، لكن كثيرًا منها بعيد عن مرمى يدي ولا أعرف كيف أصل إليها، حاولت كثيرًا لكن كان هناك عائق خفي يمنعني.

مؤكد أن لهذا المكان قوانينه الخاصة لترتيب الصور، إن عرفته فسأحصل على الصورة التي أريد بسهولة، لكن كيف أفهم هذا الترتيب؟!

تبقى خمس ليالٍ فحسب على انتهاء مفعول العقار، لذلك يجب أن أعرف سريعًا.





(٣٧)

آسية

ليلة أخر أمضيها وحدي بدون خالي، سافر في رحلة عمل تستغرق أربع وعشرين ساعة، لم تتجاوز الساعة السادسة مساءً وبدأت أشعر بطول هذه الليلة. وقفت أتجول في البيت تارة، وأستند إلى سور الشرفة تارة أخرى حتى اختنقت بذلك الصمت المميت. لو كنا في الأيام الخوالي لتوجهتُ إلى بيت "سلمى" ولأمضيت الليلة برفقتها نتسامر حتى الصباح، لكن "سلمى" ذهبت ولن تعود. شهقتُ أعبئ صدري بالهواء، نبتت بحلقي غصة كادت تكتم أنفاسي.

التقطتُ هاتفي وحاولت الاتصال بـ"شهد". ثماني مرات دون رد! وجدتُ نفسي أطلب سائق سيارة أجرة أعرفه، فهو أحد المنضمين إلى "رابطة الدم"، وأطلب منه أن يوصلني إلى الشركة ثم يعود إلى اصطحابي منها عندما أريد. حاولت أن أعوِّض ما فاتني من عمل الأمس إذ تركته مبكرة عندما أحسستُ أنني كنت فاقدة لتركيزي بشكل كبير حتى أصبحت عبئًا على فريق العمل؛ ففضلت العودة إلى البيت والاسترخاء.

لكنني لم أكن أعرف أنني على موعد مع مفاجأة تنتظرني في الشركة!

ما إن دخلت الردهة التي تؤدي إلى باب مكتبي حتى تناهى إلى مسامعي رجل وامرأة يتهامسان بصوت خفيض بداخل الغرفة. جمدتني المفاجأة في مكاني وعقدت لساني عن الكلام.. همستْ المرأة باسم الرجل فلم تلتقط أذناي سوى حرف الـ"شين" في بداية اسمه.

توقف الصوت بغتة وهتفت المرأة:

- من هنا؟

وذلك عندما اصطدمت حقيبتي بباب الغرفة. كنت لأظن أنني أخطأت في المكان، وأن المفتاح بإمكانه أن يفتح بابًا آخر غير باب شركتي، إلا أن صوت "شهد" أكد لي أنني في المكان الصحيح.. لكن في الوقت الخاطئ!

كان صوتها مرتبكًا بشدة وهي تسألني عن سبب مجيئي إلى الشركة بمفردي بعد انصراف الجميع. تجاهلت ما تقول وسألتها:

- هل معكِ أحد؟

مرت بي رائحة شممتها من قبل. لا أنسى أبدًا عطرًا شممته، ولا كم مرة فعلت، هذا العطر صادفته منذ فترة قليلة ولمرة واحدة فحسب. علق في ذاكرتي لأنه عطر عربي ثقيل لا يحبه الكثيرون، لكن هذه المرة خانتني ذاكرتي ولم أذكر أين شممته. كنت واثقة من أنني سمعت خطوات على الأرض تمر بجانبي وتتوجه إلى باب الشركة. انتظرتُ منها توضيحًا فلم تفعل، صحتُ فيها بحدة أن تفصح عن هوية الرجل، فاحتدت هي الأخرى وأنكرت وجود أحد، ثم غادرتْ الشركة في غضب وكأنني المخطئة!

كانت الدماء تغلي في عروقي، توجهت إلى غرفة المكتب، تحسست كل موضع وأنا لا أدرى عما أبحث، اصطدمت يدي بفنجان قهوة فوق الطاولة، كان ممتلئًا إلى نصفه، تطفو على سطحه شريحة ليمون!

"شهد" لا تحب القهوة بالليمون، فلا بد أنه يخص رفيقها إذًا.

رفيق التقيته مؤخرًا، يضع عطرًا عربيًا ثقيلًا، ويشرب القهوة بالليمون، ويبدأ اسمه بحرف الشين..

هل يمكن أين يكون "شهاب"؟!

❋❋❋



(٣٨)

ماهر

حلقات مفقودة تفصلني عن الحقيقة الكاملة ويجب أن أعثر عليها.

دون أن أهتم بأخذ موعد مسبق توجهت إلى متجر الأنتيكات، أقبل عليَّ "إدريس" حاملًا غصن الزيتون ببسمة مطمئنة، ونظرة متفهمة. قلت له بعد التحية:

- وما هو دورك في هذه الحكاية؟

فاتسعت ابتسامته، ثم قال:

- أنا صديق مشترك لكل أبطال الحكاية.

طلب مني أن أخبره بكل حرف قالته أمي، فعلت ولم أخفِ عنه شيئًا.

وبدأ في قص حكايته..

- كل ما أعرفه عن والدك أنه عبقري في بلد لا تهتم بأمثاله، لم أكن صديقه بالمعنى الحرفي لكلمة صديق لأن لوالدك طباعًا خاصة كما تعرف، لكنني كنت قريبًا منه بشكل كافٍ ليخبرني بأبحاثه وإنجازاته.

قاطعته لأسأله:

- وعما كانت تدور أبحاثه؟

- لا تتسرع سأخبرك بكل شيء.. هل سمعت من قبل عن "المادة المضادة"؟

لم يترك لي فرصة للإجابة. أجاب بنفسه قائلًا:

- "المادة المضادة" مثل المادة العادية في كل مكوناتها، إلا أن كل شيء فيها معكوس، بدءًا من الشحنات الكهربائية، وانتهاءً بترتيب الجسيمات التي

تُكون المادة. إنها تمامًا كوقوفك أمام المرآة، يدك اليمنى في الحقيقة يقابلها اليسرى في المرآة.

لكن شيئًا واحدًا فقط غير معكوس، وهو الكتلة، يعني أن كتلة الإلكترون المضاد هي نفس كتلة الإلكترون العادي.. والآن أريدك أن تتخيل ماذا يحدث إذا التقت مادة عادية بمادة مضادة؟

للمرة الثانية يسأل ولا يدع لي فرصة للجواب، حكَّ أصبعيه في الهواء قائلًا:

- يختفي كلاهما من الوجود، لكن يتركان خلفهما أثرًا من الطاقة النقية متمثلًا في "أشعة جاما".. التي تسبب أرقًا، وصداعًا، وطنينًا في الأذن من بين أعراض أخرى أشد خطورة.

قاطعته ولم أقوَ على السكوت:

- وما علاقة هذا بحكاية أبي.

ابتسم ابتسامة العارف وسألني:

- ألم تلاحظ اختفاء شيء ما من بلادنا منذ ست سنوات؟

تطلعتُ إليه في حيرة وعقلي عاجز عن التفكير، فأخرج من أحد الأدراج كتابًا صغيرًا فتحه ليريني صفحاته الصفراء الخالية من الحبر. غلبني صمت المفاجأة للحظات ثم هتفتُ:

- هل تقصد اختفاء الحبر من الكتب؟

أومأ برأسه قائلًا:

- نعم، اختفاء الحبر سببه تلك "المادة المضادة".

ثم استطرد:

- كما قلت إذا اصطدمت "المادة المضادة" بالمادة العادية فإنها تبيد بعضها بعضًا، كانت تجري عملية تخليق "المادة المضادة" منذ سنوات طويلة في معامل أمريكية ضخمة بتكاليف باهظة جدًا..

لكن لم يتوصل أحد لكيفية التحكم في "المادة المضادة" بإضافة



التخصيص عليها حتى تتمكن من التصادم مع ذرات محددة دون غيرها.. وهذا ما نجح فيه والدك وبتكلفة أقل وكميات أكبر مما يتم تصنيعه في أي مكان في العالم.

ثم استطرد:

- نجح والدك في تخليق "مادة مضادة" للاصطدام بالحبر دون غيره، لذلك لم يختفِ أي شيء في بلادنا سوى الحبر.

تسربت نتائج أبحاثه إلى جهات عليا بالبلد فداهموا معمله وسرقوا محتواه، وبعد انتحار والدك ظننت أنهم سيطورون أبحاثه وسيذهلون المجتمع العلمي بما توصلوا إليه، لكن بدلًا من ذلك تكتموا على هذه الأبحاث ومارسوا خدعتهم على الشعب كله.

سألته باستهجان كبير:

- ولماذا لا يعرف الناس ذلك؟

فابتسم "إدريس" متهكمًا وقال:

- الناس يميلون لتصديق الأسباب التي ترتبط بمعتقداتهم وأفكارهم وخيالاتهم لذلك يحلوا لهم أن يحصروا الأسباب التي أدت إلى اختفاء الحبر في السحر، ونظرية مؤامرة، وأسلحة فضائية، وعلامات الساعة.. ولأن السبب العلمي بعيد عن نهجهم في التفكير لم يؤمن به إلا القليل.

- ولماذا يقوم أبي بتصنيع تلك المادة الضارة؟

- والدك عالِم وباحث يا "ماهر" وليس سياسيًا، لكل منا دور في هذه الحياة.

شردت عنه أفكر في أبعاد الخدعة التي خضعنا لها جميعًا، ولم يسعني رغم كل شيء إلا أن أعجب بها، خدعة تسع الجميع ويمكن أن نسقط عليها كل المعتقدات، لم يقدم "الحاوي" تفسيرًا، بل ترك لكل واحد منا يرى الخدعة بما يوافق هواه.

سألت "إدريس" وأنا أثق أنه يعرف الجواب:

- وكيف أن الحبر لم يختفِ إلا من بلادنا فحسب؟

بسط راحتيه وأجاب ببساطة:

- حتى هذا كان لأبحاث والدك فضل فيه، استعان بقاعدة علمية تقول بأن الطاقة والكتلة وجهان لعملة واحدة، فأوجد طريقة لتحويل "المادة المضادة" إلى طاقة تُرسل عن طريق شبكات المحمول التي تقع داخل حدود بلادنا فحسب، وعندما تخرج الطاقة من الهاتف برفقة الأشعة الكهرومغناطيسية فإنها تتحول مرة أخرى إلى "مادة مضادة" وتصطدم بالحبر، تاركة تذكارًا لطيفًا من أشعة جاما.

تركني "إدريس" واختفى لوقت طويـل خلــف بــاب يبـــدو أنه يقــود

لطابق سفلي، عاد يحمل بين يديه كتابًا أسود ضخمًا، أصابتني رؤيته بشيء من الرهبة، هل هذا هو الكتاب الذي جن به والدي؟ الكتاب الذي لم يقرأه أحد!

كما قالت أمي، لا يحمل الكتاب أي اسم، تحسستُ غلافه الذي يحمل بصمات أبي ورائحته، وددتُ لو أقرأ ما كان به من أسرار، لكن ما وجدته هو صفحات خالية من كل شيء إلا بصمات الزمن.

فاجأني "إدريس" بقوله:

- الكتاب لم يكن به ولا كلمة واحدة قبل الحادي عشر من فبراير المشؤوم، أي قبل أن يختفي الحبر من الكتب لم يكن في هذا الكتاب ولا كلمة واحدة، فقط سطر واحد في الصفحة الأخيرة، لم تفلح "المادة المضادة" في إخفائه.

أرشدني إلى الصفحة الأخيرة، قرأت فوقها بخط ردئ "الإرث في أمان، استودعته ذريتي من بعدي، أنت حي الآن!".

كنت أظن أن هذا اللقاء سيخفف من وطأة الأسئلة في رأسي فإذ به يلقي على كتفي المزيد منها.

قال "إدريس" يكشف لي المزيد:

- آمنت دائمًا أن هذا الإرث الذي تحدَّث عنه والدك، هو طريقة لإعادة



الحبر إلى الكتب مرة أخرى، لا يمكن أن يكون قد خلق داء بلا دواء، إن كان أحد على ظهر الأرض بإمكانه عكس عملية اختفاء الحبر فهو والدك يا "ماهر".

ثم أضاف بحماس كبير:

- بإمكانك أن تنقذ أختك، وكل الضحايا الذين عاقبهم "مجلس الوِصاية".

سألته بشك:

- كيف؟

فأجاب بيقين:

- إذا توصلنا إلى إرث والدك سنعيد الحبر إلى الكتب مرة أخرى، وعندها لن يجد "مجلس الوِصاية" مبررًا يسوغ له عقاب الناس بزرع "شريحة الأحلام" في رؤوسهم.. سينتهي العقاب للأبد يا "ماهر".

صمتّ طويلًا ثم قلت والحيرة تعبث برأسي:

- وأين هو هذا الإرث؟

قال "إدريس" بأسى نطقت به قسماته:

- هذا هو اللغز الذي لم أجد له حلًا طيلة السنوات الماضية، أين هو؟

***

لساعات لا أعرف عددها تجولتُ سيرًا في الشوارع بغير هدف، وكأنني سأجد في هذا الضياع بغيتي، ساقتني قدماي إلى بيت أمي، أو ساقني إليها الحنين.

توقعت أن أرى السعادة تشع من وجهها لرؤيتي، لكن القلق حل محل السعادة، ورأيت في عينيها أثر للبكاء. ما إن دخلت حجرة المعيشة حتى وقعت أنظاري على ثلاثة أكواب فارغة تتوسط مقعد "أروى"، ومقعد "آسية". وعلى وجه كلتيهما بقايا بكاء تمامًا كوجه أمي.

جُلت بأنظاري في ثلاثتهم، أنتظر توضيحًا فلم أجد، تفسيرًا فلم أجد، فقط وجوهًا مشحونة بالتوتر و... الغموض!

حمل صوت أمي من الارتباك الكثير، تُنقل أنظارها بين وجهي ووجه "آسية" طوال عشر دقائق هي وقت انضمامي لصحبتهن. نهضت للانصراف وقد لاحظت أن "آسية" لم تنطق بكلمة واحدة، أما "أروى" أختي الصغيرة التي تربت على يدي والتي أعرفها جيدًا كانت عينها ترسل لي رسائل مشفرة، تريدني أن أفهمها وفي الوقت نفسه ألا أفهمها!

وضحت الرؤية يا "ماهر"، جميع من حولك وضعوك داخل أحجية وكل منهم يخفي عنك قطعة من الحل، جزءًا من المفتاح، وعليك أن تجمع هذه الأجزاء بنفسك.





(٣٩)

آسية

لم تحضر "شهد" إلى الشركة بالأمس ولم تجب على اتصالاتي، اليوم وجدتها تنتظرني في الشركة بعد أن أوصلني إليها خالي "إدريس"، لم أخبره بما حدث، كنت أثق أنه سيقيم الدنيا ولن يقعدها فهو لا يتساهل في مثل هذه الأمور، وكان يجب أن أتأكد أولًا، لا أستطيع أن أكتفي بما لدي من أدلة باهتة.

عندما دخلت مكتبي أغلقت بابه علينا وواجهتها، أنكرت بشدة أنها كانت بصحبة رجل في غرفة مكتبي، حاولت تصديقها وطرد كل ما يجول برأسي من شكوك، هل يمكن أن تكون حواسي قد خدعتني كما تحاول "شهد" أن تقنعني؟ لو كانت عيناي تقومان بعملها لقطعت بهما كل الشك ولما بقى إلا اليقين.

أثارت اتهاماتي استياء "شهد" فانفعلتْ وغادرتْ الشركة في غضب. قضيت ثلاث ساعات من التفكير ومحاولة الإجابة على هذا السؤال، إلى أي مدى يمكنني أن أثق بحواسي التي ليست من بينها حاسة الإبصار؟ بعد تلك الساعات من العصف الذهني اختلطت الشكوك باليقين حتى أصبحت غير قادرة على التمييز بينهما.

عندما أتى خالي "إدريس" إلى الشركة في منتصف اليوم طلبت منه أن أذهب إلى بيت "شهد"، وغطيت غيابها بحجة المرض. تركني أمام شقتها بعدما فتحت لي أمها الباب وتأكد خالي من أنني بأمان، وقد اتفقنا على أن يأتي ليأخذني بعد ساعتين.

أحضرت معي هدية صغيرة لأم "شهد"، استقبلتني ببشاشة كما تفعل في كل مرة، عانقتني بقوة، فألقت عليّ من الحنان ما تهفو إليه روحي، كانت كريمة في كل شيء، في إطعامي، في ملاطفتي، في تمرير أصابعها بين خصلات

شعري، وكلما خاطبتني بابنتي اكتست عيناي بعبرات امتنان.

الطفلة التي أتت إلى الحياة في اللحظة التي غادرتها أمها لا زالت تشتاق لرائحة الأمهات.

خلت الشرفة إلا من صديقتين تجمعهما ذكريات كثيرة. أمسكتُ قفصًا كبيرًا يجمع زوجًا من العصافير، داعبت جسديهما بأصابعي فخافاني وضربا بجناحيهما بعنف في أرجاء القفص، فأخرجت يدي سريعًا شفقة بهما.

- لا يحبانك، لقد نسياكِ.

تغير صوتك كثيرًا يا "شهد". فاض بقسوة صارت تؤلمني يا صديقتي، جلست أمامها وقلت:

- صارا الآن لكِ وأنتِ من يطعمهما ويسقيهما، لذلك سيحبانك أنتِ.

وفي اللحظة التي بدأتُ فيها الحديث لأخبرها أنني أصدقها وأكذب نفسي، صفعتني هي بقولها أنني كنت على حق، لقد كانت برفقة أحدهم، لم يغضبني اعترافها بقدر ما أغضبني وقاحته! وما إن سألتها عن هويته متوقعة منها الإنكار حتى صفعتني للمرة الثانية:

- "ماهر".

هل أصدقها؟ ولماذا تكذب؟ أعجزني الألم عن التفكير، لا أعرف أيهما أشد قسوة، أن يكون ما قالته صدقًا أم كذبًا.

- "شهد" ابتعدي عن "ماهر" لا أريدك أن تتألمي.

هل كانت النصيحة من أجلها أم من أجل نفسي؟ وقبل أن يجيب عقلي

على السؤال، انفجرت القنبلة وتهدم عالمي الذي أعرف، اخترق جسدي شظاياها، وكلماتها تمزق روحي بحدة شفرة السكين:

- من التي ستتألم؟ أنا؟ "آسية" هل تسمعين ما تقولين أم أنكِ أصبتِ بالصمم أيضًا.. من أنت؟ أنت لست سوى فتاة عاجزة تعيش في عالم الأوهام.



أفزعتني كلماتها وانعقد لساني، استطردتْ بحقد دفين:

- جميع من حولك يساعدونكِ على البقاء داخل عالمكِ الوهمي، لكن أنا واثقة أنكِ تخدعين نفسكِ بالقدر الذي يخدعكِ به الآخرين.. "آسية" الناجحة، "آسية" قاهرة الصعاب، "آسية" صانعة المعجزات، "آسية" التي تُعلّم طلابها العميان الهراء، "آسية" التي تظن أنها مركز الكون والعالم كله يدور من حولها.

سكنتْ برهة ثم هدرتْ:

- "آسية" العمياء التي لا تستطيع أن تختار ملابسها بنفسها.

كانت تعرف أنني أفعل ذلك بنفسي، كانت تعرف أنني أميز كل قطعة من ملابسي بنوع القماش وبما يُحاك فيه من سحاب وأزرار، كانت تعرف ولكنها أصرت على الذهاب إلى النهاية في طريق إهانتي وإشعاري بالعجز.

قفزتُ من مقعدي والعبرات تغشى عيني التي غشيتها من قبل إرادة ربي، ارتعدتْ أطرافي وقلت بحرجٍ كبير وأنا ألفت انتباهها إلى أننا واقفتان في الشرفة:

- الناس.. سيسمعون.

فصاحت بصوت أعلى وكأنها تعاندني:

- وماذا في ذلك؟ الجميع يعرف أن العميان يتطفلون على الأصحاء من حولهم طوال الوقت، الجميع يعرف أن الأعمى لا يعيش بدون رفقة تمامًا كالأطفال.

أغرقت العبرات وجهي، وارتعد صوتي وأنا أهمس بألم:

- "شهد" لماذا تقولين ذلك؟ حسبتكِ صديقتي.

دخلت أمها لتنهرها، تحاول إسكاتها، لم تستجب لها "شهد" ودفعت كتفي بقوة وهي تصيح:

- لست صديقتك يا "آسية". لست صديقتك أبدًا، وظفني خالك واستمر في دفع مرتب شهري كبير لسنوات، فقط لأكون عصاكِ أو كلبكِ.

هرولت مبتعدة عن الخنجر الذي شق قلبي، ارتطم جبيني بقوة في الجدار، ثم كتفي في جدار آخر، فتحتُ الباب وأنا أتجاهل نداء أمها، وصوت زجاج يتهشم بعد أن اصطدمت بقوة في الطاولة. نزلتُ مسرعة أتمسك في الحائط بكفين مرتعشين، انزلقت قدماي مرة، ودموعي ألف مرة، خرجتُ من البناية تتردد في أذني كلمات "شهد" المُرة مرارة العلقم:

- لن تجدي أبدًا حذاءً زجاجيًا بمقاس قدميكِ يا "آسية".

الصديق الذي ينقلب إلى عدو يكون أكثر خطورة من ألد أعدائنا، لأنه يعرف جيدًا كيف يدمرنا. تخبطتُ في المارة وأنا أحتضن حقيبة يدي، أضمها إلى صدري بقوة وكأنني أحتمي بها، لكنها لم تكن كافية لتحميني من السقوط أرضًا، سمعتُ أصواتًا كثيرة تمر بي بشكل عابر، لا تقف عندي سوى لحظة ثم تمضي في طريقها وكأنني والعدم سواء!

- ما بكِ؟!

مسَّ كتفي يد نفضتها عني، تحاملت على نفسي لأقف على قدمي من جديد، فقال الصوت وكان لرجل:

- تعالي يا ابنتي أوصلكِ إلى بيتك، سيارتي على بُعد خطوات.

غاب عني صفاء التفكير، كل ما أردته هو أن أعود في الحال إلى بيتي وأغلق عليّ بابه بألف مفتاح، ساقني إلى سيارته وفتح لي الباب، اتخذت مكاني، وقبل أن ينطلق بالسيارة سمعت صوت أم "شهد" تنادي بجزع، فارتج جسدي ببكاء مختنق، أخفيت وجهي بين راحتي وسددت أذان قلبي عن اللهفة في النداء.

***

آلاف العيون تثقب الكون من حولي وترميني بشررها، أتلفَّت ذات اليمين وذات الشمال لكن لا مهرب منها، تطوقني كحصار الجيوش لقلعة عدو، القلعة تنهار والجيوش تتقدم في انتصار.. أيا عيون عقلي فلتحجبي عن الكون بصرك كعيون جسدي الميتة، احذري أن يصيبك أنتِ أيضًا شظايا الحلم المهشم، وينسكب في بؤبؤيكِ الظلام.



ارتد إليّ بعض من صفاء التفكير، إلى أين يأخذني هذا الرجل أنا لم أخبره عن وجهتي قط؟! تحفّز جسدي بشدة، فتحت حقيبتي وتمسكت بهاتفي الصغير في راحتي.. سألته عن وجهته بصوت فضح خوفي، فأجابني بصوت يتقطر منه كل شيء إلا مرادفات الأمان:

- لا تقلقي، أنا مثل والدكِ.

أتبع كلماته بلمسة لكف يدي فانتفضت وأمرته بالتوقف على جانب الطريق، أجابني بالصمت فازداد فزعي وعلا صراخي، أطبق بكفه فوق فمي فأكلت لحمها بين أسناني يحركني الفزع، لطم وجهي مرتين ثم اغتصب الحقيبة من يدي، وقبل أن تتوقف السيارة تمامًا فتح بابها، ومنها دفعني.

اصطدم وجهي بالأرض للمرة الثانية بعد دقائق فحسب من مرته الأولى، زحفت على يدي بمذلة لم أشعر بها يومًا حتى وصلت إلى رصيف سحبت جسدي للجلوس فوقه، شعرت بسخونة سائل لزج يتساقط من جرحٍ بجبهتي، لم أهتم بإزالته، هممت بالاتصال بخالي "إدريس" لأكتشف نفاد رصيد المال من هاتفي، ورصيد الأمان من روحي.

طوّقت جسدي المرتجف بذراعين أكثر ارتجافًا.. وانتظرت أن يتذكّرني أحد.

***

(٤٠)
ماهر

أطلقتُ زفرة ضيق وأنا أنظر إلى الشخص الوحيد الذي أوليه ثقتي كاملة، قال "شريف" بعدما استمع إلى حديثي بغير مقاطعه:

- ولماذا تظن أن الجميع يخفون عنك شيئًا؟

انحنيت للأمام ونظرت في عينيه قائلًا:

- كما قلت لك يا "شريف" هي مجرد شكوك، لكنها شكوك قوية لا يمكن الاستهانة بها.

أطرق ثم قال بعد تفكير:

- أرى أن "إدريس" هذا لا يشكل خطرًا عليك، بالعكس الرجل أزال الكثير من الغموض عن حياتك بتفاصيل لم تكن تعلم عنها أي شيء، وهو لم يسعَ إليك بل تدابير الله جمعتكما معًا، قلت لي أنه أعطاك الكتاب، أليس كذلك؟

- نعم أعطاني إياه.

- وهل اكتشفت مكان هذا الإرث؟

قلت محتدًا:

- كلا بالطبع، أين سأجده يا "شريف" وليس معي أي شيء يرشدني إليه؟!

أطرق ثانية ثم قال:

- إذا أردت رأيي يا صديقي فأظن أن الإرث مع أمك، أو على الأقل تعرف أين تجده.

هززت رأسي قائلًا بشرود:



- أنا أيضًا أظن ذلك، إنها تخفي عني شيئًا.

نهضت من مكاني وتوجهت نحو النافذة وقلت:

- أشعر أن هناك شيئًا خاطئًا، شيئًا ليس في موضعه الصحيح، وكأن الحكاية كلها لعبة بازل مرتبة بشكل خاطئ.

ثم التفت إليه وأضفت:

- ثم إن هناك "الحاوي" أيضًا.

هتف "شريف" بدهشة:

- "الحاوي"؟!

فقصصتُ عليه ما حدث في لقائي به بالأمس...

***

(قبل يوم)..

تشاركتُ المصعد مع جاري "الحاوي" إلى الطابق الذي يضم شقتينا ثم دعاني للدخول، كنت بحاجة للاسترخاء بعيدًا عن بيتي فقبلت دعوته شاكرًا، خلع قبعته ووضعها فوق الطاولة فعادت صلعته لتذكرني بآدميته، طلب من زوجته أن تأتي لنا بكوبين من العصير الذي قام بإعداده بوصفة خاصة ووعدني أنها ستروق لي كثيرًا. وما كدت أجلس فوق أحد المقاعد حتى صاح بفزع:

- احذر ستجلس فوق "مظلومة".

ولم تكن "مظلومة" سوى سلحفاة بنصف حجم كف اليد، فاتخذت من مقعدها مقعدًا لي، ومنحتها يديّ عنه بديلًا، فتقبلت يدي بفتور وهي تحجب عني رأسها، أشار "الحاوي" إلى صَدفتها وقال:

- إنها لا تنسجم كثيرًا مع الغرباء، امنحها بعض الوقت وسوف تعتاد عليك.

ولم يكن يهمني في الحقيقة إن اعتادت عليّ "مظلومة" أم لم تعتد، فآخر اهتماماتي في هذه اللحظة أن أفوز بحبها.

لسبب ما كان ملمسها مثيرًا لاهتمامي، فأخذت أستكشف الخطوط المرسومة فوق صدفتها بعيني وبناني. وضعت زوجته المشروب أمامنا، وصَحنًا من الكعك المنزلي، عبأ الهواء برائحته فذكرتني بآخر كعك منزلي رأيته، قبل سنوات عندما كان الكعك يختمر بأنفاس جدتي، ثم تحرمني من أكله وتحبسني في خُنّ الدجاج.

كان شاردًا مهمومًا وكأنه رجل آخر غير "الحاوي" الذي أراه كل يوم خارج هذه الجدران، باغته بالسؤال:

- أخبرني، ما هو أكثر ما تعتمد عليه في خدعك؟

عندها عاد الشغف إلى عينيه، برقتا بشدة وهو يقول:

- القناعات، أكثر شيء أعتمد عليه هو قناعات الناس، الناس لا تبحث عن الحقيقة مهما تظاهروا بأنهم يفعلون، إنهم فقط يبحثون عما يوافق قناعاتهم المسبقة ويُصدق عليها.

ثم استطرد وابتسامته تحتل من وجهه الكثير:

- من السهل أن تتحدث عن العنكبوت كما لو كان حشرة، لكن من سيصدقك فورًا إن قلت أن العنكبوت حيوان صغير وليس بحشرة؟ كم منهم سيتوقف للبحث؟ إما القليل أو لا أحد.. سيثق كل منهم بقناعاته عن العنكبوت على الرغم من أنهم لا يعرفون من أين أتت هذه القناعات واستقرت برؤوسهم، وهنا يأتي دوري فأستغل هذه القناعات الشائعة في نسج خدعتي دون أن يكتشفها أحد.

كنت محقًا في مجيئي، أخرجني حديثه لبعض الوقت من التفكير في دهاليز حياتي الشائكة، أخذت رشفة من العصير الأزرق طيب المذاق، وإن كنت لا أعرف من أي خليط من الفاكهة صُنع، وهل يوجد فاكهة زرقاء؟! بينما كانت أصابع يدي الأخرى تُداعب صدفة "مظلومة".. تذكرت خدعته الأخيرة فسألته بفضول غلبني:

- ها تذكرت.. لعبة الورق في الحديقة، لعبة قراءة الأفكار. ما سرها؟



كان لنظرات عينيه معنى واحد، فبادلته الابتسام وأخرجت من جيبي ورقة بفئة المائة جنية، وضعتها فوق الطاولة، ثم استرخيت في المقعد أنتظر المقابل.

أخرج من جيب معطفه الأسود مجموعة من ورق اللعب، ثم توقف عند ورقة "الآس بستوني". وضعها فوق ورقة أخرى وقربها مني، فرأيتُ بوضوح أن حجم ورقة " الآس بستوني" تصغرها ببضع ملليمرات طوليًا من كل جهة، ثم وضعها مرة أخرى في منتصف مجموعة الورق، فأصبحت الورقة مميزة لعينيه من بين المجموعة لأنها أقل منهم في الحجم بقدر بسيط، أوهمني أنه توقف عند الورقة بشكل عشوائي، أراني إياها وكان ظهر الورقة له، أوهمني أنه يتلو تعويذة يحاول بها أن يرى أفكاري ويعريها من حجابها، ثم وضع الأوراق بين سبابته وإبهامه وبهزة واحدة سقطت ورقة "الآس بستوني" فوق الطاولة.

الورقة الوحيدة التي رأيتها...

والورقة الوحيدة التي لا تلامس سبابته وإبهامه..

هكذا إذًا!!

حوَّلت نظري من وجهه إلى المائة جنية التي لا تزال فوق الطاولة، هذا "الحاوي" يكسب من كشف الخدع أكثر مما يكسب من عرضها على الناس! سألته فجأة:

- لماذا أسميتها "مظلومة"؟ اسم غريب لسلحفاة.

ضحك ملء فمه، لكنها ضحكة بغير مرح، ثم قال:

- لأنها متهمة دائمة بأنها الأبطأ، رغم أن الحلزون هو الذي يستحق هذا اللقب.

شعرت كما لو كانت كل كلمة ينطق بها، تحمل بداخلها ألف معنى. نهضت لأنصرف. عند الباب استدرت لأسأله:

- لماذا ينضم "حاوي" مثلك إلى "رابطة الدم"؟ هل ستخبرني أنت أيضًا عن القضية التي سخَّرت دماءك من أجلها؟

لاح بعينيه دون شفتيه بسمة ساخرة، ثم صدمني بقوله:

- أنا لم أمنح أحدًا قطرة واحدة من دمي، أنا لم أنضم لتلك الرابطة قط!

***

نظرتُ إلى "شريف" الذي يستمع إليّ بإنصات، قلتُ:

- كما ترى، "الحاوي" معاقب بـ"شريحة الأحلام" لكنه لم ينضم لـ"رابطة الدم"، و"إدريس" يؤكد أن المنضمين للرابطة هم فقط من يقع عليهم عقاب "مجلس الوِصاية"، ألا ترى معي أن هذا غريب بعض الشيء؟

لكن "شريف" عارضني بقوله:

- لماذا يا "ماهر" تصدق رجلًا عمله هو خداع الآخرين؟ ثم من الطبيعي أن ينكر ذلك، لا أحد يعترف أنه استحق العقاب.

مسحت وجهي أنفض عنه التفكير ثم قلت معتذرًا:

- لا تؤاخذني يا "شريف" أشغلك معي بتوافه حياتي بينما أنت لديك مشاكل حقيقية تكفيك.

ضحك قائلًا بمرح:

- ماذا أقول، أنت مُتعب يا صديقي.

بادلته ابتسامة جمدها على وجهي دخول "نيفين" تخبرني بزائر يود مقابلتي.

- "شهاب"!

نطقتُ اسمه باستنكار وأنا أتبادل النظرات مع "شريف"، أشرت لها بالموافقة، دخل وعلى شفتيه ابتسامة كالحة ونظرة خبيثة دفعتني لأن أظل جالسًا في مكاني واكتفيت بقول:

- خير يا باشمهندس؟



تظاهرتُ بالانشغال بحاسوبي، فاتخذ بغير دعوة مجلسه فوق المقعد المواجه لـ"شريف". طلب الحديث معي على انفراد، فمنحته أثلج ابتساماتي وأخبرته أنني لا أخفي سرًا عن صديقي وأخي. فوضع أمامي حقيبة كان يحملها وقال بغرور وهو يضع ساقًا فوق الأخرى:

- علمت أنك مطارد من قِبل أحد الدائنين، هاك المال كاملًا سدد به دينك يا "ماهر".

انتفخت عروقي بدماء الغضب وصرخت بجنون:

- هل تتصدق عليّ؟!

بابتسامة لا تخلو من الاستهزاء، ونظرة تنضح بالتشفي قال:

- كلا، بل أنقل الدين إليّ، وبإمكانك توقيع وصل أمانة إلكتروني بهذا المبلغ، ثم تسدد لي عندما تتحسن أوضاعك، ففي النهاية نحن أقرباء.

كم يحب هذا الوقح أن يكون دائمًا صاحب اليد العليا! بلغ الغضب مني ذروته، انتفضتُ واقفًا وأنا أصيح به أن يخرج من مكتبي مُحمَّلًا بشفقته وصدقته، فوقف يجابهني بنظرات متحدية، وقسمات تنطق بالسعادة لإذلالي، حمل الحقيبة دون كلمة وأولاني ظهره فصحتُ به:

- من الذي أخبرك بوضعي المالي؟ "آسية"؟

لم يكلف نفسه عناء الرد، أكمل سيره وغادر المكتب صافعًا الباب خلفه بعنف اهتزت له الجدران.

أمسكت بأحد الأغراض فوق المكتب لم أتبين تمامًا ما هو، ثم ألقيته بعزم طاقتي نحو الجدار، فسقط تمامًا في منتصف مصباح الحائط ليتهشم بصوت أفزع "نيفين" ودفعها لاقتحام المكتب. أرى شَفتي "شريف" تتحدثان بالكثير لكن لم أعِ حرفًا مما يقول، التقطتُ هاتفي وأنا في ثورة غضبي، أجريتُ اتصالًا وكل ذرة في جسدي تحتج طلبًا للهدوء، ما إن أتاني صوت "آسية" حتى صحت بها وأنا ألكم المكتب بقبضتي:

- ماذا قلتِ لـ"شهاب"؟ كيف تسمحين لنفسك بالتدخل في أموري الخاصة؟

أتاني صوت مُختنق بعيد كل البعد عن صفاء صوتها:

- "ماهر" أنا في حاجة إليك.

***

هتَكَ الخوف حجاب قلبي وأنا أراها في هذه الحالة المزرية، أغلقت باب السيارة وهرولت نحوها، هتفت باسمها فرفعت لي وجهًا يختلط فيه التراب بالدموع، بالدماء، محاطًا بغطاء رأس غير محكم يكشف عن منابت شعرها، طلبت مني بنحيب مكتوم أن أتصل بخالها "إدريس"، فعلتُ وأخبرته بمكانها ثم طمأنت الرجل الذي كاد يجن على الهاتف.

اتخذتُ مجلسًا بجوارها على الرصيف، احترت في معرفة السبب الذي أوصلها لهذه الحالة، سألتها كثيرًا لكن لا مجيب، فانتظرتُ أن تنتهي نوبة البكاء.

ألقيتُ نظرة على الشارع المزدحم بالمارة والسيارات، وتذكرتُ كيف أخبرتني على الهاتف أنها لم تعرف مكانها إلا من خلال الـGPS الناطق بهاتفها، تجعد جبيني لبرهة، ثم عدتُ لأراقب وجهها مرة أخرى.

سكنَتْ أخيرًا، كانت قد فقدت نظارتها فرأيتُ احمرار مقلتيها أكثر من المرات الفائتة، ودون أن أطلب منها الحديث، قالت الكثير، انتقلت بعشوائية من تفصيلة إلى أخرى، ومن ألم إلى آخر.

وعندما تمتمتُ بخفوت:

- كنت أشعر بذلك.

سألتني عن معنى عبارتي ففسرتُ لها:

- أن "شهد" ليست كما تبدو لكِ.

- أنا لم أشعر بذلك قط.

قلتُ بعد لحظة تردد:

- أتذكرين اليوم الذي حضرتِ فيه إلى الاجتماع ومعكِ القرص الصلب.



من الذي اختار ملابسك يومها؟

قالت بحيرة:

- اعتدنا على أن نتبادل قطعًا من ملابسنا، وما كُنت أرتديه في هذا اليوم كان لـ"شهد"، وصفته لي وأعجبني.

- كانت ملابسكِ بألوان مبهرجة جدًا ولا تمت إلى الذوق بصلة.

كانت واجمة، وكنتُ آسفًا، فالوجوم حُزن يُسكت صاحبه، والأسف حزن مُتوَّج بالغضب. رأيتُ عزمها مقترنًا بعجزها، ففهمتُ أن الحياة لا تحتاج إلى أناس خارقين لتجاوزها، كلنا لدينا مواطن قوة وثغرات ضعف، تكون الغلبة لإحداهما حينًا ثم تتفوق عليها الأخرى أحايين أخرى.

لذلك نحتاج إلى إنسان قريب نُعري ضعفنا أمامه، وننزع الحجاب عن مخاوفنا، نحتاج لأن نتحدث عن عجزنا وقهرنا وألمنا مع شخص يجيد فن الإنصات، لكن المأساة هي أن الجميع يريد أن يتحدث، ولا أحد يريد أن يسمع.

بدت وكأنها تعقد محاكمة بداخلها كتلك التي أتلذذ بتخيلها، وفيما كنت أنتظر إصدار الحكم على "شهد"، قالت بصوت خفيض:

- لكنها محقة في الكثير، أدركت اليوم ما كان غائبًا عن تفكيري أو ما كنت أتجاهله، أنا لا أستطيع أن أعيش حياة طبيعية أبدًا، أنا ضائعة خارج أسوار عالمي الصغير، لا أملك الأمان إلا بداخله فقط، أما خارجه فأنا في خطر.

تقطَّر الألم من صوتها وهي تقول:

- لو لم تتصل أنت لما ساعدني أحد، الناس تمر من حولي ولا تراني.

كُنت أرى قوتها تكمن في أن لديها ذكاء اجتماعي في التعامل مع الآخرين، كانت تحمل من معاني اسمها الكثير، "آسية" الطبيبة المواسية، لعل هذا ما يجذبني إليها؛ فالإنسان يستهويه في الآخرين ما يُشبع نقصه في نفسه. قلتُ بمرارة غلبتني:

- على الأقل أنتِ لديكِ عالمًا صغيرًا تستطيعين العيش داخله بأمان، أما

أنا فليس عندي عالم يسعني، لا أشعر بالأمان في أي مكان.. الجميع تائهون عندما يواجهون ما يجهلون، أما أنا فتائه في مواجهة ما أجهله وما أعرفه.

أكملتْ كلامها وكأنها لم تسمعني:

- أنا لا أستطيع أن أعيش بمفردي، أحتاج دائمًا إلى مرافق كما يحتاج الطفل إلى جليس، أحتاج إلى دليل.

قاطعتها بحزم:

- أنا أيضًا أحتاج إلى دليل، لا ليرشدني لموضع قدمي من الطريق بل ليرشدني إلى موضع نفسي من الحياة بأسرها.. في الملاكمة هناك تدريب يسمى "قتال الظل"، وهو أن نتخيَّل خصمًا وهميًا ومعركة تجمعنا، أنا أشعر وكأن حياتي كلها ما هي إلا "قتال الظل".

تجوَّلتْ غُصص الهموم بحلقي وأنا أقول:

- لا أعرف لماذا أنا على قيد الحياة، لا أعرف الفارق بين وجودي فوق الأرض أو في باطنها، لا أعرف كيف أريد للمستقبل أن يكون.

رميتُ بعيوني نحو الأفق. قلتُ:

- ليتني أستطيع أن أحلم.

- أنت تخاف من الأحلام.

لم أعرف إن كان سؤالًا أم إقرارًا.. عُدت إليها بوجهي وهززتُ رأسي إيجابًا، أعلم أنها لن ترى إشارتي، لكنها لا تحتاج إليها على كل حال.

استقرتْ أنظاري على تمزُّق في ملابسها، عرَّى جزءًا صغيرًا من ذراعها، فصببتُ على رأس السائق الحقير ألعن اللعنات، نزعتُ عني معطفي وأرحته فوق يديها، رفضته في إصرار أثار استيائي، أخبرتها بما كان في ملابسها من تمزق؛ فتقبلته مني في حرج. وما تعجبت له من أمر نفسي أنني تمنيت لو يتأخر "إدريس" أكثر، نظرتُ إلى المسافة التي تفصل بيننا على الرصيف وتمنيتُ لو تضيق أكثر، انتبهتُ إلى نفسي فنفضتُ عني هذا الخاطر.



حاولتُ تبديد الجو الكئيب الذي خيّم علينا. فقلتُ بمرح:

- أتعلمين وأنا صغير تظاهرتُ مرة بأنني أعمى، هل أقص عليكِ القصة؟

اكتفت بهزة من رأسها. فقلتُ:

- لي عم كان يعيش في الخارج اسمه "مالك" لديه ابنة في مثل عمري اسمها "عنبر"، لم أكن قد رأيتها من قبل، جاءت مع والدها لزيارتنا للمرة الأولى، كنت شيطانًا صغيرًا كما كانت تقول أمي، نظرت من الشرفة فإذ بفتاة وديعة تتشبث بيد أبيها، فخطر لي أن أصنع فيها خدعة، ارتديت نظارة والدي وما إن دخلت البيت حتى توجهت إلى الفتاة لأعانقها وأنا أهتف عمي الحبيب.. ضحك الجميع إلا الفتاة التي ظنت بالفعل أنني لا أرى، ظلت تبعدني عنها وتصيح "أنا لست عمك أنا فتاة".. وأنا أصر على أنها عمي وأقول "لكن هذا هو صوت عمي لماذا تبعدني عنك يا عمي، اشتقت إليك كثيرًا يا عمي".. وما إن ضحكت الفتاة حتى خلعت نظارتي وكشفت خدعتي.

ارتجف قلبي لمرأى ابتسامة "آسية". حلَّق سرب النمش عاليًا وسرق معه تفكيري، وكأنني لمسته يومًا ما. لماذا أشعر بالرغبة في أن أحيطها بذراعين أعانقها، أو أنني سبق وأن عانقتها!.. فجأة ضاق صدري واختنقتْ أنفاسي وأنا أتشبث بكلتا يديّ بالرصيف، لم أجبها عندما سألتني بفزع عما ألمَّ بي، نهضتُ أعبئ صدري بالهواء، ويدي تضرب ضلوعي لتكف عن سحقي..

من جديد يملأ الخوف من "آسية" صدري حد الاختناق، لكن هذه المرة عرفتُ السبب!

جاء "إدريس"، أخذها وافترق طريقانا.. مؤقتًا.



(٤١)

الكتاب الذي لم يقرأه أحد!

- عرفت اسمك.. عرفت اسمك!

لم أدخل معملًا من قبل، وما إن غيَّر صديقي البشري مجلسي من مكتبه في بيته الصغير إلى هذا المعمل الفسيح حتى انتابني حماس مَحبرة تَخُط أولى الكلمات.

كان كل شيء يميل للون الأبيض، بأجهزة معقدة أتعرف عليها للمرة الأولى، أتاني بالكثير من الكتب لتكون رفيقة سمر في الوقت الذي ينشغل فيه صديقي بأبحاثه وتجاربه.

أقبل صديقي البشري نحوي يهتف بأنه تعرَّف على اسمي الذي لم أبوح له به قط، كان هذا هو السر الوحيد الذي حافظت عليه منذ اليوم الأول الذي مستني فيه أنامله، لعل السبب هو غرور كتاب قديم، يُريد أن يشعر بأهميته كل حين، ويود أن يبذل قارئه الجهد والوقت من أجله. ما إن أخبرني بذلك حتى أطلَّ الشوق من صفحاتي، هل عرفه أخيرًا؟

قال بشغفه الذي لا يفارقه:

- أنت لست فقط كتابًا لم يقرأه أحد.. بل ترجمة لمخطوطة لم يقرأها أحد.. "مخطوطة فوينيتش".

عندئذ استحق صديقي البشري من نفسي موضع تقدير واحترام عظيم، تركته يستكمل شرحه في حماس ولم أقاطعه:

- كُتبت "مخطوطة فوينيتش" بلغة غريبة معقدة لا يعرفها أحد، وسُميت باسم بائع الكُتب الذي امتلكها، لا أحد يعرف من هو كاتب المخطوطة الحقيقي، ولا كيفية فك شفرات حروفها التي لا تُطابق أي أبجدية



معروفة، والمخطوطة الأصلية موجودة الآن بمكتبة "بينيك" بجامعة "يال" بالولايات المتحدة..

المخطوطة من خلال الرسومات التي تحتويها مقسمة إلى عدة أقسام تشمل الصيدلة والفلك والأحياء والأعشاب، وما زال هناك الكثير مما نجهله عنها.

جذب مقعدًا وجلس أمامي يهتف بملء شدقيه:

- قلت لي أن سيدك "بهاء الدين" خطّ كلماتك الأولى في عهد الحروب الصليبية، وكما دفعتني أنت لقراءة التاريخ عرفتُ كيف أن العرب كانوا من أوائل من استخدموا "علم التعمية"، أي علم قراءة الرسائل المشفرة، كان تقدم علماء العرب في علم الرياضيات سبب تقدمهم في علم التعمية، ومن أشهرهم "يعقوب بن إسحاق الكندي" الذي كتب "علم استخراج المعمي"، و"النبطي" مكتشف رموز اللغة الهيروغليفية.

ثم استطرد وكأنه يبوح بسر خطير:

- لذلك استطاع سيدك فك رموز اللغة القديمة المشفرة التي كُتبت بها المخطوطة، وصاغها بلغة عربية.. فظهرت أنت إلى الوجود.

لكنه لم يكتفِ بفك شفرة المخطوطة، بل أضاف لها خلاصة أبحاثه في عدة مواضع، فكما تعرف أن في هذه العصور الذهبية كان العرب يهتمون بترجمة العلوم من مختلف بقاع الأرض، وبرعوا فيها جميعًا، ثم وجدتك أنت بعد كل هذه القرون لأكمل ما بدأه سيدك.

صحتُ بغبطة حقيقية، وبفخر لما توصل إليه صديقي:

- الآن فهمتني كما لم تفهمني من قبل.. الآن عرفت ما أريد أن أعلمك

إياه، أليس كذلك؟

أومأ برأسه وقال بقوة:

- نعم فهمت، أنت حاولت أن تعلمني أن السلم بناؤه ليس حكرًا على أحد، بإمكان أي منا أن يضيف درجة إلى درجات من سبقه، والأهم أن هذا السلم ليس له نهاية، سيرتفع طالما العالم ينضح بأنفاسنا، لذلك

كنت تدفعني إلى قراءة تاريخ أجدادي، وإنجازاتهم في كل مجال، كنت تحاول أن تنزع عني الشعور بالدونية الذي زرعته فينا أحوال بلادنا، كنت تريدني أن أنظر إلى تقدم الغرب بنظرة أخرى، بنظرة الند..

تمنيتُ مرة لو تتكسَّر كل الدرجات التي لم يضعها بنو جنسي أو أشقاء العقيدة، لكن لو كل منا فكر في أن يفعل ذلك لاختل السلم ولسقطنا جميعًا..

وضع أجدادي أسس البحث العلمي الذي بنى عليه الغرب علومهم فخرجوا من الظلام حاملين مشاعل النور، الآن أصبح بإمكاني أن أحلم، وأن أقاوم كل الحشرات التي تعيش على امتصاص أحلام الآخرين، لن يستطيع أحد أن يحرمني ثانية من الأحلام.. أبدًا.





(٤٢)

ماهر

يجب أن أعرف ترتيب الصور.. لابد أن لعقلي طريقة محددة لأرشفة الذكريات.. ويجب أن أكتشفها.

التقطتُ من داخل رأسي صورة لأبي في معمله، وأنا أراقبه بانتباه شديد كما اعتدتُ أن أفعل، بيده "تالا" قطة أمي المفضلة.. كان لها شعر أبيض غزير قبل أن يحلقه أبي بالكامل، وشَمَ جسدها بحروف غير مفهومة، سألته عن معناها فابتسم ولم يخبرني..

ثم أخفى الوشم بسائل حقن به جلدها، فصحت في انبهار:

- كيف فعلت ذلك يا أبي؟

ابتسم ثانية ولم يخبرني، ثم أراح القطة فوق الطاولة البيضاء، وتحسس بشرتها في رقة وكأنه يعتذر إليها، ثم حقنها بمادة لزجة أظهرت الوشم ثانية، لم أسأله كيف فعلها..

لكنه أخبرني!

صنع من الوصفة أنشودة وحفَّظني إياها.. لست بحاجة لصورتها لتُذكرني بها، فأنا ما زلت أذكرها وأدندنها بين الحين والآخر..

استيقظتُ من نومي على هذه الذكرى، معمل أبي، قطة أمي، والمزيج اللزج الذي علَّمني أبي صنعه لأظهر ما أخفاه من رموز بجسد "تالا"..

هل هذه هي الذكرى التي ستكون مفتاحًا لحل اللغز؟!

***

منذ اللقاء الأخير بيني وبين "آسية" وأنا أتساءل لماذا كذب الجميع، لماذا

أخفوا عني حقيقة ما حدث بالماضي؟! لما وضعوا حجابًا بيني وبين هويتها الحقيقية؟!

كان لابد لي من المرور على بيت أمي، يجب أن تعترف بكل شيء، يجب أن تخبرني لماذا خدعتني؟ لماذا عذبتني؟ لماذا بنار الكذب أحرقتني؟!

أخرجتُ من جيبي مفتاحًا كانت قد أعطته لي لتشعرني أنني صاحب بيت، لا ضيف يطرق الباب وينتظر الإذن بالدخول، فاستخدمته رغم الإحساس المفقود.

صافح أذني صوت أمي قادمًا من المطبخ تقول كلمات لم أتبينها، ثم خرجت تحمل طبقًا كبيرًا وهمَّت لتضيفه إلى المائدة المعدة للغداء. عندما رأتني اتسعت عيناها في قلق، وقبل أن نتبادل كلمة، كانت "أروى" في طريقها إلى غرفة الطعام وهي تهتف:

- "عنبر".

أخذتْ "أروى" من أمي وقفتها، ونظرات عينيها، فتقدمتُ منهما خطوة ووضعتُ في جيب معطفي الرمادي قبضتين محتقنتين بالغضب، ثم سألت ببساطة:

- "عنبر"!

لم أستخدم أداة استفهام، لأن كل الأدوات تصلح لسؤالي الاستنكاري، "من، ولماذا، وكيف.. وحتى أين"!

أتت "آسية" تمشي على استحياء، فالتقطت أمي الخطر وكعادتها غطَّته بحجاب من الخيال. قالت بمرح مفتعل:

- كانت "أروى" تخبرنا عن عطرها المفضل.. هيا يا بني تعال لتنضم إلينا.. "أروى" أحضري طبقًا لأخيكِ، وأنتِ يا "آسية" اجلسي إلى الطاولة لا بد أنكِ جعتِ كثيرًا.

انضممتُ إليهن لا رغبة في الطعام، بل في اكتشاف من منهن أكثر موهبة لأمنحها جائزة الأوسكار، دار حديث طبيعي ـ هذا إن كان في حياتي شيء طبيعي! ـ ولم يمر سوى ربع ساعة فحسب حتى أثبتت أمي استحقاقها



للمركز الأول عن جدارة، تليها "أروى" التي كانت تحتاج لبعض المران.. أما "آسية" فقد رسبت تمامًا.

اكتفيتُ بهذا القدر ونزلتُ عن منصة العرض مقدمًا لهن اعتذارًا مُبهما، فتحتُ باب البيت وقبل أن أغلقه، سمعت إحداهن تقول:

- لقد عرف.

قالتها أقلهن موهبة.



(٤٣)

ماهر

توجهتُ إلى حراس البناية التي كانت تضم منذ سنوات طويلة أسرة صغيرة سعيدة مؤلفة من أبي وأمي و"أروى".. وأنا. كانوا حديثي العهد بالعمل، إلا رئيسهم الأربعيني الذي أخبرني أنه يعمل في هذا المكان منذ سبعة عشر عامًا، أي أنه شهد ليلة انتحار أبي، لم أتذكر هذا الحارس بطبيعة الحال، عملتْ السنوات عملها برأسي وأضاعت صورة وجهه خلف ملايين الصور.

لم أكن بحاجة لشرح كثير، تذكر الرجل الحادث على الفور، وانقلب النور في عينيه إلى غم وهو يصف لي كيف كان الحادث من أبشع ما رأى، وكيف استحال بيتنا إلى مشاع يأتي إليه رجال ويذهبون دون أن يجرؤ على منعهم مانع، حتى صاحب البناية نفسه أغلق عليه بابه يلتزم الصمت، ويغض الطرف عن استباحة مُلكه.

سألته بلهفة عن أمر غريب صادفه يومها، ما كان منه إلا أن أخبرني عن طرد غامض استلمه صاحب البناية بعد رفض دام لثلاث ليال. ثم قال:

- أتذكر ذلك لأن والدك سقط مباشرة فوق سيارة شركة الشحن، وأصيب المندوب المسكين بنوبة ذعر.

ثم أضاف:

- لكن الغريب أن يوم التحقيق أنكر صاحب البنايــة العجــوز مقابلتــه للمندوب واستلامه للطرد، وحذرنا جميعًا من أن نأتي على ذكر هذا الأمر، لكن لعله كان يخشى أن يُجر إلى مشكلة أكبر.

فسألته عن مكان صاحب البناية، لكن الجواب أصابني بالإحباط:



- مات منذ خمس سنوات، واستلم البناية ورثته من الأبناء والأحفاد.

ثم أضاف من باب الثرثرة وهو يضرب كفًا بكف:

- الرجل لم يزوره أحد طيلة سنوات عملي في حراسة البناية، وبمجرد أن صعدت روحه إلى بارئها انهال أقربائه من كل حدب وصوب ليطالبوا بنصيبهم من الكعكة، فظاظته مع أهله طيلة حياته أبعدتهم عنه، وجعلتهم يتمنوا موته طمعًا في ماله.

أيقنتُ أنني لن أجد هنا ما أصبو إليه، لا شيء ينتظرني عند نقطة البداية، لذلك قررت أن أذهب في الغد مباشرة إلى المحطة التالية.

***

كان كتابًا إلكترونيًا ضخمًا عن "العقل الباطن"، ومع ذلك لم أجد غضاضة في قراءته، يدفعني الفضول تارة، والوحدة تارة أخرى..

ومنه عرفت لماذا طافت بعض الصور بالقرب مني، وغاصت أخرى بعيدًا عن مرمى يدي، لابد أن الصور القريبة هي التي يستدعيها العقل الواعي باستمرار، أما الصور البعيدة هي الذكريات المنسية. كان لهذا العالم غير المرئي قوة جبارة لم أحسب لها حسابًا، عالم مظلم لا يفكر ولا يقوم بالحسابات، لكنه يلتقط الصور ويخزنها إلى وقت الحاجة، تاركًا دفة القيادة ظاهريًا لأخيه "الواعي" الذي يختار ويقارن ويقرر، يجمع الصور معًا ويحصل منها على نتائج، ويحدد الخطأ من الصواب.

رغم قوته إلا أنه كجراب "الحاوي"! يسهل استغلال ما به من صور لنسج خدعة جبارة، لا يكتشفها العقل الواعي.

بارزني النعاس، فتركت الكتاب، ورفعت أمامه الراية البيضاء.

دخلت غرفة الصور التي لا تهدأ ولا تنام.. هنا لا وقت للراحة، الصور تدور باستمرار، الآن عليّ أن أجد طريقة لأستبدل مواضع الصور، فأقِّرب البعيدة وأبعد القريبة.

إذا كانت هذه الغرفة المظلمة كجراب "الحاوي"، إذًا عليّ أن أكون

"الحاوي" نفسه، حتى تطيعني الصور كما أطاعت البالونة الحمراء أمر "الحاوي" ولم تنفجر!

اخترت صورة ثم أغمضت عيني وفكَّرت في عكسها! كانت صورة لجدتي وهي تضربني بقبقابها.. فتخيلتُ أنها تعانقني وتمازحني وتفيض على روحي من نبع حنانها.

فتحت عيني فلم تتبدل مواضع الصور، أغمضتها ثانية، واجتهدت في التفكير في جدتي كما لم أفكر فيها من قبل..

وقبل أن أفتح عيني، كنت على ثقة من أنني نجحت، وتبدلت مواضع الصور.

التقطتُ واحدة كانت غريبة عني إلى الحد الذي جعلني أظن أنني دخلت عقل شخص آخر غيري!

واقفة تصنع الكعك بإتقان في زمن لا يعرف لغة السرعة، تكسيه برداء من الشيكولاتة المُذابة، ثم تلتفت إلى طفلة صغيرة بعمر السبع سنوات تمد لها أصبعًا جعَّده الزمن، فتلعق الطفلة ما علق به من السائل الشهي..

أركل الكرة لتسقط مباشرة في وسط قالب الكعك، فيلتفت إليّ زوجان من العيون الغاضبة، تسحبني جدتي من ذراعي وتدفع بي إلى خُنّ الدجاج وتغلقه وهي تصيح متوعدة أنها لن تفتح لي الباب أبدًا لأنني صبي لا يعرف الأدب.

أتسلَّى بخنق الدجاجات حتى توشك على الموت، فأتركها لا رحمة بها بل لأعيد خنقها من جديد. دجاجات قذرة تعذبني برائحة فضلاتها فاستحقَّت ما أنزلته بها من عقاب..

أنظر فإذ بجدتي تفتح لي الباب وتدعوني للخروج، ثم تعانقني غير مهتمة بما علق بجسدي من قذارة، تُردد عليّ تعليمات كُتيب الجدات عن كيف تُصبح حفيدًا رائعًا.. ثم تُسخن لي الماء وتتركني لأستحم، أنتهي فتُطعمني من كعكة جديدة صنعتها، أتناولها بتلذذ وأنا أراقب جدتي تعقد شعر "أروى" بعشرات الضفائر الرفيعة دون ملل، فقط لتضحك عيون الصغيرة.

تدنو مني "أروى" وتحرك أمام عيني ضفائرها يمنة ويسرة في بهجة،



تسألني عن رأيي وقد تعلق قلبها بجوابي، أخبرها أنها أجمل فتاة في الدنيا، فتمنحني أجمل ابتساماتها وهي تتعلق برقبتي، أحملها فوق ساقيّ وأقربها مني.. وأحاول دون جدوى أن أشم فيها رائحة أمي، لعلها لا تزال عالقة بها. ننظر معًا إلى الشارع، نراقب الطرقات، تتعلق عيوننا بوجوه الأمهات، ويجمح بنا حصان الخيال فنتخيل أن واحدة منهن هي أمي.

استيقظتُ من النوم غارقًا في عرق بارد، لا أقوى على الحراك.

***

صعدتُ أول درجة في السلم المتهالك فانهالت الذكريات على رأسي من كل حدب وصوب.

دخلت البيت الذي هجرته لسنوات، والذي عرضته للبيع ما إن وارى جسد جدتي الثرى، وفي اللحظة الأخيرة تم إنقاذه من صفقة البيع.

لم يكن اقتحام البيت صعبًا، كان متهالكًا كآلام النفس التي لا يسترها عن الأعين سوى جدار هش تُحطمه كلمة.. أو صورة في أعماق العقل مستورة.

أريكة جدتي المحببة، المزينة برسم لأزهار فقدت شكلها، واحتفظت برائحتها! وشاحها الملقى فوق فراشها النحاسي ذي الأعمدة، خُفها البسيط الذي كنت أخفيه عنها حتى لا تضربني به، الخوص والحصير، وضحكة لا يزال صداها يرن في الأركان.

من دولابها أخرجت صندوقًا مثقلًا بالذكريات، أزلت عنه غبار النسيان؛ فازداد حِمله من الحنين.. كانت جدتي تخبرني أن بهذا الصندوق روح أبي، فتحته لأجد أغراضًا أجهل لماذا احتفظت بها امرأة عجوز، لكنها أم فقدت ابنها دون وداع، وللأمهات في صيد الذكريات شأن عجيب!

لا شيء يدل على إرث عظيم، أو غرض تُسفك دونه الدماء، وتُترك من أجله البلاد، تركته مفتوحًا فوق فراشها وتوجهت إلى غرفتي.. سرير بالكاد يكفي قامتي الطويلة، ودولاب كانت تشاركني فيه ملابس أختي الصغيرة..

فتحتُ الدولاب الذي يحوي ثيابًا لم أهتم بحملها معي وقت الرحيل.

قلَّبت فيهم كمن يُقلِّب وجوه قوم غاب عنهم ونَسوه، فصكَّ أذني صوت معدني قُرب أقدامي، انحنيتُ لألتقط مسمارًا فضيًا مقوَّسًا أعلاه في حلقة كمشنقة الأحلام..

فركتُ بين أصابعي اللعبة التي تُمثِّل من كل شيء نصفه، نصف حلم لم يتحقق.. نصف سعادة لم تكتمل.. نصف ضحكة تاهت عن عيون صاحبها.

أخرجني من دوامة المشاعر العاصفة صوت عند الباب، خرجت من الغرفة لأستطلع هوية القادم، فإذ به آخر شخص أرغب في رؤيته في هذا المكان، وفي أي مكان.

- ماذا تفعل هنا؟!

صدر السؤال مني، فأحاطني بنظراته المتعالية قائلًا:

- يجب أن أسألك أنا هذا السؤال يا "ماهر".

أطلقت ضحكة بغير مرح، أظهرت فيها احتقاري وقلت:

- نعم بالطبع، فهذا البيت ملك لك الآن، لا بد أن أحد الجيران اتصل بك وجئت لتمسك بالمقتحم.

أراح "شهاب" كفيه حول وسطه وقال بترفع:

- ليس ملكًا لي، بل لعمتك، تعلم أنها اشترته عندما أصررتُ أنت على بيعه، حتى لا يذهب إلى شخص غريب.

أومأت برأسي هازئًا وقلت:

- نعم أنقذتْ بيت أهلها، وتصدَّقت على ابن أخيها الفقير ببضعة آلاف.

هز رأسه قائلًا وقد انعقد جبينه بحدة:

- ألم تشتقْ إليها قط؟!

قلت بلا مبالاة كبيرة:

- ولماذا أشتاق؟!



احتد "شهاب" وهو يدنو مني خطوة وقال:

- ربما لأنها كانت تعاملك وأختك كما تعامل ابنها الوحيد، ربما لأنها لم تقسُ عليك يومًا رغم طيشك ورعونتك، ربما لأنها حاولت بعد موت جدتي أن تصل الرحم الذي قطعته أنت، أو ربما لأنها لا تزال حتى الآن تحاول ذلك رغم أنك أحمق لا تستحق.

هتفت بحدة مماثلة:

- نعم ها أنت ترى أنا أحمق لا يعترف بأفضال الآخرين عليه لكن دعني أذكِّرك بما غاب عنك يا ابن الأثرياء.

دومًا يجتاحني الغضب في حضرة "شهاب"، ربما لأنه يذكرني بكل ما فقدته، لا أحد يُحب مصادقة من يُشعره دائمًا بأنه على خطأ. طرقتُ الأرض بعنف ثم صحتُ:

- أمك لم تعاملني كابنها كما تقول، كانت تعيش في الخارج وتترك جدتك هنا في هذا الفقر الذي تراه من حولك، كانت تحضر مرة في العام مُحملة بالألعاب والصدقات لتشفق بها على أبناء أخيها الميت. هذا كل ما تعرفه أمك عن صلة الأرحام.

هتف "شهاب" بغضب هادر ذكَّرني بثوراتي:

- ومن الذي كان يدفع مصاريف معيشتك أنت وأختك.. جدتك التي لا تملك عائلًا لها ولا ميراثًا ولا حتى معاشًا؟ من الذي أعطاك أكثر من نصيبك الشرعي في ميراثك من البيت لتؤسس به شركتك؟

أشرت إلى ما حولي قائلًا والشرر يتطاير من كلماتي الهازئة:

- هل تسمي هذا عيشًا، هل تقارن هذا بما عشت فيه أنت!

باغتني بهجومه، قبض على ذراعي بقسوة وصاح:

- لأن جدتك كانت عفيفة النفس لم تقبل من أمي إلا ما يسد رمقها ورمق أحفادها ويكفل لهم الستر، كانت ترد المال إلى أمي ولا تأخذ منه إلا ما تؤمن أنه سيكفيها، لم تكن جدتك ترضى بأكثر من الستر.. أما أنت.. أما أنت...

احمرت عيناه وهو يستطرد:

- كنت وما زلت أحمق تضخم الأمور يا "ماهر". زرعت بذرة الكره في عقلك منذ صغرك حتى طرحت علقمًا تتجرعه وحدك الآن وأنت تظن أنه بفعل الآخرين.

لم يكن يومًا الفارق بيني وبينك عظيمًا، لكن عقلك الذي يضخم كل شيء صوَّر لك أننا نعيش في قمة النعيم، بينما أنت تتلوى في قاع الجحيم، لم أكن ابن الأثرياء قط يا "ماهر" كما يحلو لك أن تدعوني، كنت ابن أسرة متوسطة الحال.. وكل ما وصلت إليه الآن هو تعب وجهد السنين ولا شيء أكثر.. مثلك تمامًا!

قذف ذراعيه في الهواء بعنف قائلًا:

- لماذا أهدر أنفاسي معك.. أنت لن تفهم أبدًا ما أقول.

ثم تولَّى عني مُدبرًا، تاركًا لي حملًا ثقيلًا من التفكير، تاه فيه عقلي، وضاق به قلبي.

***

كانت ليلتي الأولى بعد أن اختفى مفعول العقار، كنت أظنها ستكون ليلة هادئة بعيدة عن كل الصور التي يخزنها عقلي الباطن بداخل عالمه غير المرئي..

لم أدخل عالمه لكنه اقتحم عالمي وبعث لي برسالة مُشفَّرة عن طريق الأحلام!

رأيت فيما يرى النائم "أروى" جالسة تعبث بصندوق المسروقات لكن بهيئة طفلة صغيرة، تُخرج منه مفتاحًا يتحرك وكأن الحياة تدُب في الجمادات!

تُرى ما معني هذا الحلم.. وإلى أي مدى يمكن الوثوق بالأحلام؟!

استيقظتُ أتحسس كتاب أبي، أمرر أصابعي فوق الجملة الوحيدة التي تحتضنها دفتاه "الإرث في أمان، استودعته ذريتي من بعدي، أنت حي الآن!"



أتساءل كيف سمع أبي حديث الكتاب، هل كان صوتًا حقيقيًا، أم هاتفًا يتجول في عقله، لماذا يرفضون تصديق أن الكتاب كان يُكلم أبي بالفعل؟ لم يقل أبي يومًا أن الكتاب يتحدث بصوت كالإنسان، في صغري عندما كنت أقرأ كثيرًا مدفوعًا بتقليد أبي، كنت أدخل إلى مكتبته فأشعر أن كتابًا ما يناديني، من بين آلاف الكتب فقط كتاب واحد يختارني ويجذبني هامسًا "اقرأني".. أو "أنا لك".. وأحيانًا كان يقول لي "ستندم إن تجاوزتني إلى غيري".. لا صوت حقيقي، فقط همسات تبدأ من رأسي وتنتهي إليه.

تحدَّثتُ إلى الكتاب الأسود ذو الملمس الغريب كما كنت أرى أبي يفعل:

- أخبرني واصدقني القول أيها الكتاب، هل كان أبي رجلًا مجنونًا أم أنه كان العاقل الوحيد؟!

***

علا البِشر محياه ما إن رآني أدخل متجره، تبادلنا نظرات بمعنى:

- هل وجدت الإرث؟

- نعم وجدته.

جذبني "إدريس" من ذراعي بلهفة وانزوى بي في ركن قصي بعيد عن عيون زبائنه، وسألني بلهفة عن مكانه، أخرجتُ من جيبي بطاقة ذاكرة ثم قلتُ:

- الوصفة هنا.

لمعت عيونه شغفًا، التقطها من يدي بلهفة وكأنه يخشى أن أغير رأيي، سألني أين وجدتها، فأشرت إلى عقلي وقلت:

- كانت هنا، حفظني أبي إياها كأنشودة اعتدتُ أن أدندن بها بين الحين والآخر.

ربت فوق كتفي قائلًا بتأثر شديد:

- أحسنت يا بني، لقد أسديت خدمة جليلة إلى التاريخ.

تنهدتُ وأنا أشعر ببعض الذنب، لأن همي الأكبر كان إنقاذ "أروى" فحسب، ثم سألته أبحث عن تأييده:

- هذا سينقذ أختي، أليس كذلك؟

قبض على بطاقة الذاكرة بأصابع قوية وكأنه يحميها من الهواء نفسه ثم أكد قائلًا:

- لا تقلق، سننقذها، وسننقذ الجميع.. أنت عظيم يا "ماهر".

رغمًا عني ملأتني كلماته بالفخر والعزة، كان شعورًا عجيبًا انتشت به كل خلايا جسدي، وكأنني أتيتُ بما لم يأت به السابقون، ولن يأتي به اللاحقون.

غادرته وشعور رائع يسري في دمائي، قدتُ سيارتي وتوجهت بها إلى الشركة.. كنت بحاجة لأن أراها.. اشتقت إليها كثيرًا.

***



(٤٤)

آسية

لماذا أحببته؟

لماذا يشعر الناس بالحب تجاه أشخاص دون غيرهم؟

هناك مقولة أثق بها كثيرًا تقول "إذا أردت أن يتوافق شيئان فسيفعلان"!

مهما رأى الناس أنهما معًا كنغمة شاذة، سترى أنت فيهما مقطوعة عذبة من الانسجام، لماذا؟ ببساطة لأنك تريد أن ترى ذلك.

الأمر لا يتعلق بالحقيقة، بل بما تريد أنت أن تراه، وبما ترغب في أن تغض طرفك عنه.

يقولون أن للكذب ألف وجه وللحقيقة وجه واحد. لا أومن بذلك، الحقيقة تختلف باختلاف الطريقة التي ننظر بها إليها..

والحب كذلك.. له ألف وجه، والوجه الذي كُتب في صحيفة أقداري، حب طفولة بريء لم ينتهِ عندما أصبحت مراهقة، ولا عندما صرت شابة ناضجة، لو تركته بدون سقيه لذبل ومات، لكنني لم أفعل، بل أفضت عليه من كل شيء ضعفًا، حتى دون أن أدرك ذلك.

كما قالت لي "شهد" ذات صفاء، أن عمري توقف عند الثانية عشرة، وهل منا من لم يشعر بذلك؟ أرى أن لكل منا عُمرًا معينًا ينسحب إليه عندما يريد الهرب من واقعه، عُمرًا يتمنى لو يعيشه لألف عُمر.

لم أحلم بفارس وسيم، ولا بزوج شهم كريم، بل بطفل في الثانية عشرة

يصنع الحيل ليبهرني، ويروي النكات ليضحكني، يقتسم معي ألعابه وحلواه، ويبثني في سكون الليل شكواه، يخبرني أنه يحبني وهو الذي لا يعرف حلو الكلام، يبغض فراقي كما يبغض الموت ذاته.

عندما أكون معه لا أرى "آسية" و"ماهر" اللذين يراهما الجميع، بل الطفلين اللذين يدخر كل منهما مصروفه ليشتري للآخر حلواه المفضلة..

لم أحب قط الفول السوداني المغطى بالشيكولاتة، لكنني كنت أشتريه فقط لأن "ماهر" يحبه.

و"الدوم" الذي يشتريه من أجلي كان أطعم من الذي أشتريه بمالي.

أعلم أن "ماهر" اليوم مختلف كثيرًا عن "ماهر" الماضي. لكن قلبي لا يفهم في فروق التوقيت، هو مبرمج على الشعور فحسب، والشعور لا يخضع لحسابات منطقية ولا لاعتبارات فلسفية.

انفتح باب المكتب فعرفت أنه هو، لا عطر مميز، ولا صوت خطوات معروفة، لا شيء سوى إحساس صدقته ووثقتُ به.

- هل لي ببضع دقائق من وقتك يا آنسة "آسية"؟

لا زال يدعوني "آسية"، يرغب في اللعب إذًا! الإحساس الذي أنبأني بأنه هو، هو نفسه الذي يؤكد لي الآن أنه صار يعرف هويتي الحقيقية، لكن إن كان يخشى مواجهة الماضي، فله ما أراد.

- بالطبع تفضل يا باشمهندس.

حاز على جل انتباهي بحَكْيه عما دار بينه وبين خالي "إدريس"، الكتاب الغريب، الوصفة العجيبة، ثم اختتم حديثه بما لم يقصه على أحد غيري، تأثير العقار الذي تناوله، والذي استمر لسبع ليالٍ متواصلة، فأجبته بما سمعته من خالي:

- كما قلت لك العقار لا يزال في طور التجريب، لكن ليس له أي تأثير على الأصحاء.

- لعله أثر جانبي لا يظهر على الجميع إذًا.



لم أستبعد ذلك وقلت:

- يبدو أنه كذلك بالفعل، العقار فتح داخل رأسك منفذًا للدخول إلى عقلك الباطن، تجعلني أشعر نحو ذلك بالغبطة، كنت أتمنى لو أتيحت لي هذه الفرصة التي أتيحت لك، لكن هذا الأثر الجانبي للعقار اختارك دون غيرك، لماذا تخفي ذلك عن خالي "إدريس"؟

سكت سكتة طويلة ثم قال:

- لا أثق بأحد غيرك.

لم يرتجف قلبي لكلماته، بل لصدقها، قالها بصوت مُغلَّف بالألم وعذاب الضمير، وددتُ لو قلت له الكثير، لكن صوتي خذلني، وقلبي الذي كان يشتاق إلى أن يبثه أخباره تاهت عنه الكلمات، فقط حروف مبعثرة هنا وهناك، ما إن أجمع منهم كلمة حتى يرتجف بنبضة تُشتت أركانها من جديد.

كان متعبًا، وكنت كذلك.. كان يتألم، وكنت كذلك.. كان يهرب، ولم أكن كذلك.

غادر المكتب وأغلق الباب، وكأنه وجد في الهروب حلًا لكل داء. ألم تُعلمكَ الأيام أن الجرحِ المفتوحِ بيننا عذَّبني وأشقاك؛ لماذا لا تساعدني الآن على غفران خطاياك؟

أخرجتني رنة هاتفي من شرودي، لم يُفصح الصوت المبرمج عـــن هوية المتصل ولا رقمه، هاتفي قرر معاندتي منذ أيام وأحدث هذا العطل المستفز، أخبرني خالي "إدريس" أنه سيأخذه للصيانة في أقرب وقت لكنه نسى لانشغاله، يجب أن أذكِّره في الغد.

أجبتُ الاتصال لأنني خشيت أن يكون مهمًا، أفزعني صوت "شهد" وهي تهتف باكية بكلمات لم أتبين منها الكثير، كان الخط متقطع جدًا فلم أفهم إلا كلمات قليلة "أنقذيني.. بيته..هو أرغمني.. بسببكِ.. أرجوكِ يا "آسية""، ثم انتهى الاتصال فجأة!

أسرعتُ مضطربة التفكير بالاتصال بخالي "إدريس"، كـــان اليـــوم عـــلى

سفر لحضور إحدى لقاءات العمل. لسوء حظي لم أتمكن من الوصول إليه، يبدو أن هاتفه خارج نطاق التغطية.

خرجت من المكتب لا أعرف ماذا أصنع وإلى من ألجأ، حتى سمعت "ماهر" يدنو مني ويسألني عن سبب اضطرابي، أسرعت بإخباره عن اتصال "شهد" ثم أضفت والخوف عليها يكاد يفقدني الوعي:

- أظن أنها تقصد "شهاب"، يعني أنا.. "ماهر" أنا أظن أن "شهد" على علاقة بـ"شهاب".

- "شهاب"!

فأخبرته بكلمات مقتضبة عن سبب شكوكي، وعن لقائها السري معه في مكتبي. بعد دقائق كنت برفقة "نيفين" و"ماهر" في سيارة هذا الأخير متوجهين إلى بيت "شهاب".

***



(٤٥)

الكتاب الذي لم يقرأه أحد!

اصطحبني صديقي البشري لتناول الطعام بأحد المطاعم الراقية، بالطبع الكتب لا تأكل، أي عقل هذا؟!

أعاق شعوري بالابتهاج طائر التصنُّع الذي رفرف بجناحيه فوق رؤوس رواد المطعم، وأسقط فضلاته فوق طعام يأكلوه بغير استمتاع، يدفعهم ما أخرجوه من حافظة أموالهم ثمنًا له إلى أن يتظاهرون بالرضا.

تململ النادل واقفًا يمسك بقلم ودفتر صغير، ينتظر صديقي البشري الذي يقرأ قائمة الطعام كقراءته لأمهات الكتب.

نبَّهته قائلًا:

- هل ستقضي اليوم كله في الاختيار؟

نظر لي معتذرًا بقوله:

- سامحني نسيتُ نفسي.

بادر النادل بأدب جم:

- عفوًا يا سيدي، خذ وقتك.

عاد صديقي البشري إلى استكمال القراءة، ولم ينتبه إلى قدم النادل التي تهتز فتخبره بغير كلام أن صبر صاحبها ما هو إلا حفاظًا على أكل عيشه، وأنه لو كان يملك ما يكفي من المال لما اضطر إلى العمل قط، ولجلس في هذا المطعم كزبون يضع ساقًا فوق ساق، ولترك نادلًا بائسًا يتحنط واقفًا بجوار طاولته إلى أن يُملي عليه رغباته.

نبَّهته ثانية:

- لقد بدأ الملل يتسرب إلى حاشِيَتي.

فابتسم معتذرًا وهو يقول:

- اعذرني أن أصبتك بالملل، فأنا دقيق في اختياراتي، تحملني للحظات، كِدتُ أنتهي.

أضحكتني نظرات الريبة التي رمق بها النادل صديقي البشري. وأخيرًا أملاه طلبه، فشيَّعه النادل بنظرة غيظ عندما استقرت شهية صديقي على فنجان قهوة سادة!

سألني بغتة وكأنه أمسك أخيرًا بسؤال تفلَّت من عقال رأسه كثيرًا:

- لم تُحدثني سوى عن بابين للهروب من القهر، فما هي بقية الأبواب؟

رُنتُ إلى شاب عشريني منشغل بعد المال لدفع فاتورة طعامه، تأملته طويلًا، ثم قلتُ لصديقي:

- هل ترى هذا الشاب الأسمر الذي يرتدي بنطالًا ممزقًا في عدة مواضع حيوية.

فضحك ملء فمه ثم همس لي:

- إنها موضة العام.

استطردتُ:

- هذا باب من أبواب الهروب من القهر.

فأرجع ظهره إلى ظهر مقعده وهتف بانبهار:

- البنطال الممزق!

صحتُ بغيظ:

- كلا بالطبع.

ثم قلتُ وأنا أعود لأرمق الشاب والفتاة التي ترافقه:

- الهروب بالاستعراض، عقدة الوجاهة والمظهر، يُظهر للفتاة البائسة



متواضعة الحال أنه يستطيع أن يهرب من الفقر، من الجوع والحرمان، من القهر.. فيصطحبها إلى هذه الأماكن التي لا يستطيع أن يذهب إليها أقرانه.. وقد يلج بابًا آخر فيهرب إلى الخارج، إلى الحلول السحرية التي تُغذي شعوره أن الخطأ كان من الآخرين، الجميع تحالفوا ضده ليضعوا العقبات في طريق نجاحه العظيم، فتظهر نظرية المؤامرة التي تُشعره بالامتياز وترضي غروره.

ثم أشرتُ إلى فتاة تأكل بشراهة وقلتُ:

- وهذه لا تأكل جوعًا، بل تعوض إحباطها وقهرها في الحياة بالإفراط في الأكل، تتأمل بدانتها في المرآة وتلوم المجتمع.

نظرتُ من النافذة الزجاجية، إلى شاب يقتلع نباتًا من الطين، وآخر يشوه جدارًا، وثالث يُمسك برقبة زميله؛ فقلتُ بأسى:

- وهؤلاء رأوا في العنف حلًا، هذا يدمر ما حوله لأنه يشعر بالغربة، فهذه الأشياء ليست ملكًا له، بل لمن أنزل على ظهره سوط القهر، هو ليس ابنًا لهذه الأرض بل يشعر أنه نبتة شيطانية ظهرت من العدم.

وذاك يترك الجمادات ويروي ظمأه إلى التوازن النفسي بتفريغ شحناته السلبية في أجساد من لحم ودم.. أجساد مقهورة مثله.. هو غريب، والجميع عنه غرباء.

ثم بادرته قبل أن يسأل:

- لا أقصد الغربة التي يُقال فيها "طوبى للغرباء"، بل غربة "الزومبي" في روايات الرعب، ميت على قيد الحياة، لا يعنيه ما يحدث للآخرين أمام عينيه، لا يهتم سوى بإشباع شهوة تبقيه على قيد الحياة.

ثم استطردتُ وأنا أقاوم الرائحة الكريهة المنبعثة من السائل الأسود الذي حواه فنجان صديقي:

- تخلفكم لا ينبع من نقص إمكانيات بقدر ما هو نقص حاد في الأفكار، أنتم مشغولون بإيجاد ألف طريقة للهرب، لذلك لا وقت لديكم للتفكير المُبدع.

ثم أضفت:

- لكن هناك هروبًا أكرهه كثيرًا.. وآخر أخشاه أكثر.

سألني بفضوله المعتاد:

- أخبرني المزيد.

- الذي أكرهه أن يتشبَّه المقهور بصاحب السوط، يتبنى قيمه ويراه عاليًا كبيرًا، ذا قوة خارقة تتحدى الصعاب.. ينزع عن روحه ردائها، نفسه وقيمه ومبادئه التي تكونت منذ أول شهيق له في هذه الحياة، ويرى الجميع حشرات تستحق أن تُسحق بالأقدام.

خرجنا من المطعم فلفح الهواء البارد وجهي، مُحملًا برائحة عطرية للشتاء، تدفع بي إلى الخدر اللذيذ.

- وما الهروب الذي تخشاه؟

ارتجفت أوصالي، وهربتُ من الجواب، لأنه كان بشعًا.. بشعًا كثيرًا.





(٤٦)

ماهر

لماذا أخذتها معي إلى بيت "شهاب"؟ لأنني أردت أن أعرف إن كنت أنا الأحمق الوحيد في هذه القصة. ومن نظرات "شهاب" إليها فهمت أنني ملك الحمقى، أنا آخر من عرف هويتها الحقيقية!

خطوتُ لأول مرة منذ سنوات من القطيعة داخل بيت عمتي، وقفتْ أمامي تنظر لي بعتاب مدَّخر طويلًا، فبادلته بخجل كبير. انكسرت نظراتي على صخرة إحسانها، لم تلقِ على مسامعي ما يوغر صدري، بل بسطتْ عليه من التفهم ما لا يستحق، اقتربتْ مني وعانقتني فلم أحرك ساكنًا.

راودني شعور غريب وأنا في أحضانها، رجل ناضج مثلي لا يحتاج لمثل هذه العواطف البسيطة، لكنني جانبتُ الصواب في ظني، كان لعناقها طعم الأمان، ولكلماتها المفعمة بالحب فرحة استقرت في قلبي. فاشتقتُ إلى عناق أمي.

تسمرت نظرات عمتي على وجه رفيقتي، تركتني واقتربتْ منها حتى لم يبق بينهما سوى خطوة واحدة. اضطربت وفركت كفيها ببعضهما، أطرقت تضم أبواب صندوق أسرارها بشدة وكأنها تخشي أن تنطلق منه خباياها بغير رضاها.

همست عمتي باسمها مرة واحدة، ليس الاسم الذي ادعته لنفسها (آسية)، بل اسمها الحقيقي:

- "عنبر" ابنة أخي "مالك" رحمه الله!

ولم تنتظر منها أو منِّي أي تأكيد، ضمتها إلى صدرها بقوة حتى ظننتُ أنها ستسحقها. أبعدتها لتلقي نظرة دامعة على وجهها وتمسح فوقه بأناملها قبل أن تعانقها ثانية بحرارة أشد، بشوق ليس له حد.

نقل "شهاب" نظراته المبتهجة بيننا جميعًا فيما جلست "عنبر" بجوار عمتها، فتذكرتُ الاجتماع الأخير الذي جمع ثلاثتنا، أنا وهي و"شهاب"، كنا وقتها نظن أننا لها مجرد زملاء عمل، لكننا الآن نجلس أمامها كابن عمتها، وابن عمها!

من كلمات عمتي لـ"عنبر" فهمت أنها علمت بأمرها من أمي، لذلك كان من السهل عليها أن تعرفها ما إن رأتها معي.

كانت عمتي تعرف من أمي إجابات كل الأسئلة التي تشغل عقلي في هذه اللحظة، لماذا أخفت "عنبر" هويتها، ولماذا قدمت نفسها إلينا كفتاة لا نعرفها، وهل خالها "إدريس" هو خالها حقًا، وأين اختفت طيلة السنوات الماضية؟! أسئلة لا حصر لها لكنني لا أريد أن أسمع إجاباتها من أي أحد سوى"عنبر". لذلك سأنتظر الوقت الذي سترغب فيه أن تُخرج لي ما بصندوقها من أسرار، وأثق أنه سيكون قريبًا جدًا.

كان تململ "نيفين" واضحًا وهي تعبث بهاتفها، لكنني كنت بحاجة إليها فـ"عنبر" لا تحب أن يقودها رجل.

همستْ "عنبر" باسم صديقتها لتذكرني بالسبب الذي قدمنا من أجله، أنكر "شهاب" بشدة علاقته المزعومة بـ"شهد" ومعرفته بمكانها، كنت أميل إلى تصديق ذلك قبل قدومنا إلى بيته، لم أصدق كثيرًا شكوك "آسية" لكنني أردتُ أن أقطع الشك بسيف اليقين.

رأيت الشك يعلو قسمات "آسية".. أقصد "عنبر"! لكنني أظن أن "شهاب" ليس خسيسًا إلى هذه الدرجة.

يا للعجب، كيف تغيرت نظرتي إليه، حتى وقت قريب كنت أثـق أنـه لا

يتورع عن فعل كل خبيث، أما الآن صار حكمي لا يأتي إلا بعد تفكير.. لكم غيرّتك الأيام الأخيرة يا "ماهر"!

في هذه اللحظة تلقت "عنبر" اتصالًا هاتفيًا من "شهد" لتقول لها:

- كنت أمزح معكِ، مزحة قاسية، لكنك استحققتها!

هبط طير الغيظ فوق رؤوسنا، اعتذرتْ لنا "عنبر" بخجل عما سببته



من قلق، غادرنا بعد وعد قاطع لعمتي بزيارة أخرى في وقت قريب. طلبت "نيفين" التي تجلس في المقعد الخلفي للسيارة من "عنبر" هاتفها لتجري مكالمة هامة بعد نفاد شحن هاتفها، وقبل أن تخرج "عنبر" الهاتف أعطيت هاتفي إلى "نيفين".. كانت غريبة هذا المساء لم أرها بهذا الاضطراب من قبل، يبدو أنها تواجه مشكلة ما، سألتها عما يضايقها فأجابت بنبرة بعيدة كل البعد عن الصدق:

- لا شيء مستر "ماهر".

أوصلتها إلى بيتها، ثم قدت سيارتي بهدوء إلى بيت "عنبر"، وفارقتني دون أن نتبادل كلمة واحدة، لأنني لم أجد ما يُقال، فلم يعلمني أحد كيف أصوغ كلمات الاعتذار.

***

صُدفة، صُدفة، صُدفة.. سارت سفينة حياتي مؤخرًا مدفوعة بألف شراع من الصُدف، لكنني رجل لا يؤمن بالصُدف.

ما زلت أشعر أن لعبة البازل مرتبة بشكل خاطئ، لا توجـــد قطـــع

ناقصة، فقط ترتيب عشوائي في بعض المواضع أفسد الصورة النهائية، والمشكلة أنني لا أعرف ما هي هذه القطع..

لذلك استعنت بحيلة الكتابة، كما أفعل أثناء دراستي للمشاريع، سجَّلت في نقاط مختصرة كل ما حدث في حياتي مؤخرًا منذ... منذ أن أتت أمي من خارج البلاد.

اتخذت من كتاب أبي رفيق سهر، انتظرت منه الكثير، لكنه لم ينطق بحرف، زارتني من النافذة دون دعوة ريح عاصفة وقلبت صفحات الكتاب، ثم توقفت عند صفحة فارغة كغيرها..

لكنها مختلفة عن سواها، لأنها تفصل الغلاف عن باقي الورق، أو بإمكاني أن أقول تصل الغلاف بباقي الورق!

ففهمت أن أهم جزء لتماسك الكتاب هو صفحته الأخيرة التي لا ينظر إليها أحد!

"جميل".. إنه المفصل الأكبر في هذه اللعبة، والذي يربط الخيوط معًا، فهل أجد عنده جوابًا يشفي غليلي؟!

أمسكت بهاتف "عنبر" الذي سقط منها في سيارتي، غلبني الفضول لأعرف بأي اسم تحفظ رقمي في ذاكرة هاتفها... لم أجد سوى علامة تعجب (!).. أو علامة المشاعر كما يحلو لـ"أروى" أن تدعوها.

سمحت لنفسي بغير إذن أن أنظر إلى صورها، كان أغلبها برفقة "شهد" أو "إدريس"، وبعض تلاميذها، كانت تبدو سعيدة كثيرًا وهي تحيط صديقتها بذراعها وتلوح بالأخرى بمرح.

توقفت عند الصورة أحدق في تفاصيل ابتسامتها، ووقفتها.. حتى جذبت انتباهي رفيقتها التي يتدلى من حجابها القصير قرطان صغيران، كبَّرت الصورة ودققت فيهما وأنا لا أكاد أصدق ما أرى..

هل هذا هو القرط الذهبي ذو اللؤلؤة الصغيرة الذي رأيته من قبل مع.. "شريف" في المرة الأخيرة التي التقينا فيها في تدريب الملاكمة؟!

لكنني أذكر جيدًا أن هذا اللقاء تم قبل أن نلتقي بـ"عنبر" و"شهد".. كان تحديدًا في اليوم الذي طردت فيه "جميل" من الشركة!

ها هي الأحداث تقودني إلى "جميل" مرة أخرى.. هو مفصل القصة إذًا.

دفعني الحماس هذه المرة إلى أن أفحص كل ما يحويه هاتفها، ألبوم الصور، ذاكرة الهاتف، قائمة الأرقام المحفوظة، سجل المكالمات، وعندها رأيت شيئًا غريبًا يبعث على القلق.. شيئًا دفعني لأظن أن "عنبر" قد تكون في خطر!

سجَّل هاتف "عنبر" اسم "إدريس" كآخر مكالمة واردة تلقَّتها، في التوقيت نفسه الذي اتصلت فيه "شهد" لتستنجد بها! أذكر الوقت بدقة لأنني نظرت إلى ساعة معصمي قبل أن نغادر الشركة إلى بيت "شهاب".

فلماذا أجد اسم "إدريس" مسجلًا بدلًا من اسم "شهد"؟! ماذا يعني هذا؟! وكيف لم تخبرني "عنبر" بذلك؟!

***



(٤٧)

عنبر

جافاني النوم، ومعه كل الحق في مجافاتي، لماذا لم يتحدث معي هذا الغليظ ولو بكلمة واحدة طوال الطريق إلى بيتي؟

إنه واهم كثيرًا إذا ظن أنني لن أنبش الماضي وسأتركه يرقد في قبره بسلام، الماضي والحاضر والمستقبل عندي متصلون في سلسلة واحدة.

عمتي، وآه من لقائي بعمتي، كم كانت أحضانها دافئة، ولمساتها حانية، وددتُ لو تطلعتُ إلى عينيها وأرتشف من نبع حنانهما. لكم افتقدتها كثيرًا، لعلَّ كثرة الفراق تُنسينا كيف نشتاق، لكن ما إن يأتي اللقاء حتى يُمطر غمام الحب شوقًا لا ينقطع، ويجري الحنين في عروقنا كالسيل المنهمر. لماذا أشعر فجأة كالطير الذي يهفو إلى العش، ألم أكن أتشدق بحب خالي لي وبأنه عائلتي بأكملها، ماذا حدث الآن حتى أرى لأول مرة فراغًا كبيرًا بداخلي، لم أنتبه له قبلًا رغم أنه كان هناك كل الوقت؟ مثلما كان حب "ماهر" متغلغلًا في أعماقي، ينمو معي دون وعي مني.

لم أكتشف ضياع هاتفي إلا بعد وصولي إلى البيت بفترة ليست بالقصيرة، لا بد أنه سقط مني في سيارة "ماهر" عندما أخرجته وهممتُ بأن أعطيه لـ"نيفين" كما طلبت.

شعرت أن أحدًا يشاركني هواء الغرفة، تجمدت في مكاني وقد شلَّني الخوف، بات الخوف ملء ضلوعي، اختلط صوت أنفاسي بطرقات المطر فوق النافذة. يا الله ماذا أفعل، خالي "إدريس" لم يعد إلى البيت حتى الآن.

لم أجد حلًا سوى الاستمرار في التظاهر بالنوم، إذا كان لصًا فليأخذ ما

يريد ويتركني وشأني، لن أشعره أنني كشفته حتى لا يؤذيني، لا قدرة لي على مواجهة المتسلل إن كنت مُبصرة، فكيف هو الحال وأنا لا أراه.

لا أعرف كم بقيت متجمدة بلا حراك تحت لحافي، وعندما ظننتُ أن هواء الغرفة لا يضم سوى أنفاسي نهضت وغادرت الفراش. خرجت من الغرفة أتحسس طريقي إلى مكتب خالي، يحتفظ في أحد أدراجه بهاتف صغير للطوارئ، وكان العثور عليه هو هدفي، وما إن دخلت المكتب حتى اصطدمتُ بجسد ضخم، وعندها فقدت قدرتي على التحكم بأعصابي، صرخت بكل قوتي، لكن كف الرجل كتمت أنفاسي، همس في أذني بكلمات قاسيات:

- أخبريه أن كلماته التي صدقها الجميع، قد أصبح هناك العشرات ممن يكفرون بها، ويومًا ما سنكون مئات، ثم آلاف، ثم ملايين تطيح بكل من غَرر بها.

دفعني بقوة بعيدًا فسقطت أرضًا وقد التوت قدمي تحت ثقل جسدي.

سمعتُ باب البيت يُفتح ثم يُصفع بقوة، غادر اللص وقد سرق مني الأمان، وخلَّف من ورائه أثرًا ثقيلًا.

أغلقتُ باب البيت من الداخل بالمفتاح وتكوَّمْتُ خلفه على الأرض أضم ساقيّ إلى صدري، أبكي وأنتحب، أستغفر كثيرًا وأدعو أكثر، أن يرد الله لي صمام الأماني بحياتي. بعد ساعة أو يزيد سمعت المفتاح يدور في مكانه بالباب، انتفض قلبي مخافة أن يكون اللص قد عاد، ولم يرحل عني الفزع إلا عندما سمعت صوت خالي يناديني. فتحت الباب وألقيت بنفسي بين ذراعيه أرتجي حمايته التي أحاطني بها دومًا. هدَّأ من روعي ومسح عبرات كست وجهي. أنصت إلى كلامي بانتباه، وما إن انتهيت من الحكي حتى صاح بغضب هادر وهو يتوعد هذا اللص الأثيم، سألته عن معنى الكلمات التي قالها لي، فأخبرني أنها كلمات جوفاء بلا معنى.

ثم قال:

- أين هاتفكِ؟ اتصلت بكِ عشرات المرات لكنه مغلق.

قلت بصوت لم يفارقه تمامًا الخوف والاضطراب:

- نسيته في الشركة، غدًا أحضره.

ساقني بحنو إلى فراشي الذي زال عنه الدفء، تقلَّبت فيه طويلًا حتى



استعاد حرارته، كان المطر قد توقف، لكن رائحته لحقت بالنسيم المتسلل من نافذة غرفتي، تمامًا كاللص الذي غادر بجسده، وتركت كلماته بصمات رائحته..

رائحة الثورة.

***

لم أذهب إلى الشركة في اليوم التالي، لا يخطر على بالي عمل شيء سوى الاستلقاء فوق الفراش وعناق دميتي القديمة، والبكاء.. جو من الكآبة خيم على روحي وليس عندي أدنى رغبة في تبديده، ولمزيد من الكآبة فتحت حاسوبي واخترت فيلمًا يُفتت الصخر، فاختلط صوت نحيب بطلته بنحيبي، وعندما جاء البطل أخيرًا ليمسح بكفيه منبت الدموع والآلام سمعتُ صوت جرس الباب، فنهضتُ متثاقلة لأغسل وجهي سريعًا، وما إن دنوت من الباب لأستطلع هوية القادم حتى أتاني صوت بطلي ليحرك ما بالقلب من مكامن الأشواق.

فتحت متوجسة وأنا أتمنى ألا يلاحظ ما علق بوجهي من آثار البكاء. قلت في ارتباك:

- خالي "إدريس" غير موجود، يعني لن أستطيع أن...

فقاطعني بنبرة غريبة لم أعتدها، ولم أستطع تفسير سببها:

- لن أدخل، فقط سأقول كلمتين وأغادر.

دسَّ هاتفي في يدي قائلًا أنه سقط مني في سيارته بالأمس، ثم سألني:

- هل انتبهتِ للرقم الذي هاتفتكِ منه "شهد" بالأمس؟

لم أفهم من سؤاله سوى أنه عبث بهاتفي، ألقى هذا بالضيق في قلبي، كيف سمح لنفسه أن يفعل. وقبل أن أوجه له كلمات اللوم فاجئني بقوله:

- إنه رقم خالكِ "إدريس".

لم أفهم العلاقة بين اتصال "شهد" بالأمس، ورقم خالي الذي كان على سفر طويل في الوقت نفسه. لم يزِل "ماهر" إشارة الاستفهام عن هذا الأمر

الغريب، ولم أستطع أنا أيضًا أن أفعل. ثم قال بصوت لمست فيه القلق جليًا:

- كوني حذرة.

لم أخبره عن اللص الذي اقتحم البيت بالأمس، لم أجد داعيًا لأفعل، كان كل ما يشغل عقلي في هذه اللحظة هو أن أجد تفسيرًا لاتصال "شهد" من هاتف خالي "إدريس". ظننتُ أن هذا هو كل ما جاء "ماهر" من أجله، لكنني كنت مخطئة. بصوت قريب بعيد، وكأنه قادم من داخلي أو من بئر سحيق. قال:

- كانت هناك فتاة صغيرة هادئة تهوى ألعاب الحواة، قضت أجازتها ذات ربيع في بيت أقربائها، وكان لديهم صبي رغب في جذب انتباهها ونيل رضاها.. لكنها شيَّدت بينهما حاجزًا كبيرًا لاختلاف طبعيهما، كانت هي وديعة كثيرة الصمت، وكان هو مشاغب كثير الكلام.

فتعلَّم الصبي بعض خدع الحواة، وعرضها أمام الفتاة الصغيرة فنال إعجابها وتبدد دلالها. صارا قريبين كوجه كتاب وظهره، وبينهما مئات الصفحات التي يسطرانها معًا.

اعتاد أهلهما أن ينظروا إليهما كأخوين، ولم يلحظوا ما كان ينمو بينهما من رباط أقوى من رابطة الدم التي تجمعهما.

امتزجت خصالهما المتشابهة، أما الطباع المختلفة فلم تعد سببًا للتنافر بل لجذب كل منهما إلى الآخر. وذات يوم عندما اقترب موعد انتهاء الأجازة ومفارقة الفتاة للصبي، تشجَّع أخيرًا وأخبرها أنه يحبها، فامتزج غضب الفتاة بخجلها وخاصمته لأيام، لم يحتمل الصبي هذا الفراق المبكر ولا يزال يجمعهما سقف واحد، فتعلم خدعة جديدة من حاوٍ رآه في التلفاز.

سكت "ماهر" يلتقط أنفاسه، فسكت معه كل شيء إلا صوت دقات قلبي العنيفة، أكمل بصوت أكثر اضطرابًا:

- كانت عين الفتاة تعاني من حساسية الربيع. ذات صباح أمسكت بدواء عينيها فاختطفه منها الصبي ليقوم بخدعة جديدة.. يلقي بالعلبة في جوفه ثم يخرجها من شعرها، علَّه يحصل منها على ضحكة يتبدد بها



هذا الخصام، ولكي يقوم بخدعته كان يلزمه علبة دواء أخرى، فدخل الغرفة التي يتخذ منها والده معملًا صغيرًا، والتقط أول علبة تقع تحت يده وتشبه إلى حد كبير دواء الفتاة..

قام بخدعته ونال بغيته، ذاب الغضب وبرد الحطب. أعاد الصبي الدواء إلى الفتاة فوضعته في عينيها، دون أن ينتبه إلى أن دواءها الحقيقي لا يزال يحتفظ به في أكمام قميصه، وأن ما أعطاها إياه هو الدواء المجهول الذي التقطه من معمل أبيه..

قطع صراخ الفتاة نياط قلبه وهي تصيح:

- عيناي، لا أرى شيئًا.

تقطَّعت أنفاسه في نهاية عبارته، حتى تلاشى صوته، أطرقت برأسي أخفي آثار سوط الألم فوق وجهي، وددت لو توقف عن الكلام لكنه أكمل الحكاية:

- غابت الفتاة أيامًا عن البيت بعد أن تم استدعاء والدها من الخارج، انهار الصبي وامتنع عن الكلام، أضرب عن الطعام والشراب، لا يستأنس سوى بصوت بكائه، فما كان من أمه إلا أن كذبت عليه لتكسر حصار عزلته، أخبرته أن الفتاة بخير حال أنقذ الأطباء عينيها، لكنها سافرت مع والدها دون كلمة وداع لأنها غاضبة منه ولا تريد أن تراه مرة أخرى، وأنها أبدًا لن تسامحه.

انهار الصبي وأقسم أنه لم يقصد إيذاءها، وأن كل ما أراده هو اللعب معها، لماذا لا تفهم ذلك؟ لماذا تعاقبه؟ لماذا لا تعفو عنه وتسامحه؟ لماذا تُحطمه؟

انتهى كلامه بارتجافة صوته. لم أشعر بدموعي إلا عندما لامست إحداهن شفتي وتذوقت طعمها المالح، مسحتهم بظهر يدي، ولم أجد كلمة واحدة أستطيع أن أرد بها على ما قيل، انتفض جسدي عندما مس كفي شيء معدني بارد، قلبته بين أصابعي لأجد مسمارًا معدنيًا عاد أخيرًا إلى نصفه الذي غاب عنه سنين طوال..

استطرد بصوت نخره الألم، رقَّ له قلبي:

- لكن بعد سنوات اكتشف الصبي أن خدعته كلَّفت الفتاة نور عينيها، ولها الحق في أن تكرهه من أجل ذلك، وأن ما كان يراه ظلمًا هو أقل من العقاب الذي يستحق.

أطلق زفيرًا عميقًا ثم قال وقد تهدَّج صوته:

- لهذا أقول لهذه لفتاة أنا جاهز للقصاص الذي تختاره.. يكفي أن تسامحني.

"ماهر" الذي أخبرني أنه لا يغفر لأحد، يقف بين يدي طالبًا لغفراني، رجل حياتي الذي لم أرَ سواه، هل يظن أنني حقدتُ عليه يومًا؟ ألا يعرف أن لديه في قلبي رصيد حُب يكفي لأن أغفر أسوأ خطاياه؟ لا أريد أكثر من أن أرى الرجل الواقف أمامي بقلب نقي كطفل في الثانية عشرة، وفي هذه اللحظة شعرت أنه كذلك.

احتضنتُ نصف اللعبة بين أصابعي وقلت له صادقة بصوت خفيض:

- "ماهر" أنا لم أكرهك قط، لقد سامحتك دومًا.. لم يؤلمني سوى ما قالوه لي من أنك الذي اخترت الفراق بيني وبينك.. عندما التقيتُ والدتك في اليوم الذي عادت فيه "أروى" إلى البيت عرفتني وظننت أنني أتيت بالشر لأنتقم، لكن عندما تحدثنا معًا فيما بعد فهمتها وفهمتني، كانت تحاول حمايتك، ورغم الجرح الكبير الذي سببه هجركم لي وأنا أواجه وحدي أصعب أيام حياتي، إلا أنني أتفهم أنها أم كل ما فكرت فيه هو حماية ابنها من عذاب الضمير الذي كاد يقتله.. لا أكذب، لا أخدع، لا أحاول التخفيف عنك.. أنا بالفعل سامحتك، لم تتعمد أن تؤذيني.. أثق بذلك.

ثم أضفتُ:

- كُنت تُحبني كثيرًا لذلك كان ألمك كبيرًا.

تنامى إلى مسامعي شهقة بكاء مكتوم، تبعها صوت خطوات تبتعد.. توافق سرعتها دقات قلبي.. دقة بدقة.

***



(٤٨)

ماهر

كانت أمي خارج البيت، وحمدت ربي على ذلك، فلم يكن لدي القدرة على الحديث معها، انتظرتُ "أروى" حول طاولة صغيرة في المطبخ حتى تنتهي من إعداد القهوة، أتتني بدواء للصداع فتناولت حبتين بجرعة ماء.

جلستْ أمامي فنظرتُ إلى عمق عينيها وقلت بجدية بالغة:

- الآن في هذه اللحظة، بإمكانك أن تخسريني للأبد، أو تكسبيني حتى آخر يوم في عمرينا.

تعلقت "أروى" بعيني في حيرة، فسألتها ولم أُحِد أنظاري عن عينيها:

- هل أنتِ عضوة في "رابطة الدم"، أو كنتِ يومًا كذلك؟

ابتسمتْ هازئة وهي تقول:

- وما الفائدة من السؤال، الجميع يعرف الجواب سلفًا، الجميع يعرف كل شيء سلفًا، لماذا تلقون الأسئلة إن كنتم لن تصدقون سوى الجواب الذي يوافق أهواءكم؟!

أعدت عليها السؤال ثانية دون أن أضيف عليه حرفًا واحدًا، تبادلنا النظرات حتى اختفت نظرتها الهازئة، وقالت بجدية تماثل جديتي:

- بالطبع لا.

فأضفت بسرعة أدهشتها:

- أصدقكِ.

ثم ألقيتُ على مسامعها سؤالي التالي:

- هل سرقتِ معلومات الحملة الدعائية من حاسوبي بالشركة؟

لم تتغير نظرتها الجادة، ولم تحِد عني بعينها، أجابت بالكلمة ذاتها لكن بقوة أكبر:

- بالطبع لا.

فأذهلها جوابي الثاني بأكثر مما فعل الأول:

- أصدقكِ.

اغرورقت عيناها بالعبرات وهي تضيف:

- أنا لا يمكن أبدًا أن أوذيك يا "ماهر".

نهضتُ وجذبتها في عناق طويل وأنا أقول بندم كبير:

- أعرف.

اتشح صوتها بالبكاء وهي تلومني ولها كل الحق في أن تفعل:

- لكنك لم تصدقني عندما أنكرت ذلك في المرة الأولى.

قبَّلت رأسها وأقررتُ:

- الآن أصدقكِ، لعل المسافة التي تضعها بيننا بصمتك هي ما أوصلتنا إلى هذا الحال.

- لا تلقي اللوم على صمتي يا "ماهر". من يختار الصمت لا يختاره لأنه يحبه، بل لأن الآخر لا يكلف نفسه لسؤاله عما يشعر أو يفكر، وإذا سأل فإنه يكتفي بـ"معلش" كحل سحري لأي مشكلة.

كانت محقة، محقة جدًا. ألقيتُ عليها سؤالي الأخير:

- من هو الرجل الذي ركبتِ سيارته بعد الدرس؟

ترددت قليلًا، ثم قالت:

- "شهاب".. أعرف أنك ستغضب لكنني لم أكن وحدي معه، كانت عمتي معنا في السيارة، أرادت أن تراني، أخبرني "شهاب" بذلك عندما كنا نتناول العشاء معه في الليلة السابقة، أحببتُ أنا أيضًا أن أراها، وكنت أعلم أنك لن تسمح لي بذلك.



كنت أعرف أن الخطأ مني، لم أتحر قط عما بلغني من معلومات بشأنها، لم أهتم حتى بسؤالها، صدقتُ كل شيء دون أن يكون عندي بينة واحدة. عندما أشحتُ بوجهي عنها، تجعَّد جبينها وهي تسألني بلهفة:

- هل غضبت مني كثيرًا؟

قبلت رأسها ثانية وقلت بضيق خنق صوتي:

- لم أغضب منكِ يا "أروى"، بل من نفسي.

ناشدتها وأنا غير واثق من الجواب:

- هل ستسامحينني؟

لكن ابتسامتها الكبيرة كانت أفضل ما تمنيت الحصول عليه.

فارقتها لكنها أوقفت الباب بكفها قبل أن أغلقه، وقالت:

- "ماهر".. "عنبر" تحبك كثيرًا.

***

قلتُ لـ"جميل" ـ المفصل الذي يربط بين عالمي وعالم "عنبر" ـ وأنا أمسك بكتفيه بقوة:

- "جميل" يجب أن تعرف أن هذا الأمر مهم جدًا بالنسبة لي، أنا لا أمزح معك هنا.

دار حول نفسه عدة دورات في غرفة المعيشة بشقته المتواضعة، حتى ضقت ذرعًا بتردده وصحتُ:

- "جميل" هيا تحدث.

قال بتردد كبير:

- مستر "ماهر" أنت تعرف أنني لا أتأخر عنك أبدًا في أي طلب، لكنني عاهدته ألا أبوح باسمه.

هذا الـ"جميل" يصر على إغضاب قولوني العصبي، قلت وأنا أحاول أن

أبدو هادئًا:

- هذا ليس ظرفًا عاديًا يا "جميل"، يجب أن أعرف من هو هذا الصديق الذي أرشدك إلى الذهاب إلى شركة "عنبر".. أقصد شركة "آسية" لطلب وظيفة.

تركته يدور حول نفسه ثلاث دورات أخريات، عندها فقدت قدرتي على احتمال صمته، أمسكت كتفيه مرة أخرى وقلتُ:

- حسنًا سأخبرك أنا بالاسم وإن كان صحيحًا أشر لي برأسك، اتفقنا؟

يبدو أن فكرتي أبهجته كثيرًا، وأزاحت عن كتفيه حملهما من الذنب! قلت الاسم الوحيد الذي أشك فيه:

- "شريف"؟!

أومأ برأسه إيجابًا ولم يعقب، فشكرته بكلمات مقتضبة وغادرت منزله.

"شريف" يستخدم عطورًا عربية.

"شريف" يحب إضافة شريحة ليمون إلى قهوته.

كانت هذه هي بذرة الشك التي طرحت لبلابًا عملاقًا من الخطر أوشك على خنقي.

***

رن هاتفي فأجبتُ "إدريس" بهدوء، لكنه قابلني بثورة غضب:

- لقد خدعتني يا "ماهر" الوصفة التي أعطيتني إياها لا يوجد منها أي فائدة، لم تستطع إعادة الحبر إلى الكتب، إن كنت تظن أن بإمكانك أن تخدعني فأنت إذًا لا تدرك حجم الخطر الذي يحيق بنا، لن تستطيع أن تساعد أختك بخداعي يا "ماهر".

انتهى "إدريس" من توبيخه وأنهى الاتصال على الفور، أنزلت الهاتف بهدوء ووضعته فوق الكومود المجاور لفراشي، إن كانت الوصفة غير صحيحة فأين أخفى أبي إرثه إذًا؟! هذه هي الوصفة الوحيدة التي حفَّظني



إياها وأنا صغير.

جلستُ أسترجع ذكرياتي مع أبي، والساعات الطوال التي كان يسمح لي بأن أقضيها معه في مكتبه وفي معمله الكبير، علَّمني الكثيرلكن لا شيء منها من الممكن أن يكون طريقة لإعادة الحبر إلى الكتب.

ماذا عن الرحلة التي اصطحبني فيها أبي بعيدًا عن أمي وأختي؟ كان أسبوعًا قضيناه على شاطئ البحر، لم يحدث فيه شيء غير عادي، أذكر الرمال والسماء ولون البحر، وشمس المغيب التي كانت تلهب جسدي بحرارتها، فقط كنت أشعر بالضيق لأن النوم كان يغلبني كثيرًا، كنت أسهر الليل إلا ثلثه، وأنام النهار كله فلا أدرك الشمس إلا وهي تلوح من الأفق مودعة.. لا كتب ولا معامل ولا وصفات.. لا شيء آخر على الإطلاق!

كانت ليلة قررتُ أن أقضيها بدون تأثير العقار، لكن الأحلام أصرت على ملاحقتي، أتتني فيها "أروى" جالسة بجوار صندوق مسروقاتها، هذا الحلم يتكرر للمرة الثانية. هل يمكن أن تكون رسالة من عقلي الباطن يرسلها عن طريق الأحلام؟ هل من الممكن أنه يحتفظ بصورة تساعدني على فهم ما يحدث من حولي لكن عقلي الواعي يعجز عن إدراكها؟

أسرعتُ بحقن نفسي بجرعة ثانية من العقار، أغمضت عيني وانتظرت، لكن لم يحدث أي شيء، استيقظت في الصباح دون أن ألج العالم الذي يحتفظ فيه عقلي الباطن بكل الصور، يبدو أن الأثر الجانبي الغريب للعقار زال بانتهاء تأثير الجرعة الأولى، ولن يتكرر ثانية.

ليس أمامي سوى أن أعتمد على ما يذكره عقلي الواعي، فلأكن دقيق الملاحظة إذًا، لا تسرع، ولا أحكام مسبقة، فقط أدلة وبراهين.

قفزت من فوق الفراش وتوجهت إلى غرفة "أروى" التي لا تزال على حالها من الفوضى، لم يعد البيت في حاجة إلى "أم تهاني"، بل إلى قنبلة نووية!

حملت الصندوق الثقيل وتوجهت به إلى غرفتي، أفرغت محتوياته فوق الفراش وجلست أنظر إليها واحدًا تلو الآخر، ببطء وعناية، لكن لا شيء ملفت، لا شيء يستحق أن يكون موضع اهتمام.

فرزت محتوياته مرة ثانية وثالثة وعاشرة، حتى تملَّك اليأس مني، فبدأت في إعادة الأغراض إلى الصندوق وقد شرد عقلي يبحث عن طرف خيط جديد. توقفت يدي في منتصف الطريق إلى الصندوق، وهي تحمل ورقة مجعدة بشدة، أمسكتها من قبل عدة مرات لكن هذه هي المرة الأولى التي أنتبه فيها إلى أن شعارًا ما يبدو بارزًا بأعلى الورقة بعد أن اختفى منها الحبر، وبجانب الشعار رقم مدون فوق الورقة في شكل ثقوب يمكنني تحسسها وقراءتها بوضوح، كما تفعل "عنبر" وهي تقرأ بطريقة "برايل".. شركة "سبيد" للشحن! من أين حصلت "أروى" على هذه الورقة؟!

لم أترك نفسي فريسة للتخمين، توجهت من فوري إلى بيت أمي، أيقظتها و"أروى" من النوم في هذا الوقت الباكر من الصباح، لكن الأمر يستحق.

أخبرتني "أروى" أن هذه الورقة أطبقت عليها بكفها الصغير في الليلة التي انتحر فيها أبي، وعندما أحضرتنا أمي إلى بيت جدتي، عثرت جدتي على الورقة ولم تستطع معرفة إن كانت تمثل أهمية أم لا، فاحتفظت بها بين أغراضها. ويبدو أن الورقة لم تثر اهتمام المقتحمين الذين قلبوا منزل جدتي رأسًا على عقب، فبقيت الورقة معها إلى حين كبرت "أروى" وأخذتها من بين أغراض جدتي.

أضافت أمي وهي تحاول استدعاء ذكريات تلك الليلة:

- قبل انتحار والدك بدقائق أتاه مندوب يحمل بيده طردًا يخص والدك، لم أعرف قط محتويات الطرد لكن أباك سلَّم المندوب ذلك الكتاب الغريب الذي كان يتحدث إليه طوال الوقت، وبضعة أوراق، فأعطاه المندوب هذا الوصل، وعندما بكت أختك لسبب ما أعطاها والدك الورقة لتلعب بها.

توقفتُ عند هذه المعلومة الجديدة بشيء من الحذر...

- إذا كان أبي أرسل الكتاب لشخص ما فلا بد أن هذا الشخص هو "إدريس".

- لا لم يكن "إدريس"، لا يعرف والدك هذا الرجل، حتى إنني لم أعرف



اسمه إلا عندما التقينا بـ"عنبر" مؤخرًا، نعم هو خال "عنبر" لكنه لم يكن على صلة وطيدة بعمك "مالك" بعد موت زوجته، ولا بأبيك بطبيعة الحال، كنت أسمع أن بينهما مشاكل ضخمة بسبب جريمة سرقة، اتهم عمك "مالك" خال "عنبر" بسرقة ماله، لكن الأمر لم يصل إلى المحكمة حسب علمي، لأن عمك خاف على سمعته من أن يقال أن خال ابنته لص وضيع، حتى عندما خضع عمك لعملية جراحية بالخارج ترك "عنبر" في رعايتنا ولم يسلمها إلى خالها.

قلت مفكرًا:

- إذا لم يرسل أبي الكتاب إلى "إدريس" خال "عنبر"، إذًا كيف حصل عليه إدريس"؟

قالت أمي بثقة كبيرة:

- لم يكن لأبيك أي أصدقاء، الوحيد الذي كان يثق فيه كثيرًا هو عمك "مالك".

- إذًا لعل أبي أرسل الكتاب إلى عمي، لكن "إدريس" أخذ الكتاب منه، أو من المندوب.

هتفت "أروى" بحماس:

- تقول أن الوصل به رقم محفور بشكل ما، إذًا أنت معك اسم الراسل ورقم الطرد وتاريخ الإرسال، بإمكانك أن تذهب إلى شركة الشحن لمعرفة المزيد.

سألتُ أمي بلهفة:

- هل تعرفين اسم المندوب الذي سلَّمه أبي الطرد؟

فكرت كثيرًا ثم قالت بإرهاق:

- لا للأسف يا بني لا أذكره، تعلم أنها كانت ليلة صعبة علينا جميعًا، لم أكن في حالة نفسية طبيعية لأتذكر مثل هذه التفصيلات غير المهمة.

- ليست تفصيلة غير مهمة يا أمي، فلعلها المفتاح لكل شيء.

حاولت أمي أن تداوي الجرح القديم، أوقفتها بإشارة من يدي، لكنها لم تتوقف وأردفت بكلمات متلاحقة مخافة أن أقاطعها ثانية:

- "ماهر" أنا آسفة كثيرًا لأنني كذبت عليك في الماضي، كما قلتُ لـ"عنبر" من قبل كان هدفي الوحيد هو حمايتك من الألم الذي كنت تعانيه، كان الإحساس بالذنب يقتلك، ماذا كان من الممكن أن أفعل وأنا أراك على هذه الحالة، أريدك أن تسمعني يا "ماهر"، فعلت ذلك من أجلك أنت، لم أفكر في أحد سواك، لكن من الآن فصاعدًا سأخبرك بكل شيء ولن أخفي عنك أي شيء أبدًا، حتى إنني عرفت من "عنبر" لماذا غيَّرت اسمها، سأخبرك بكل ما حكته لي "عنبر".

أوقفتها ثانية وقلت بحزم:

- ستخبرني بذلك "عنبر" نفسها، وليس أحد سواها.

نظرتُ إلى "أروى" فإذ بها شاردة وتحتضن الورقة المجعدة بين كفيها، لمعت بعينها العبرات فاقتربت منها، وجثوت على ركبتي أمامها، مسحت رأسها وأنا أنتظر منها أن تفصح عن سبب الألم الذي اكتسى به وجهها، فرفعت إليّ عينين محملتين بالخجل وهمستْ بشفتين مرتجفتين:

- أنا لم أكن أسرق أغراضكم.. أنا فقط كنت أحتفظ بأجزاء منكم.. الجميع يتركوني ويرحلون.

تقاطرت من عينيها عبرات عزَّ عليّ رؤيتها، مسحتها سريعًا بظهر كفها. سكتُ ولم أنطق بكلمة، وماذا من الممكن أن يُقال؟! لكل شخص نقطة عمياء، وكانت نقطتي العمياء هي التسرع في الحكم على تصرفات الآخرين دون النظر في دوافعهم. كم كنت أهوى عقد المحاكمات، والحال أنني مذنب مع سبق الإصرار والترصد.

***



(٤٩)

ماهر

خرجت من بيت أمي متوجهًا إلى مقر شركة الشحن التي حصلت على عنوانها من الإنترنت. لم أجد أحدًا يهتم بمشكلتي في بادئ الأمر، لكن الورقات من فئة المائتي جنيه التي حواها جيبي كانت مفتاحًا لكل الأبواب المغلقة. استغرقنا بعض الوقت للوصول إلى رقم البوليصة المطلوب، ومنه كشف لي الموظف وهو يتلفَّت حوله مخافة أن يضبطه رئيسه بالعمل وهو يفشي هذه المعلومات:

- اسم المندوب "عصام عبد الحميد". هذا كل ما أستطيع أن أساعدك فيه.

أخبرني أن بعد حادثة اختفاء الحبر تم استخدام الكمبيوتر لعمل قاعدة بيانات خاصة بالعملاء وبالعاملين في شركة الشحن. فطلبتُ منه الحصول على عنوان هذا المندوب، وعندما بحثنا في سجل العاملين في الشركة صدمني ما كُتب في ملف ذاك المدعو "عصام عبد الحميد"، حيث دُون تاريخ وفاته بعد حادثة انتحار أبي بشهرين فحسب! حفَّزت هذه المعلومة من شكوكي أكثر، فأخذتُ العنوان المُدون في ملفه بالشركة وفورًا توجهتُ إليه حاملًا معي الكثير من الأمل.

كان العنوان في منطقة شعبية لا تبعد كثيرًا عن مقر شركة الشحن، وما إن وصلت إلى بيته المتهالك حتى وجدت رجلًا آخر يعيش في الشقة الصغيرة التي كان يعيش فيها "عصام عبد الحميد" منذ سنوات. لم أحظى منه بالكثير فهو مجرد مُستأجر ولا يعرف أي شيء عن المستأجرين السابقين، لكنه أرشدني إلى عنوان صاحب البيت. فانطلقتُ بسيارتي متسلحًا بالإصرار على أن ينتهي هذا البحث بشيء ذا جدوى.

أصابني الإحباط في مقتل عندما أخبرني صاحب البيت أنه لم يكن

يعرف "عصام عبد الحميد" بشكل مُقرب، ولم يسمع يومًا عن هذا الكتاب الذي أتحدث عنه والذي أخذه من والدي يوم انتحاره. لكنه قال بينما كنت أوليه ظهري للانصراف بعد أن وجهت له كلمة شكر مقتضبة:

- انتظر لحظة.

عاد يحمل جهازه اللوحي ويفتح أحد الملفات قائلًا:

- عادة قديمة، أحب الاحتفاظ بنسخ إلكترونية من عقود الإيجار، انظر فيه لعلك تجد ما يهمك.

تطلعتُ إلى العقد في لهفة، لكن لم تكن البيانات الساكنة خلف الشاشة المتوهجة هي ما أثارت اهتمامي، بل الصورة التي رافقت هذه الكلمات، صورة "عصام عبد الحميد" التي أعادت كل قطع البازل إلى مكانها الصحيح!

صورة الحاوي الذي نجح في خداع الجميع!

غادرت بيت الرجل وما إن انطلقت بالسيارة حتى كنت أتصل بـ"شهاب" وأقول له:

- أحتاج إلى مساعدتك يا ابن عمتي، هل يسمح وقتك بذلك؟

***

كانت الزيارة الأخيرة في هذا اليوم من نصيب الفتاة التي تحمل كِلا وجهيها الطيب والقبيح في حقيبتها وتبدل بينهما بسهولة تبديل جواربها. نظرت أمها نحوي بتوجس، ولم تكن "شهد" بأقل قلقًا منها، راوغتني كثيرًا، وكنت أعلم أنها ستفعل؛ كان لا بد لي من أن أحمل في جعبتي الكارت الأخير الذي سيتفوق على كل الأوراق فوق الطاولة. وللأسف لم يكن في حوزتي مثل هذا الكارت، فلوحت أمامها بورقة التهديد:

- لقد عرفت الكثير بالفعل، وسأفضح كل مخادع منافق أمام الجميع، لا تظني أن تهديدي هذا عبثًا، إن كنتِ خائفة من المصير الأسود الذي أعده لكم فيجب عليكِ أن تنقذي نفسك بإخباري بتفاصيل اللعبة التي شاركتِ فيها.



لم يبدُ أن تهديدي أحدث في نفسها أثرًا ما، أو هكذا ظننتُ، حتى عُدت إلى بيتي في المساء بعد يوم مثقل بالبحث والتفكير. وكانت هذه هي المرة الأولى التي أعرف فيها أن هاتفي مُخترق، ويتم التجسس على كل ما فيه! وذلك عندما قفزت نافذة تغطي شاشته تحدثني "شهد" من خلالها، تُرى ماذا تُخفين في جرابكِ أيضًا يا فتاة.

أخبرتني أنها لا تستطيع محادثتي وجهًا لوجه ولا من خلال الهاتف، وأنها ترى أن هذه الطريقة هي الأكثر أمانًا، ورغم ضيقي من المحادثات الكتابية خاصة إن كانت على هذا القدر من الأهمية إلا أنني لم أجد سبيلًا آخر للوصول إلى بغيتي. وكان شرطها الأول والأخير:

- خدمة أقدمها لك، مقابل خدمة تقدمها لي.

لم يبدُ لي أن هذا الشرط مقبول كثيرًا، خاصة إن كانت الخدمة التي ستطلبها مني تشمل أي عمل غير قانوني. أحببت أن أكون الطرف المسيطر لذلك كتبتُ لها:

- وهل ما ستقدميه لي يستحق؟

فكتبتْ:

- الحكم لك، يكفي أن أخبرك أن لقاءك بـ"آسية" لم يكن صدفة، بل

لقاء مرتب له منذ اللحظة الأولى، وبمساعدة "جميل" بدا لك كل شيء كما لو أنه لا يد لبشري فيه، عندما علم "إدريس" من مصادره بالخارج برغبة أمك في العودة، ظن أنها ستأتي لتعطيك أخيرًا الإرث الذي أفنى عمره في البحث عنه، البحث الأخير لوالدك والذي بمقدوره عكس عملية اختفاء الحبر.

غابت لدقائق ثم عادت لتكتب:

- "إدريس" كالطباخ الماهر الذي يصبر على الطعام بالقدر اللازم لكي ينضج، وقد صبر على خطته طويلًا، كان يعرف عنك الكثير، والعقبة الكبرى في طريقه هى أنك لا تثق في أحد، لذلك لم يكن بمقدوره أن يظهر أمامك فجأة، فأحضر لك شبح الماضي ووضعه ماثلًا أمام عينيك، "آسية" هي الشخص الوحيد الذي ستتخلى عن حذرك معه.

مدفوعًا بإحساس كبير بالذنب يثقل ضميرك.

لم أشأ أن أقاطعها بأي سؤال، وتركتها تسترسل في الحكي. فكتبتْ:

- وعلى الرغم من أنك لم تتعرف عليها إلا أنها لم تكن الشخص الوحيد الذي يعتمد عليه "إدريس" ليكسب ثقتك، فهناك "شريف" و"جميل" و"نيفين"، أي جميع من يحيطون بك كانوا عرائس ماريونيت وخيوطها ملتفة حول أصابع "إدريس" وحده.. وفي الوقت المناسب زاد من حرارة النيران أسفل طنجرته، عندما دفع بأختك لتنال عقاب "شريحة الأحلام".. لم يفعل ذلك إلا عندما تأكد ألا ملجأ لك إلا إليه. تمامًا كما أراد منذ البداية، فحدثك عن الإرث وفعلت أنت ما بوسعك لإيجاده وتسليمه إليه لإنقاذ أختك.

بدا وكأن نار البغضاء تُلهب كل سنتيمتر من جسدي، وقلبي يغلي مَراجل العداوة، أقسمتُ بمن رفع السماء بغير عمد أن أجعله عبرة لمن يعتبر.

- لماذا كنتِ تضايقين "عنبر" بتصرفاتك إذًا؟ لماذا خاطرتِ بنزع العلاقة بينكما؟

بدا تصرفها تجاه "عنبر" غير منطقي، وأفسد خطة الحقير "إدريس" لذلك سألتها، لم أرَ وجهها لكن كلماتها كانت تنضح بالحنق:

- كرهتها لأنها السبب في ألا أعيش مع "شريف" علاقة طبيعة في العلن، رفض "إدريس" أمر خطبتنا حتى لا يثير ذلك شكوكك وشكوك "آسية".. عام كامل أتلوى فوق الجمر، أما هي فكانت تقترب يومًا بعد يوم من الرجل الذي أحبته دون أن يعيقها شيء، لم أكن صديقتها قط، كنت أراقبها وأهتم بها وأعتني بها مدفوعة بتعليمات "إدريس"، كنت بحاجة إلى المال، وكان هو يمنحني إياه، فأصبحت أسيرة بين جدران عالم تلك العمياء.

دفعني الغضب إلى أن أكتب لها:

- بإمكاني الآن أن أكتفي بما قلتِ وألا أقدم الخدمة التي أردتِها.

أرسلت ضحكة طويلة أثارت حنقي، وكتبتْ:



- لن تفعل، لأن الخدمة التي ستقدمها لي تهمك أنت أيضًا.

لم أعقب على كلامها، فكتبتْ:

- "شريف"، لا أريده أن يعرف أنني كنت على علم بأن "رابطة الدم" قائمة على الوهم والخداع وليس أكثر، أريدك أن تساعدني على إبعاده عن "إدريس". فهو يثق فيه كثيرًا ومهما حاولت إبعاده فإنه لا يستجيب أبدًا، حتى إنني هددته بأن أفضح الخطة أمام الجميع إن لم يلاقِني في مكتب "آسية"، كنت أقوم بتصرفات متهورة لأنني أردتُ كثيرًا أن تفسد الخطة دون أن يعرف أنني كنت أعرف بزيف "رابطة الدم" منذ البداية، لكنني لم أستطع ذلك، ليس من طريق آخر سوى أن أطلب منك مساعدتي على كشف الحقيقة أمامه دون أن تشير إلى تورطي في هذا الأمر، أريد أن أحيا أنا وهو بأمان بعيدًا عن هذا المستنقع القذر.

- "رابطة الدم" زائفة! كيف؟

- لا أعرف، ليس لدي دليل، مجرد ظن أن لا شيء مثلما يبدو.

***

ذات مساء عندما كنتُ في الخامسة عشرة، ألعب بالكرة في الشارع مع أبناء الجيران، ركلت الكرة بعنف لأستحوذ على صفير الإعجاب من الناظرين، فإذ بالكرة تدور لتصطدم بالباب الزجاجي لمحل عم "نسيم" الحلاق، خرج الرجل من محله كالثور الهائج، أشار أولاد الحي نحوي؛ فأصبحت وشاحًا أحمر لم يقاوم عم "نسيم" إغرائه كثيرًا. خلصني المارة من تحت قدميه بأعجوبة، بت ليلتها في فراشي أتحسس الكدمات التي تغطي جسدي، أسد أذنيّ عن تعنيف جدتي، وأتوعد الرجل بصفعة لن ينساها.

أسررتُ بنيتي إلى فتى من فتيان الحي يُقال له "المُفتاح" لأن أعتى الأبواب المغلقة تنساب مفتوحة بين يديه كالماء الزلال، جاء معي وعلمني كيف أفتح دكان عم "نسيم"، وصرت يوميًا أتلذذ باقتحام دكانه والعبث بأغراضه، كاد الرجل أن يفقد عقله، فالمقتحم لا يسرق وإنما فقط يُبعثر الأغراض فيقضي هو نصف النهار في إعادة ترتيب دكانه قبل أن يتمكن من

استقبال زبائنه، حتى أصبح يقضي الليل جالسًا على كرسي خشبي بجوار الدكان المغلق، يتدثر بالصقيع، ويستظل بهزيم الرعد في يناير.

ما إن ولجتُ إلى الطابق السفلي من محل الأنتيكات حتى شكرتُ "المفتاح" في سري، إذ كان من القليلين الذين علموني ما يفيد! كانت السلالم تؤدي إلى غرفة واحدة صغيرة المساحة، لم يكن هذا ما توقعته، ظننتُ أن المكان سيكون أكثر إثارة وغموضًا من مجرد مكتب وأريكة وبضعة أغراض هنا وهناك. تراقص ضوء الكشاف فوق الجدران، لا شيء معلق سوى لوحة بها صفحة فارغة مقطوعة من كتاب ما.

على المكتب أغراض قليلة، قلَّبت فيها بدقة شديدة لكن لم أجد ما يثير اهتمامي، فتحتُ الأدراج واحدًا تلو الآخر، أخرجت ما في بطونها، تفحصتها، ثم أعدتها بالترتيب ذاته. وقعت أنظاري في الدرج قبل الأخير على كيس ممتلئ بالدماء، ولا أدري لماذا أخذته ودسسته في جيب معطفي، كان هناك شخص يهتف بداخل رأسي ويأمرني أن أفعل.

صعدتُ الدرجات القليلة ببطء، لكن أقدامي تجمدت عند الباب الذي يصل القبو بمحل الأنتيكات عندما سمعت صوت "إدريس" يتحدث إلى الهاتف، وهو يفتح المحل بالمفتاح. تواريت خلف مجسَّم في أحد الأركان، قرأت ما كُتب فوق لافتته بضوء فسفوري "الجندي المجهول".

ما إن نزل "إدريس" درجات القبو حتى انطلقتُ كالرصاصة من باب

المتجر الذي تركه مفتوحًا، ومنه إلى سيارتي التي أوقفتها في الشارع الخلفي، ثم أسرعتُ مبتعدًا عن المكان وأنا أدس كيس الدماء أسفل مقعدي.

***

كانت واسطة "شهاب" كافية لأن يفتح أحد أطباء التحاليل معمله في هذه الساعة المتأخرة، رأيتُ الخوف يرتسم في عينيه عندما أخرجت كيس الدماء من جيبي، سألني أي تحليل أريد أن أخضع عينة الدماء له، لم يكن لدي جواب، فقط فكرة قفزت إلى ذهني بعد حديثي مع "شهد"، قلت له:

- لا أعرف، افعل بها ما بوسعك.



جذبتُ مقعدًا وراقبته وهو يتحرك في معمله، فلاحت لي ذكرى والدي الحبيب، أمزجها بتخيل كيف سيكون حالي الآن إن كان لا يزال على قيد الحياة. ظننتُ أن الأمر سيطول، وأننا سنقضي الليل كله نخضع العينة إلى كل التحاليل الممكنة. لكن تحليلًا واحدًا كان كافيًا جدًا لأن أفهم أي خدعة قذرة مارسها "إدريس" ومن معه على الجميع.

***

كنت بحاجة لمزيد من الأدلة، لن أتسرع في إصدار أحكامي، كان الدليل الأخير بحوزة "آسية" ورغم أنني أحببتُ أن أبقيها بعيدة عن كل ذلك إلا أنني كنت بحاجة إلى مساعدتها.

أغلقتُ باب السيارة وأنا أتطلع يمنة ويسرة لأتأكد أنني بمأمن عن العيون المتلصصة، دخلت شارعًا ثم خرجتُ منه إلى آخر حتى وصلتُ إلى سيارتها المتوقفة في المكان الذي حددته لها بالضبط، اقتربتُ من مقعدها ورفعتً كفي لأحيي "جميل" الذي يحتل مقعد السائق. سألتها لأتأكد:

- هل أنتِ واثقة أن هذا الكتاب كُتب بدمائك؟

- نعم واثقة، لماذا تريده، ألن تخبرني يا "ماهر"؟

- سأخبركِ بكل شيء، فقط دعيني أتأكد أولًا.

- من ماذا؟

تركتٌ سؤالها معلقًا وأخذت من يديها الحقيبة الصغيرة، ودعتها وعدتُ من طريق آخر إلى سيارتي ومنه إلى معمل صديق "شهاب"، أخرجتُ من الحقيبة الكتاب الذي يحويه فاتسعت عينا الرجل في فزع وهو يتطلع إلى الكلمات التي تسود صفحاته بلون أحمر زاهي، دار في معمله والخوف يحتل مكانًا بارزًا من قسماته، يتأكد من إحكام إغلاق النوافذ والأبواب، ساعة واحدة كانت كافية ليعطيني الجواب الذي أنتظره:

- كما توقعت، هذا الكتاب لم يُكتب بالدم!

***

أخيرًا فهمت كل شيء.

نظرتُ إلى ساعة الحائط التي تبعد عقاربها عن منتصف الليل بنصف ساعة.

نصف ساعة فقط تفصلني عن إثبات كل ما توصلت إليه، وإثبات صحة ما روته لي "شهد"، نصف ساعة وتنتهي المهلة التي أعطاني إياها رجال الباشا لتسديد ديني.

وأنا الآن بت واثقًا أن كل هذا مجرد خدعة محكمة دبَّرها حواة مهرة للإيقاع بي، ستمر الدقائق، ونتجاوز منتصف الليل ولن يحدث أي شيء، لن يأتي أحد لقتلي، وعندها سأتأكد أن كل ما عشته كان مجرد خدعة.

الثانية عشرة إلا ثلاث عشرة دقيقة، وضعت كفيّ في جيبيّ بنطالي ورفعت هامتي إلى السماء الحالكة بالخارج، القمر غائب عنها الليلة، فأوانه لم يأت بعد، لكن نوره سيبزغ بعد أيام ويضيء الظلمة رغم أنف الجميع.

الثانية عشرة إلا دقيقة، استرقت النظر إلى الشارع الساكن، صوت قط يموء من بعيد، المسكين يبدو وحيدًا ويبحث عن رفيق.

تزامن صوت ساعة الحائط مع جرس الباب! ارتعدت فرائصي للحظة، ثم تذكرت الأغراض التي طلبت من البقال إحضارها.

توجهت إلى الباب بثقة، أمسكت بمقبضه وأدرته في يدي وعلى وجهي ابتسامة صغيرة، لكنها تبخرت في الهواء، أخذ الخوف كل آمالي وأخفاها كلاعب خفة محترف.

تبادلت النظر مع رجل ملثم يتشح بالسواد يصوب فوهة مسدسه المزود بكاتم للصوت تمامًا إلى منتصف جبهتي!



(٥٠)

الكتاب الذي سيقرأه الجميع!

كان صديقي البشري على غير عادته، شاردًا ولا يفضي بالكثير، حاولت جره إلى البوح فجرَّني إلى النوح. فجعني بقوله:

- يجب أن تختفي.

كيف به يريد موتي وأنا الذي رافقته من عمري عدد سنين، وكنت له خلًا وفيًا، ومعلمًا حريصًا، وناصحًا صدوقًا.

فأتبع مقاله بـ:

- ستختفي عن أعينهم، لكنك لن تموت.

ثم استطرد والخوف يعبث بكل خلجة من خلجاته:

- إنهم يعرفون ما توصلت إليه، يعرفون أن بإمكاني إخفاء أي شيء على وجه الأرض، يعرفون كل تفاصيل أبحاثي عن "المادة المضادة"، أنت لا تعرف في أي عالم نعيش اليوم، سيحولون أبحاثي إلى أبشع الكوابيس، يجب أن أخفيك أنت وبحثي الأخير، ثم أختفي أنا أيضًا من الوجود.

ابتسم بشغف ونظر صوبي بعينين واسعتين تتحركان بجنون وهو يردف:

- ألم تُعلمني أنك لا تموت ما دمت محفوظًا في الصدور، وتفكر فيك العقول؟ أنا لن أحفظك في الصدر والعقل، بل بجوار مجرى الدم، إكسير الحياة.

راقبته وهو يتحرك في معمله يقوم بعجالة بتجهيزي للاختفاء، لم أصدق أن هذا سيحدث الآن، لم يطلب رأيي، صار يملك من العلم والفهم والحكمة أكثر مما أمتلك، فأصبحت له عبدًا مطيعًا.

قبَّل وجهي طويلًا، وأراق فوقه دمعات غزيرة.. ثم وضعني في جهاز

غريب، وأغلقه.. وحين طالعني وجهه مرة أخرى كنتُ قد أصبحتُ مجرد رزمة من الأوراق بلا فائدة.

أثق في صديقي البشري إلى الحد الذي جعلني أسترخي ولا أفكر في القادم..

ولماذا أفكر وأنا سأعيشه على كل حال، نعم لن أموت، أثق أنه لن يسمح بذلك. دوَّن فوق آخر صفحاتي بحبر كان إكسير الحياة لإحدى الأشجار النادرة:

- الإرث في أمان، استودعته ذريتي من بعدي، أنت حي الآن!

وآخر ما سمعته منه كان:

- لقد كنت محقًا، الكتب لا تُعلمنا كيف نحيا، بل التجارب تعلمنا كيف نقرأ، وبالقراءة نزداد فهمًا لأنفسنا.

بعدها لم أسمع صوته مرة أخرى.

كنت قد قضيت الأيام السابقة في تتبع أخبار الأحوال غير المستقرة لبلاده، آخر ما قلته له وقد بات قريبًا وقوع ما أخشاه:

- أخبرني كتاب[1] ذات سمر عن قصة ضُفدع اسمه "كَرَم"، وُضِع في ماء ساخن فقفز سريعًا من هول الصدمة.. من هول القهر، أنقذ رد فعله السريع حياته، لكن عندما وُضِع "كَرَم" في ماء فاتر، وارتفعت حرارة المياه ببطء شديد، لم يشعر "كَرَم" بما يحيق به من خطر، ولم يتخذ أي ردة فعل، وعندما وصلت المياه إلى درجة الغليان.. تحوَّل "كَرَم" إلى ضفدع مَغلي!

لم أتحدث بعدها نهائيًا، وانتظرتُ اللحظة التي سأُبعث فيها من جديد.



١ - التخلف الاجتماعي لـ مصطفى حجازي



(٥١)

عنبر

كم كان يومًا عصيبًا قضيته وأنا أتلوى فوق نار الشك، في ذلك اليوم طلب مني "ماهر" ألا أبوح لخالي "إدريس" بما عرفته من أمر اتصال "شهد" من هاتفه، ففعلتُ ما طلب على مضض.

ازداد شكي بوجود أمر يخفيه عني، وذلك عندما عاد إلى البيت وسألني بلهفة إن كنت وجدتُ هاتفي، وأنه بحث عنه في كل ركن من الشركة ولم يجد له أثرًا، أخرجت له الهاتف من جيبي وقلت له:

- أعتذر أن سببت لك هذا الإزعاج، كان هنا طوال الوقت، يبدو أنني لم أبحث عنه جيدًا.

أخذ الهاتف مني وقال وهو يقبل جبيني:

- سأرسله للتصليح، لا تنتظريني في المساء يا حبة القلب، سأتأخر بعض الشيء.

وفي المساء عاد ومعه الهاتف، وعندما تنقلتُ بين ملفاته وجدته أعاد ضبط بياناته، وقد مَحى ذلك كل ما كنت أحتفظ به على الهاتف، وبالطبع قائمة المكالمات الواردة أيضًا.

لم أسأله عن شيء، لأنني خفت من الجواب.

وعندما اتصل بي "ماهر" وطلب مني الكتاب الذي أحتفظ به والذي كُتب بدمائي، لبيت مطلبه، وأخبرته بحادثة اقتحام اللص لمنزلي، وبكلماته التي لم أستطع تفسيرها، ثم انتظرت أن يفي بوعده ويكشف لي عما خفي عني.

***

بعد عدة أيام، نزلت من السيارة برفقة خالي "إدريس". أمسك بذراعي كي لا تزل قدمي وأسقط. سألته أين نحن فقال:

- مكان يتم فيه إنشاء برجٍ شاهق، الطوب والأسمنت وأسياخ الحديد في كل مكان، لكن الغريب أنني لا أرى أي أحد.

سرت معه دون كلمة أخرى. رن هاتفه فأجاب على المتصل في توتر وهو لا يزال ممسكًا بذراعي قائلًا:

- إن كنت تخدعني... حسنًا أنا قادم الآن.

ساقني للسير مرة أخرى. سألته عما يحدث فقال بصوت ملأه الانفعال:

- "ماهر" عرف أين أخفى والده الإرث، لكنه أصر ألا يخبرني إلا إذا أحضرتكِ معي إلى هذا المكان.. آه.. ها هي السَقَّالة التي وصفها لي وطلب مني أن ألقاه عندها.. ما هذا؟ ماذا يفعل هؤلاء هنا؟!

سألته عمن يقصد فأجاب بضيق:

- من يا خالي؟

- "شريف". و"شهد". و"نيفين"!

اقتربنا منهم فلم تكن دهشتهم بأقل من دهشة خالي. كل منهم قدم إلى هذا المكان للسبب نفسه، وهو ملاقاة "ماهر". رن هاتف خالي فأجاب منفعلًا:

- هل تمزح معنا يا ماهر؟ نعم! كيف تريدنا أن نفعل ذلك... اسمع إن كانت خدعة... حسنًا. حسنًا.

أنهى المحادثة ثم التفت لنا وقال:

- يريدنا أن نصعد إلى السَقَّالة، سترتفع بنا إلى حيث الطابق الذي ينتظرنا فيه، ويجب أن نكون جميعنا معًا.

عارضت "نيفين" بشدة لخوفها، لكن خالي أمرها بحزم أدهشني، فلبَّت على الفور أوامره!

ما إن وقفنا جميعًا في منتصف السَقَّالة الخشبية الكبيرة المحاطة



بسور من ثلاث جهات ـ كما وصفها لي خالي عندما طلبت منه أن يفعل ـ حتى ارتفعت عن الأرض. تشبثتُ بقوة في السور الذي يصل إلى خصري، ولم ينطق أحدنا بكلمة، وأخيرًا توقفت السَقَّالة وهي تترنح في الهواء، همست "شهد" الواقفة بجواري وهي لا تعرف أنني أسترق السمع:

- "شريف" أنا خائفة.

ويبدو أنه أسكتها، لأنها زفرت بضيق ولم توجه الكلام إليه ثانية.

عندما هتف خالي بحدة:

- لماذا أحضرتنا إلى هنا؟!

عرفت أن "ماهر" ظهر أخيرًا، وصدق على ظني صوته وهو يقول:

- ألست ترغب في رؤية إرث أبي؟

سأل خالي بشك:

- هل هو هنا؟

أجابه "ماهر" بغموض كبير فاحت به كلماته:

- ستعرف بعد قليل.

***

(٥٢)

ماهر

اليوم لا عاصم للخائن.

يقفون جميعهم فوق السَّقالة الخشبية، وتحت رحمتي! تلاعبوا بحياتي، والآن سأتلاعب بحيواتهم.

نظرتُ مطولًا إلى وجه "إدريس"، كان يواري الخوف خلف قناع غير مُحكم، يحكُّ بارتباك شامة بحجم عقلة الأصبع تعلو حاجبه الأيسر!

تحدثتُ إليهم وأنا أضم كفيّ خلف ظهري:

- القانون الأول: ممنوع النزول من فوق السقالة.

توقفت السقالة عند جسر خشبي يقود إلى أحد الطوابق، وفوق هذا الجسر أقف وأنا أحدق بنظري في وجوههم المذعورة واحدًا تلو الآخر. أردفتُ:

- القانون الثاني: إذا تم مخالفة القانون الأول فسترتفع السقالة بضع سنتيمرات في الهواء عن كل شخص ينزل منها، وكما ترون لا جسور فوق رؤوسكم، فقط هذا الجسر الذي أقف عليه، أي أن السقالة ستبقى معلقة في الهواء ولن تطال أقدامكم أرض الجسر، المعبر الوحيد لخروجكم من هنا سالمين.

هتفت "شهد" بجنون:

- لماذا تفعل هذا بنا؟

تجاهلتُ صراخها، لم أخن عهدي معها، فقط ارتأيتُ أنها تستحق العقاب، ولو قليلًا. أكملتُ كلامي وأنا أشير إلى الجهة الأخرى خلف ظهورهم:



- كما ترون السقالة التي تقفون عليها متصلة بسقالة أخرى خلفكم ككفتي الميزان، السقالة الثانية تحوي أثقالًا توازي أوزانكم تقريبًا، لهذا تتأرجحان في مستوى واحد، أما إذا خف الحمل على السقالة التي تقفون عليها، فستهبط سقالة الأوزان إلى الأسفل، وكما ترون تحت سقالة الأوزان حاجز إذا ارتطمت به ستنقلب وتتساقط منها الأوزان، وعندها ماذا سيحدث؟

أجبت سؤالي بابتسامة جزلة:

- ستهوى السقالة التي تقفون عليها مباشرة إلى الأرض ثم... بُم.

أصدرت صوت فرقعة بفمي، فرأيتُ الخوف يحتل بارزًا كل خلجة من خلجاتهم.

هتف "شريف" بخوف حقيقي:

- "ماهر" أرجوك توقف عن المزاح، سار الأمر سخيفًا كثيرًا.

استعاد صوتي جديته وصحت في اتجاه الرياح:

- ولماذا لم تتوقف أنت يا "شريف"، لماذا اشتركت معهم في هذه الخدعة، أفهم أسباب "إدريس" و"شهد" وحتى "نيفين".. لكن أنت.. أنت يا صديقي ماذا كان هدفك؟

تصبب من جبينه العرق وهو يهتف:

- لا أفهم عما تتحدث، يبدو أنك أسأت فهم كل شيء.

صدقت بمرارة على كلامه وقلت:

- نعم، بالفعل أسأت فهم كل شيء، وأنت أول هذه الأشياء يا صديقي، كنت على علم بكل شيء من البداية، أقنعك "إدريس" بشكل ما أن تعمل لصالحه وتكون جاسوسه الأول الذي ينقل له كل أخباري، وفي الوقت نفسه رجُله الذي يُحسِّن من صورته أمامي ويدفع بي إليه حتى يبدو الأمر وكأنه لم يسعَ نحوي قط، أنت خير من يعرف أنني لا أثق بالآخرين أبدًا، لذلك احتجتم لخطة طويلة الأمد حتى يفوز "إدريس" بثقتي، "إدريس" الذي ما إن سمع عن عودة أمي من الخارج حتى ظن

أنها عادت محملة بإرث أبي العظيم، ونسج خيوط هذه الخدعة ليجعلني ألتجئ إليه.

ثم صحت بحدة:

- بماذا وعدك يا "شريف"، بالمال، بتسديد ديونك، هل كان الأمر يستحق؟ هل استحق المال أن تخسر من أجله صديقك الوحيد؟ هل استحق المال أن تدمر أخته بيدك يا "شريف"؟

هتف بانفعال:

- لم أعرف بأمر "أروى"، صدقني لم أعرف.

ثم أطرق برأسه يهرب بعيونه من وجهي، أما "نيفين" التي كانت تدندن سابقًا في مكتبي حول الرحمة صرخت تستجديها:

- أرجوك مستر "ماهر" لا شأن لي بكل ذلك، أنا لا يهمني أي شيء سوى...

قاطعتها:

- نفسك، سوى نفسك أعرف ذلك، صدقي أو لا تصدقي يا "نيفين" أنتِ الشخص الوحيد بينهم الأكثر وضوحًا على الإطلاق، أنت لا تخدعين نفسك ولن تتحدثين الآن عن قيم ومبادئ لا تملكيها، لأنكِ لا تمنحين ولاءكِ لأحد، ولاؤكِ الوحيد للمال فحسب، لذلك أنت واضحة جدًا بالنسبة لي، لم ترَيْ أي غضاضة في دفعي إلى الظن أن "أروى" هي التي سرقت المعلومات، وأوحيتِ إليّ بكلامك أن أبحث في أغراضها، وكنتُ أنا مدفوعًا بحكمي المتسرع وبتهوري المعتاد، علمتم فيّ هذه النقطة العمياء وأحسنتم استغلالها.

قالت بابتهاج كبير:

- إذًا أيمكنني المغادرة مستر "ماهر"؟

قلت بهدوء:

- لكِ ميزة لم أمنحها للآخرين، وهي حرية المغادرة إن شئتِ، لكن اعلمي أن السقالة سترتفع عدة سنتيمرات إلى الأعلى إذا نزلتِ منها.



لم تفكر "نيفين" مرتين، وضعت قدمها فوق الجسر تستعد للنزول، فالشخص الذي تشتري ولاءه بالمال، هو أول البائعين لك عند أول عقبة. لكن "إدريس" سحبها إلى الخلف وهو يقبض على ذراعها بقسوة مُدرب سيرك خرج أحد الأسود عن سيطرته، حاولتْ أن تتفلت من بيد يديه وتضرب رأسه بحقيبتها، فنزعها منها وألقاها خارج السقالة، هوت الحقيبة لترتطم بالأرض بعنف.

التفتت "نيفين" الحانقة إلى "إدريس" وصاحت:

- ماذا تريد مني بعد، ليس لك حق في احتجازي هنا، انتهى العمل بيننا ماذا تريد مني؟

انطلق الشرر من عيني "إدريس" وهو يقبض على ذراعها بقسوة ويزمجر:

- اصمتي يا امرأة.

كانت مشادة أخرى دائرة بين "شهد" و"شريف"، حاولت "شهد" دفعه إلى خارج السقالة لكنه رفض وصاح فيها وهو يدفع يدها عنه:

- لا يمكن يا "شهد"، سترتفع السقالة ولن يتمكنوا من المغادرة.

هتفت "شهد" بخوف أذهب بعقلها:

- هيا يا "شريف" أرجوك، هل تراهم سيفكرون فينا، لن يهتم كل منهم إلا بنفسه، هيا أرجوك قبل أن يقرر أحدهم النزول قبلنا، أرجوك يا "شريف" لا أريد أن أرحل من دونك.

دفعَته "شهد" ثانية، فوقف جامدًا يقاوم إصرارها، لكن الحيرة أطلت من عينيه بشدة وهو ينقل بصره بين السقالة والجسر الذي أقف عليه.

انفجر "إدريس" بغضب هادر:

- أنزلني من هنا فورًا.

أتبع كلامه بأن أخرج هاتفه من جيبه، لكن يبدو أن عدم وجود تغطية في هذا المكان المرتفع أصابه بمزيد من الغضب فاحتقن وجهه بعروق تضج

بالدماء الثائرة.

- نعم والآن نأتي إلى "إدريس" باشا، أم نقول "عصام عبد الحميد"، المندوب البسيط بشركة الشحن الذي سرق طردًا ليس من حقه وأخفاه عن صاحبه.

توقفت أنفاس الجميع لبرهة، يطعنون وجه "إدريس" بحدة نظراتهم، التفت "إدريس" إلى ابنة أخته بذعر ثم وجه إليّ كلمات غاضبة آمرًا إياي بالتوقف عن الحديث. لم أستجب إلى تهديده وأردفتُ وكأنني لم أسمعه:

- علمت أن المرسل إليه هو زوج أختك الثري، وفكرت أن هذه فرصة عمرك لو أحسنت استغلالها، ماذا فعلت بعد ذلك يا "عصام" هل ساومت عمي "مالك" على الكتاب وهو لا يعرف أن صفحاته خالية؟ هل ساومته أيضًا على الأوراق التي رافقت الكتاب؟ وماذا حدث بعد ذلك هل هددك؟ أم أنك من ذهب إليه ليبتزه بعد أن عرفت أن الشرطة تبحث عن كل ما يخص "أكرم سراج".. أبي؟

حاول أن يوقفني عن الكلام ثانية لكنني استطردت بحدة:

- قبضت الشرطة على عمي "مالك" وصادرت كل ما في بيته وشركته من أوراق، وعندما عرفت أن جهات عليا بالبلد رصدت مكافأة ضخمة لمن يدل على أوراق أبي البحثية، سلمتها لهم، لا تتعجب فقد عرفت الكثير من خلال أرشيف الجرائد الإلكترونية، وبعد أن انتهى الأمر لم تكتفِ بالمال، أحببت أن تكون كارتًا في مجموعة أوراق "الحاوي"، أليس كذلك؟! غيَّرت اسمك واسم ابنة أختك.. حتى يموت كل شيء عن "عصام" و"عنبر".

ثم ابتسمتُ قائلًا:

- لكنك لم تكن مجرد كارت عادي، كنت كارت "الآس بستوني"، الكارت الوحيد الذي تتغير قيمته من لعبة لأخرى! استطعتَ أن تخفي الكتاب عن الجميع، لأن العبارة المكتوبة في آخره أنبأتك أنه يحوي سرًا خطيرًا، الطريقة الوحيدة التي ستُعيد الحبر المفقود، وإن عرفت أين أخفى أبي هذا الإرث سيكون بإمكانك أن تبيعه لهم أو لغيرهم، لذلك انتظرت



بصبر سنوات طويلة، أثق أنك خلالها كنت تراقبني وأختي، بل وتراقب أمي في الخارج وأنت على علم بكل خطواتنا، حتى إنك كنت تعرف ما أجهله عن أختي، عرفت بأمر سرقاتها واستغللت ذلك عندما أردت أن تدمرني حتى لا يكون لدي أي شخص ألجأ إليه.. سواك.

غلت دمائي في مرجل الغضب وأنا أصيح به:

- أرسلت إليّ رجالك يضربوني لأصدق أن الباشا يسعى خلفي من أجل أمواله، كنت تعرف أنني لن أجرؤ على الاتصال بالباشا أبدًا، وأنني سأصدق أنه بهذه الخسة، فدومًا كنتُ أرى الأثرياء بهذه الخسة، أليس كذلك؟ للمرة الثانية تنجح في استغلال قناعاتي المسبقة، كنت تعرف أنني أكره الأثرياء وأتوقع منهم كل أنواع القذارات لذلك لم يتطلب إقناعي سوى القليل من جهدك ووقتك، سرقت مالي لنفس السبب الذي جعلتني من أجله أظن بخيانة "أروى".. وهو أن تحطمني تمامًا.. تماديتُ في خطتك وفي رغبتك في أن أصدق أن حياتي معرضة للخطر إلى الحد الذي جعلك ترسل لي منذ يومين رجلًا ملثمًا يحمل مسدسًا ويتظاهر بأنه قادم لقتلي، لولا معرفتي بالحقيقة لما انتبهت إلى أنني استطعتُ التغلب عليه بسهولة ونزع السلاح من يده قبل أن يفر هاربًا.

تفلتت "نيفين" من بين يدي "إدريس" أو "عصام" الاسم الذي مات وأعدتُ أنا للحياة من جديد. خرجت "نيفين" من السقالة فارتفعت عن الجسر، هرولت تمر بي دون أن تلقي نظرة واحدة إلى الخلف. صرخت "شهد" وهي تتشبث بـ"شريف" الذي أحاطها بذراعيه وهو ينظر إلى غير مصدق أنني كنت جادًا في تهديدي، يرجوني ويتوسل لي أن أسمح لهم بالنزول، أما "عصام" فأرغى وأزبد وهو يصرخ:

- كنت أحمق وما زلت، أنت لا يهمك أحد غير "ماهر" لذلك أنت عاجز عن رؤية الهدف والغاية الكبرى، أنت أحمق لم تستطع أن تهتم بالآخرين كما أهتم أنا، كنت عاجزًا عن أن تمنح بلادك والتاريخ قطرة دم واحدة أما أنا فمنحتهم كل شيء، لم تهتم بالبحث عن إرث والدك إلا عندما اضطررت إلى أن أدخل أختك في القصة وترى عذابها بعينيك، لو كنت رجلًا حقيقةً لما اضطررتني إلى أن أجعلها تخضع لعقاب زرع "شريحة الأحلام" لتساعدني.. لتساعدنا.

صرختُ به بقسوة:

- أي مخادع أنت، هل ما زلت تخدع نفسك بهذا الحديث عن البلاد والتاريخ، لقد خدعتنا جميعًا، كنت السبب فيما أصاب شبابنا، دمرت حياتهم ومستقبلهم وما زلت تدعي الوطنية! قل لي أي فائدة عادت علينا من تدوين كتب لا يقرأها أحد؟! جعلتهم يؤمنون بقضية وهمية وضخمتها في عيونهم بالشعارات الرنانة فقط من أجل مصالحك الخاصة.

فهتف بقسوة مماثلة:

- تتحدثون الآن عن بلادكم التي أغرقتموها في بحور الدم، لم يوقفكم أي عقاب وقتها، هدمتم كل شيء فوق رؤوس الجميع، أصبتم بسعار الدم فلم يعد يشبعكم غيره..

كان لا بد من تدمير أحلامكم لأنها موطن كل داء، كان سيُطبق عقاب "شريحة الأحلام" على كل من يحاول الخروج عن النظام، لكن أبحاث والدك وفّرت لـ"مجلس الوِصاية" أفضل غطاء، منحتهم السبب الذي يستطيعون به تمرير هذا العقاب..

أنشأنا "رابطة الدم" لنقطع الطريق على أي فكرة منحرفة ومغرضة تسعى لزعزعة وطننا، وجعلنا الناس يؤمنون بأهمية إعادة كتابة التاريخ في الكتب، لا الاكتفاء بتدوينها بصورة رقمية، الكتب هي القيمة التي دفعنا الجميع ليتجمعوا حولها.

ثم استطرد:

- لكن أتعلم... في البداية انضم إلينا الملايين، لكن ضربة السوط كانت شديدة وتترك أثرًا لباقي العمر لذلك قل أعداد المتشدقين بتبني القضية، والدفاع عن القضية، والموت من أجل القضية حتى صاروا بضع مئات..

أنتم أضعف من أن تؤمنوا بشيء وتستمروا في الإيمان به، أنفاسكم قصيرة لا تقوى على خوض الحروب الطويلة.

سألته وأنا أعرف الجواب:



- وهل يوجد كتب بالفعل أم أنها خدعة أيضًا؟

ضحك بغير مرح وقال:

- يوجد كتب، لكن الدماء وحدها لا تكتب التاريخ.

- كيف؟

- الحبر الوحيد الذي نجى من تأثير "المادة المضادة" هو سائل قرمزي تحتفظ به سيقان نوع من الأشجار اليمنية يُعرف بـ"دم الأخوين". أي أن دماءكم لا نفع منها أبدًا لا داخل أجسادكم ولا خارجها، حتى سعر الحبر أغلى من الدم.

ثم أشار حوله وهو بهذا الارتفاع عن الأرض وصاح:

- انظر إلى بلادنا الآن، نشطت السياحة وازدهر الاقتصاد بعد أن أصبحت أرضنا قِبلة للسُياح الذين يرغبون في رؤية تلك البلاد العجيبة التي اختفى الحبر من كتبها.. لقد قدمنا لبلادنا أعظم هدية، وأنقذناها من الحروب الأهلية..

والآن أخبرني.. أينا أكثر وطنية؟!

قفزت "شهد" يدًا بيد مع "شريف" فارتفعت السقالة أكثر نحو السماء، وقف "شريف" يبسط ساعده أمامي ليريني بقعة حمراء ملتهبة فوق وريده، كان "شريف" يعاني دائمًا من حساسية عند الحقن. قال بمرارة:

- لم أكن أعرف كل ذلك، لقد صدقته، كنت أمنحهم دمائي باستمرار رغم أنها دماء ملوثة بالمرض، كنت أفكر أنني بهذا أنقي روحي وأسمو بها.. بالفعل صدقته يا "ماهر"، جعلني أصدق أن كل القيم تنهار أمام خدمة الأوطان، حتى ولو كانت صداقة كالتي بيننا.

تجاهلته، لم أجد كلمة واحدة أجيبه بها، لم أكن غاضبًا مما فعل، بل لأنه سمح للآخرين بخداعه وتبديل مبادئه. نظرتُ إلى "شهد" بتقزز شديد، من جديد لا تهتم بمن تركَتْ خلفها، قفزتْ من فوق السقالة لتنقذ "شريف" ونفسها، تاركة خلفها فتاة كانت تُعاملها كصديقتها، بل كأختها.. لكنني تعلمت كيف أتحكم في غضبي لا أن أترك نفسي فريسة له، لم أخن

عهدي معها ولم أفضح سرها أمام "شريف". لم أخبره أنها كانت تعرف منذ البداية أن "رابطة الدم" لا نفع منها، هي فقط وسيلة لإلهاء شبابنا، ومنفس لتفريغ ثوراتهم وكل مشاعرهم التي يخشاها "مجلس الوِصاية"، كانت كتلك الخدع التي علمونا إياها ونحن صغار "بُص العصفورة"، لكن العصفورة هذه المرة كانت موجودة بالفعل، وتعلقت بها عيوننا بشدة.

لم أخبره كذلك أن "عصام" أراد عقابها لما فعلته بـ"عنبر" وتعريض المهمة للخطر، فهددها بزرع "شريحة الأحلام" في رأسها، كانت تلميذة نجيبة لحاوي محترف، احتالت عليه واتصلت بـ"عنبر" من هاتفه تستنجد بها، لكن لحسن حظه أن "عنبر" لم تسمعها جيدًا لضعف الشبكة، ولم تعرف وقتها أنها اتصلت بها من هاتفه، عرف "عصام" ذلك من "نيفين" التي رافقتنا إلى بيت عمتي.. فتراجع "عصام" عما كان سيفعله بها مخافة أن ينفضح أمره أمام "عنبر"، فتناست "شهد" كل شيء مقابل تراجعه عن معاقبتها.

مرا بجواري دون أن يجرؤ أي منهما على النظر إلى وجهي، التفتُّ وراقبتهما وهما يصلان إلى نهاية الجسر ويدخلان المبنى من نافذته الكبيرة.

نظرت إلى "عصام" وقلت بجمود وأنا ألوح بساعدي الملتف حوله ساعة المعصم:

- بداية من الآن سترتفع السقالة نصف متر كل دقيقة.

التفت "عصام" إلى "عنبر" يجذبها ويأمرها أن تقفز معه فوق الجسر، دفعته "عنبر" عنها والعبرات تغرق وجهها، تشبثتْ بسور السقالة وجسدها ينتفض بالبكاء وهي تقول:

- كنت تخدعنا طوال الوقت.

فأنكر بسرعة:

- ليس خداعًا يا "آسية".

صرختْ به:

- لا تقل لي "آسية".



حاول استمالتها بقوله:

- عندما تخبرين طفلًا أن بالغرفة عفريتًا حتى لا يفتح بابها فأنت بذلك لا تخدعيه بل تحافظين على النظام.

- أنت تقف أمامي وتخبرني أن كل ما ربيتني عليه كان خدعة، وتريد مني أن أتقبل ذلك، كيف؟ أين عدلك يا خالي؟

أمسك بكتفيها وهزها هزًا وهو يقول:

- كل ما ربيتك عليه هو ما أومن به حقًا، نحن فقط نختلف في أسلوب التطبيق، العدل قيمة يراها كل شخص حسب ميزانه الخاص.. أنت تعلمين أنك ابنتي التي لم أنجبها، تعلمين أنني محروم من أن يكون لي ابن أو ابنة، وأنني اتخذتك بديلًا عن كل أولادي الذين لم أنجبهم، أرجوكِ افهميني يا حبة القلب.

نزعت "عنبر" كفيه عنها وهي تهتف:

- لقد مات الناس وتعذب الكثيرون يا خالي في سبيل قضية غير التي يؤمنون بها، إن لم يكن هذا خداعًا فما هو الخداع إذًا؟!

- لكل حرب ضحاياها لقد علمتكِ ذلك.

- لم تكن حربهم كانت حربك أنت، قضيتنا كانت الكتب والتاريخ، العلم والحقيقة، وقضيتك كانت تزوير كل ذلك يا خالي، كنت تتلاعب بنا.

- كنت أحميكم من أنفسكم.

- وضعت كفك في أيدي أعدائنا.

- "مجلس الوِصاية" ليس عدوًا لكم بل أنتم أعداء أنفسكم.

- قتلوا أحلامنا وعذبونا ولا يزالون.

- عندما يخطئ الطفل يجب على أبويه عقابه، هذا هو واجبهما في التربية.

قالت بصرامة:

- لسنا أطفالًا، نحن ناضجون مثلكم.

أمرها بحدة:

- تصرَّفي كالناضجين إذًا ولا تغرِّدي خارج السرب.

فهتفت بتحدٍ صارخ:

- ومن الذي رسم للسرب خط سيره يا خالي؟!

يبدو أنه فقد أخيرًا كل ما في جرابه من خدع، التفت "عصام" نحوي وهتف وعروقه تنضح بالغضب:

- هل أنت سعيد الآن، هل تشعر أنك وطني؟

أجبتُ ببساطة شديدة:

- لا أعرف إن كنت أشعر أنني وطني أم لا، لكنني بالتأكيد أشعر بالسعادة لأنني كشفت أن كل شيء فيك مُقلَّد.. كحذائي.

ارتفعت السقالة نصف متر آخر، واقتربت سقالة الأثقال أكثر من الحاجز الذي سيقلبها رأسًا على عقب، حاول "عصام" جذب "عنبر" لكنها صرخت به أنها لن تذهب معه إلى أي مكان ولن تترك السقالة أبدًا، فصوَّب "عصام" نحوي نظرة قاتلة وهو يصرخ:

- لن تجرؤ على تركنا نموت أمام عينيك، أنت تحب "آسية" لن تؤذيها.

قلت متحديًا ببرود:

- هل أنت واثق حقًا؟ انظر خلفك، لم يبقَ سوى حركة واحدة وترتطم السقالة الأخرى ويختل توازن الميزان.

ما إن أنهيت كلامي حتى تحركت السقالة ببطء، فسارع "عصام" بالقفز نحو الجسر ليسقط مباشرة فوق ركبته، سجد على الأرض من هول الألم وهو يمطرني بالسباب واللعنات.

بإشارة من يدي هبطت السقالة نحو الجسر فقفزتُ إلى "عنبر" الباكية أسألها إن كانت بخير، أومأت برأسها إيجابًا، ساعدتها على أن تخط بقدميها فوق الجسر و"عصام" ينظر إلى السقالتين في ذهول، فمنحته ابتسامة هازئة وأنا أقول:



- كانت مجرد خدعة، لم تشكل السقالتان طرفي ميزان قط، كانت كل منهما تتحرك بشكل منفرد بمساعدة صديق.

هتف بغيظ انتفض له كل جسده:

- لم تجد إرث أبيك، كانت خدعة لإحضارنا إلى هنا، أليس كذلك؟

اتسعت ابتسامتي وأنا أقول:

- يبدو أن أبي مارس خدعة قاسية على الجميع، لا وجود لهذا الإرث أبدًا.

أمطرني "عصام" بالسباب وهو لا يقوى على الوقوف من الألم.. فبادلته بمثل نظراته واقتربت منه لأهمس بكلماتي الأخيرة:

- لن ترَ "عنبر" مرة أخرى إلا في أحلامك، ستحولها إلى كوابيس وتسرق النوم من عينيك.

هتف بانفعال ساخرًا بعدما أوليناه ظهرينا:

- والآن ماذا سيحدث، هل تنتظر كما يحدث بالأفلام أن تلقي الشرطة القبض على الشرير، ويعود الطيب إلى بيته في سعادة وأمان؟

هتفتُ وأنا أبتعد عنه دون أن ألتفت إليه:

- لا.. لأن هنا لا يوجد طيب وشرير وقاضٍ يحكم بينهما، اختلط كل ذلك حتى صرنا ككرة صلصال تمتزج فيها كل الألوان!

حييتُ "شهاب" الواقف بالأسفل بكفي إشارة إلى انتهاء الأمر، وألقيت نظرة على المرتبة الهوائية الضخمة التي تفترش مساحة واسعة من الأرض أسفل السقالة.

صرخ "عصام" ينادي "عنبر"، توسل إليها، ناشدها بكل ما هو غالٍ لديها، لكنها لم تلتفت خلفها.. نهائيًا.

***

خبرتي في مجال التسويق أنبأتني أن الفيديو الذي قمت بتصويره ورفعه على الإنترنت سينتشر انتشار النار في الهشيم، وقد فعل بأكثر مما تمنيتُ،

يبدو أنني لم أكن الوحيد الذي قرر أن يُفكر قبل أن يؤمن، كلمات المُقتحِم لمنزل "عنبر" أخبرتني أن هناك الكثيرين ممن جردوا أنفسهم من كل تأثير وهمي، واستطاعوا أن يفهموا خدعة الحاوي، ويسعون لإثباتها.

لم أندم لأنني أخفيت هوية "شريف" و"شهد" و"نيفين"، يكفيني ما تمتلئ به صدورهم من خوف وهم يعلمون أن بيدي شهادة إثبات على دناءة كل واحد منهم. ولم أشعر بذرة ندم واحدة على فضح "عصام" على الملأ دون أن أحذف كلمة واحدة من كلماته التي أقر بها يوم أن تواجهنا فوق السقالة، وأصبح وجهه أيقونة لألعاب الحواة. اختفى "عصام" بعدها ولم نسمع عنه شيئًا..

لا أعرف إن ناله العقاب ممن صنعوه، أم أنهم اكتفوا بأن محوا "إدريس" كما محوا من قبله "عصام".. وأنهم يعدونه ليظهر مرة أخرى.. ظهور مدوي يجذب الأنظار إليه من جديد..

لكن هذه المرة لن تكون أبدًا بسهولة المرة الأولى، لأنهم سيواجهون يومئذ عقولًا لا تؤمن بكل ما تراه، ولا تنكر كل ما لا تراه، عقولًا تبحث وتفكر، تعلمت أن تكشف ألاعيب الحواة، تعد نفسها لثورة وعي، لها تأثير تتابع الأمواج وهي تضرب في سفح جبل الجهل.

لماذا تركوني دون أن يؤذوني؟ لأنه أصبح هناك الآلاف من "ماهر" يرون ما وراء الحجاب.





(٥٣)

عصام، إدريس، .....!

تحسستُ صورتها والشوق إليها يبعثر أركاني، كيف تركتني وحيدًا دونها، كيف تمكنَت من هجراني؟ حرمتني من رؤياها؛ فلم أجد سوى صورتها الحاضرة لأبرر لها:

- كيف نستطيع السيطرة على عالم ليس فيه قيم مشتركة؟ نخلق قيمة ونسعى جاهدين إلى أن يؤمن الناس بها؛ وستكون عندهم أكثر أهمية من الحياة ذاتها، حتى ولو كانت زائفة، يكفي أن يصدقوا أنها ليست كذلك.

أسير وفي يدي حقيبة الرحيل، أحمل فيها ملابسي، أغراضي الخاصة، هويتي، كل شيء يمثلني، إلا قناعاتي فهي الشيء الوحيد الذي لا يمكن للناس رؤيته، لن يروها إلا من خلال ما أفعله بهم، وأقوله لهم، ليس ذنبي إن صدق الحمقى عيونهم وأذانهم دون إجهاد عقولهم في التفكير. نحن نعيش في عالم نضطر لأن نفعل فيه ما يختلف عما نعتقده.

لديهم سعار دائم إلى قدوة يلتفون حولها، إلى قائد يستظلون بسيفه، إلى مجد تصنعه دماؤهم، وينقشه الألم في جوف قلوبهم، يحتاجون إلى الشعور بالانتماء، وهذا ما قدمناه لهم فلماذا تلوميني يا حبة القلب؟!

لو لم يكن نحن لكان غيرنا، لو لم نفتح لهم أذرعنا للهرب لارتموا في أحضان سوانا، هل نسيتِ أنهم فعلوا هذا من قبل وانقسمت بلادنا إلى أحزاب تنتشي بإراقة دماء بعضها البعض؟.. لا يجب أن يخسر الجميع لكي تفوز أنت! لا يجب أن يتلوث الجميع لكي تصير أنت نظيفًا!.. هُراء، في الحياة لا يوجد سوى فائز واحد، حق واحد، وأنا لا أحب الخسارة.

هل نسيتِ ما قرأتيه للكاتب الفرنسي "أندريه جيد": "إغراء الجسد أقل متعة من إغراء العقل والقلب"؟ أتذكر أن كلماته أعجبتكِ كثيرًا، كنتِ

مُحقة فنحن نعيش في "مجتمع الغواية". ألا ترين معي يا غاليتي أننا لو لم نجمع كل هذه العقول الضحلة المستثارة في رابطة نتحكم نحن فيها، لظلوا دائمًا في حالة إغراء تدفعهم نحو رابطة يهربون إليها، تجمعهم وتوحدهم، تعوض كل إخفاقاتهم وفشلهم، يحتمون بها وينتسبون إليها، ويغضون الطرف عن فسادها.

يقسمون العالم أجمع إلى قسمين فحسب، أحدهم داخل الرابطة وهو مصدر للخير، والآخر خارجه وهو مصدر للشك.. ولعادت بلادنا إلى ما كانت عليه من جزر متناثرة في عرض البحر، لا تجمعها الجُسُر.

أخفيتُ صورة ابنتي التي لم أنجبها في حقيبة الرحيل، حملتُ معي روحها ونقاءها وطيب أثرها، تلوح في الأفق أرض جديدة غير التي حملَتْ طفولتي وشبابي، فرَّت من عيني عبرة تلو عبرة، رفعتُ رأسي عاليًا لأستنشق هواءً نظيفًا..

لكنه احتبس في منتصف حلقي.

***



(٥٤)

ماهر

- هل تذكر مسابقة أطول بصقة التي كنا نقيمها في "حوش" بيت جدتي؟

انفجرتُ ضاحكًا على إثر كلمات "شهاب"، ثم قلت لأغيظه:

- نعم وكنت أنت الخاسر دائمًا.

شاركني "شهاب" الضحك وعدَّل من ياقة قميصه وقال مازحًا:

- بالطبع لأنني ابن ناس.

في الماضي كان ليمتلئ قلبي حقدًا من كلماته، لكنني الآن أفكر في أن الكلمات فارغة ونحن من نضيف لها المعنى، هناك حكاية تدور بالخارج، وحكاية أخرى تنسجها عقولنا بالداخل، كلما بدتا أكثر تشابهًا ببعضهما البعض؛ اقتربنا أكثر من الحقيقة الكاملة، إلا أنهما لن تتطابقا أبدًا، لذلك لن يملك أبدًا إنسان احتكار الحق لنفسه.

بيد أننا لا يمكننا أن نحيا دون حقائق مطلقة ثابتة تجمعنا وتوحدنا، ولعل هذا هو سبب كل الصراعات والنزاعات؛ غياب الثوابت.

دنت منا أمي تحمل صينية يهتز فوقها العصير في كؤوسه، نهضت "أروى" تحملها عن أمي، وتتوجه بها نحو عمتي لتقدم لها كأسها، تناولتها الأخيرة وهي تمنحها ابتسامة حنونًا، ثم نظرت نحوي فمنحتني واحدة أنا الآخر، فأهديتها نظرة ممتنة لأنها لم تقطع الأمل يومًا.

قالت "أروى" باستياء:

- عصير طبيعي، تعرفين أنني لا أحبه يا أمي.

فقالت عمتي:

- أنتم شباب هذا الجيل تدمرت حاسة التذوق لديكم، لا أعرف كيف

تتحملون شرب العصائر المعلبة المليئة بالمواد الحافظة المسرطنة.

وافقتها أمي بهزة من رأسها وقالت:

- صحيح ما تقولين، إن لم يكن من أجل التلذذ بنكهة الطبيعي فعلى الأقل من أجل صحتهم.

أمالت "أروى" رأسها نحو "مي" خطيبة "شهاب" وهي تقول:

- أمي وحماتك أجادوا دور "عواجيز الفرح".

شاركتها "مي" في الضحك، لكنني عاتبتها بقول:

- إلزمي الأدب يا بنت.

فقالت بلهجة الناصح:

- "ماهر" كن لطيفًا.

حدقت فيها بمزيج من حنان أب، واحتواء أخ.. انتهى دواؤها بعد فترة ولم نستطع الحصول على جرعات أخرى، فعدنا مرة أخرى إلى نقطة الصفر، لكن هذه المرة كنا جميعًا حولها ندفعها إلى مواجهة الكابوس الذي زرعوه برأسها، لا الاستسلام له. واجهتْ صعوبات كثيرة في البداية، ثم رويدًا باتت أكثر قدرة على التحكم في مخاوفها.. تكرار الكابوس نفسه كل ليلة أكسبها خبرة في التعامل معه، تعرَّفت عليه جيدًا وحفظت تفاصيله، وتعلَّمت كيف تقاومه.

اقتحمت "أروى" أفكاري، همست وهي تشير إلى "عنبر":

- عصفورتك شاردة كثيرًا اليوم، برأيي أسرع بالإمساك بها قبل أن تطير من العش.

انسلت "عنبر" من بيننا بهدوء وتوجهت إلى الشرفة، فنهضت مسرعًا لأزيح عن طريقها مقعدًا غيَّرتُ مكانه منذ قليل.

وقفت بجوارها أستند إلى سور الشرفة، أنظر إلى القمر الذي اكتمل نموه، أخرجت من جيبي مسمارين بلون فضي منثنيًا أعلاهما في شكل حلقتين، قربت طرفاهما عند نقطة أعرف أنها الوحيدة القادرة على



جمعهما معًا، فاتحدت الحلقتان في عقدة لا ينفصم عُراها.. تذكرتُ يوم أهدانا جدي هذه اللعبة، أجلَسني فوق ساقه، وفوق الأخرى أجلَس "عنبر"، فاض حديثه بحكايات قلَّب فيها وعاء الواقع بملعقة الخيال حتى احترنا في التفريق بينهما، حكايات تزرع في أرواحنا بذور الأمل، في الوقت الذي كان الجميع يتحدث عن قسوة العالم وحقارته كان هو يُحدثنا عن الحب، الخير، الجمال المُختبئ خلف كل سحابة، كنا نرفع وجوهنا نحو السماء ونرى بعين الخيال عالمًا أفضل. سرقوا جدي، ثم أرادوا أن يسرقوا منا الخيال.

تنهدتُ بقوة، فالتفتتْ نحوي، قلتُ لها وأنا أتأمل قسماتها:

- كنت أبحث في حياتي عن العنبر فوجدته أخيرًا.

تجاهلت كلماتي وقالت:

- "أمجد" يرسل إليك سلامه، أعجبته هديتك كثيرًا.

أسعدني أن الهاتف الجديد الذي نُروج له قد نال استحسانه، سألتها:

- كيف هو معكِ الآن؟

نطق وجهها بالسعادة وهي تخبرني أنه بحالٍ أفضل، أصبح أكثر تقبلًا لتقلبات الحياة، لكنها أضافت بمسحة حزن:

- لكن "حسن" انتكس.

قلت بدهشة:

- تلميذك النشيط؟!

أومأت برأسها إيجابًا، قالت بكلمات مشجعة:

- لكنني لن أتركه، سأستخدم الصور التي زرعتها في رأسه من قبل.

ثم ابتسمت بمرح وقالت:

- ألم تخبرني أن خلف عقولنا الواعية غرفة كبيرة كجراب "الحاوي"؟

- صحيح.

جلتُ بنظري في غرفة المعيشة المضاءة بضحكات أسرتي، تفيض بنورها على كل شيء، الآن في هذه اللحظة وفي هذا المكان أمسك بلجام السعادة، أعيشها بكل جوارحي. وجدتُ أخيرًا "رابطة الدم" التي أنتمي إليها، الرابطة الأهم التي يجب أن يسعى كل أعضائها إلى الحفاظ على وحدتها.

لكل منا نافذة يطل بها على العالم، ذراتها مُطعَّمة بمعتقداتنا وذكرياتنا وأحلامنا، وأحيانًا تحتاج هذه النافذة إلى تنظيفها مما علق بها ويفسد علينا صفاء الرؤية؛ لذلك كنتُ بحاجة إلى خوض هذه الصعاب، حتى يتجلى أمامي العالم الحقيقي بوضوح.

أخرجت يدي من جيبي، وقد تملَّك مني التوتر وكأنني مقدم على اختبار مصيري، بل هو بالفعل اختبار مصيري، لكن لنقل أنني على الأقل أتوقع النتيجة.

دون كلمة وضعت خاتمًا ذهبيًا في راحتها، تجمدت حركاتها، تحسسته بأناملها، لم تكن أقل مني اضطرابًا، قلتُ إذ كان لا بد من أن يُقال شيء:

- أنا لا أصلح جيدًا لهذه الأمور.

ثم صححتُ بتلعثم:

- يعني.. أقصد الكلام.

ما هذا يا "ماهر" قل للفتاة جملة مفيدة، أطرقت للحظات ثم رفعت رأسي وقلت بجدية:

- "عنبر" أنا لست "ماهر" ذا الثانية عشرة، أنا تغيرت كثيرًا، أقول ذلك لأنني أظن أنك أحيانًا لا تدركين ذلك، كما أنني لست برجل يحلو له أن يظهر كفارس مغوار، ولا أسعى لمجد كبير، ولا لفرصة العمر، ولا أسعى لتغيير العالم، أنا أبسط من ذلك بكثير.

ثم أردفتُ:

- أنا أفعل ما أومن به، ولا أسمح لأي شيء أن يجبرني على أن أفعل العكس، أحب أن أعيش محاطًا بأحبابي الذين أثق فيهم، الثقة عندي هي كل شيء، أمنحهم الكثير من رعايتي واهتمامي، أريد أسرة وأطفالًا



أريهم على ما أومن به، أعلمهم كيف ينتبهوا لما يلقوه في غرفهم المظلمة من صور، أعلمهم أن كل المحاكمات قابلة للاستئناف.

غزا اللون الوردي بشرتها وأنا أقول:

- فهل تريدين مساعدتي في ذلك؟

لم تجب، بل فاجأتني بأن دارت على أعقابها وغادرت الشرفة! كدتُ أناديها لكنني حاولت النظر إلى النصف الممتلئ من البرميل، وهو بالمناسبة أكثر مما يحويه نصف الكوب الممتلئ، على الأقل لم تلقِ بالخاتم في وجهك يا "ماهر".

استرعى انتباهي صوت التلفاز، والصورة الكبيرة التي احتلت شاشته لجاري "الحاوي"، بملابسة الرسمية السوداء، وهو في استضافة إحدى القنوات الكبيرة التي تُبث من استديو خارج البلاد، وفي أسفل الشاشة شريط أحمر يحمل تلك الكلمات: "اعتزال الحاوي الشهير".

رفعت صوت التلفاز، وطلبت من الجميع الهدوء، سأل المذيع عن سبب الاعتزال، فأجاب "الحاوي":

- كثر الحواة ولم يعد لي بينهم مكان، خاصة عندما فاز "الحاوي الكبير" بكل الانتباه!

سأله المذيع عما ينتوي فعله بعد الاعتزال، فأجاب بابتسامة غامضة:

- أنوي الكشف عن كل الخدع التي يمارسها الحواة، لكن اسمحوا لي بالاحتفاظ بخدعتي الأخيرة فلن أكشف سرها لأحد.

فطلب منه المذيع بلهفة وحماس أن يعرض على المشاهدين خدعته الأخيرة.

وقف "الحاوي" وبيده ثلاثة كتب، اقترب من الكاميرا ليرى المشاهدون في منازلهم أنها مجرد ثلاثة كتب عادية من داخلها وخارجها، ثم أخرج مسطرة من ورق مقوى، مفرغة من المنتصف في شكل مستطيل صغير..

طلب "الحاوي" من المذيع أن يختار كتابًا من الثلاثة، ففعل المذيع وقد تسوَّرتْ عينه نظرات الفضول، ثم طلب منه "الحاوي" أن يقلِّــب الكتــاب بين يديه ليتأكد أنه مجرد كتاب عادي، ففعل المذيع بحرص كبير..

أخذ منه "الحاوي" الكتب وأدخل المسطرة في منتصفه، عند صفحة اختارها بعشوائية، ودون أن يفتح الكتاب حرَّك المسطرة إلى أعلى وإلى الأسفل وطلب من المذيع أن يوقفه عندما يرغب في ذلك. عندما أمره المذيع بالتوقف توقفت يد "الحاوي" فورًا عن الحركة وثبَّت المسطرة في مكانها، ثم قال وهو ينظر إلى الكاميرات بثقة ويقين:

- الآن دون أن أفتح الكتاب سأقرأ العبارة التي توقفت المسطرة عندها، من خلال قدرتي على قراءة أفكار الكتب، ونظري الحاد الذي يخترق أغلفة الكتب ويكشف عما تحويه بطونها!

تبادل المذيع مع من حوله نظرات ريبة، أغمض "الحاوي" عينيه بقوة ثم فتحهما على اتساعهما حتى كادتا تخرجان من محجريهما ثم قال:

- "بأيديكم تلونون أحلامكم"!

فتح الكتاب، وتسابقت الكاميرات في الاقتراب من الصفحة التي توقف عندها، ومن العبارة التي تحتل منتصف المستطيل الصغير المفرغ بداخل المسطرة، وكانت الكلمات نفسها التي رددها قبل أن يفتح الكتاب:

"بأيديكم تلونون أحلامكم"!

ضربتُ كفًا بآخر في ابتهاج، لقد كشفتُ الخدعة!

تطلعتُ في وجوه عائلتي لأجد الحيرة ترافق الانبهار.. إلا "عنبر" كانت ابتسامتها ساحرة، فعرفتُ أنها مثلي اكتشفت سر الخدعة الأخيرة.

أسفل المسطرة الورقية، كانت هناك قطعة مطوية، تحمل هذه الكلمات التي اختارها بعناية، شاهدنا المسطرة وهي مفرغة، وقبل أن يغلق الكتاب حرك بإصبعه الورقة المطوية، فانسد الفراغ.. وكان بإمكان "الحاوي" أن يستبدل هذه العبارة بما يشاء من كلمات، قد تزرع أحدها بداخلنا بذور اليأس والقهر والإكتئاب.

***

أرسلتُ برسالة إلى "عنبر" أخبرها أنني أنتظرها في الشرفة، وهي خير من تعلم أنني أكره لحظات الانتظار، ولا سيما انتظار قرارها منذ الأمس، أخذت الخاتم دون كلمة وفارقتني، ماذا أفهم أنا من ذلك؟!

أتت العاصفة وزمجرتْ في وجهي وهي تقول:

- هل نحن مراهقان لنتقابل سرًا في الشرفة؟

أخذتُ نفسًا عميقًا شهيقه وزفيره ثم قلت:

- أليس لديكِ ما تقولينه لي؟

- كلا.

عقدتْ ساعديها أمام صدرها فصحتُ بها وأنا حريص على ألا يسمعني سواها:

- كيف لا لقد أخذتِ الخاتم.

- وضعت الخاتم في كفي وطلبت مني أن أساعدك في تربية أطفالك، ما هذا، هل أخبرك أحد أنني "دادة"؟

طحنت ضروسي ببعضها ثم قلت:

- أظن طلبي واضحًا ضمنيًا.

قالت بعناد وهي تميل برأسها:

- أي طلب؟

- برأيك لماذا يعطي رجل خاتمًا لامرأة؟ ظننتكِ ستطيرين فرحًا.

- نمت وأنت تقرأ رواية رومانسية للمراهقين ثم صحوت لتشتري الخاتم وتقدمه لي ثم تنتظر مني أن أطير فرحًا!

تمتمتُ قائلًا:

- أها فهمت، أنتِ من النوع التقليدي إذًا.

قالت بتحدٍ:

- تقليدية إلى أبعد ما يتصوره تفكيرك، هل لديك اعتراض؟

قلت كمن يتحدث إلى نفسه:

- لا بالطبع ليس لدي اعتراض، حتى لو كان لدي اعتراض فسأحتفظ به لنفسي بالتأكيد.

قالت تشترط:

- يجب أن تمر بكل المراحل التقليدية واحدة تلو الأخرى، وأولها أن تتقدم لي بشكل رسمي.



- كيف، هل أركع على ركبتي؟ "عنبر" أرجوكِ.

- بل تحضر أهلك كما يفعل أولاد الناس مع بنات الناس.

سألتها بحيرة وأنا أمنع نفسي من استعادة الخاتم:

- وإلى من سنتقدم بطلب يدِ سعادتكِ، أنتِ منذ أشهر تعيشين معنا في بيتنا بعدما تركتِ بيت خالكِ.

مرت سحابة حزن بوجهها فعلمت أنني كالعادة لم أحسن انتقاء الكلمات، أصاب ألمها من قلبي ما حرك أشجانه، حتى وددت لو أفضت عليها من حديثه ما ينسيها كل جرح عاشته، وكل درب سلكته من دوني، لم يفصلني عن عناقها سوى جدار من الاحترام وضعته هي. أسرعت بقول:

- أعتذر يا "عنبر"، أنا لم أقصد أن أحزنكِ.

قالت بحزن كشفه صوتها:

- أنت لم تُحزنني، أنا التي لم تتعافَ بعد.

اهتز صوتها وهي تقول:

- لسنوات لم أفارق خالي لحظة، لكنني لا أستطيع أن أتناسى كل ما أعرفه وأتظاهر أن كل شيء كالسابق، لم يعد شيء كالسابق، أرى يديه في أحلامي تتقاطر منهما الدماء.

كم أنتِ قوية يا "عنبر"! تدورين مع الحق أينما دار، لا يشغلك عنه شاغل

معكِ تعلمتُ أهمية امتلاك عقيدة في الحياة. مر بخاطري ما روته لي "عنبر" عن سبب تغيير اسمها واسم خالها، كان لا بد من إخفاء شخصية "عصام" الذي تلوثت سمعته بتهمة السرقة، وولادة "إدريس" الرجل التقي النقي الذي يستحق كل الاحترام والتقدير، ليكون أيقونة وطنية يلتف

حولها الجميع. وأراد أن تكون "عنبر" ابنة له، ابنة يعلم أنه لن يحظى بمثلها أبدًا، لم يهتم إلا برغباته هو فحسب، فجردها من هويتها ومن كل فرد بعائلتها، أخبرها أنها مطاردة يبحث عنها من أرادوا بها وبأبيها السوء، والطفلة الكفيفة التي صدقت كلماته في الصغر لم تفكر لحظة في البحث عن صحتها عندما كبرت واشتد عودها.

أخبرها أن عمي "مالك" مات في السجن بعد أن قُبض عليه ليعرفوا منه مكان إرث أبي، فرفض ذلك وقام بالانتحار. وحتى هذه اللحظة لا أثق كثيرًا إن كان بالفعل أنهى حياته بنفسه، لم أعد أثق بأي مما قاله "إدريس" لـ"عنبر". كان للخلل النفسي الذي يعاني منه أبي، وإحساسه بالخطر دور كبير في انتحاره، أما عمي "مالك" فلم يكن رجلًا يُقدم على هذا الفعل نهائيًا، هكذا قالت لي عمتي.

تذكرت محادثتي مع "شريف" عبر الإنترنت الليلة الماضية، سمحت بتواصلنا منذ اليوم الأول الذي حاول فيه أن يعتذر عما فعل، لكنني أبقيت على مسافة بيني وبينه، خاصة بعد زواجه من "شهد" ورحيله معها برفقة أمها إلى خارج البلاد. لم أخوض معه فيما حدث مرة أخرى، ارتأيتُ أن الوضع الذي أصبح أسيرًا له هو عقاب أكثر من كافي. أما "جميل" فوجَّه كل طاقته لنجاح الشركة، وجعل من نجاحها نجاحًا له، أتاني ذات يوم وأخبرني أنه لم يعد يهتم برأي الآخرين فيه، وهذا أراحه من عناء إثبات نفسه أمامهم.

نظرتُ إلى الفتاة التي أصبحت تشاركني في بيتي وعملي، في فرحي وهمي، قلتُ لها محاولًا تبديد سحابة الحزن التي لاحت في الأفق:

- كيف تنجحن في فعل ذلك؟



هزت كتفيها وهي تسألني بحيرة:

- فعل ماذا؟

- تحولن أي موقف سعيد إلى بكاء وآلام وذكريات ودموع دموع.

ضحكتْ فأشرق الصباح من جديد، فقلتُ:

- فلنعد إلى موضوعنا، ما رأيك إذًا؟

شردتْ عني بعض الوقت ثم فاجأتني بقولها:

- وما دليل حبك؟

شردتُ مثلها، أبحث بداخلي عن أصدق جواب، ثم قلتُ:

- الحب لا يُحاكم، وطلب الدليل من المُحب حماقة. هل تُسأل الشمس إن كان لكفوفها عناق دافئ أم يُنتفع بالأثر؟

أخبرتني وجنتيها المخضبتين بلون الحُب أن كُفوف الشمس مسَّتهما برفق، فعاهدتها بصمتٍ أن أزيد من حرارتهما أضعافًا.

- أين سنتقدم لكِ؟

- في غرفتي بالطبع.

- في غرفتك!

- في غرفتي.

- حسنًا، لكن يجب عليَّ أن أرى أولًا إن كانت أمي متفرغة، تعلمين أنها كثيرًا ما تكون منشغلة في المطبخ.

قالت بمرح وهي تغادرني:

- حسنًا، لكن لا تتأخروا لأنني أنام مبكرًا.

***

في المطبخ وقفت أنقل لأمي وأختي البُشرَى:

- أمي الحبيبة، أختي الغالية أريدكما أن تذهبا معي الآن لنطلب يد الفتاة التي ابتلاني... معذرة، أقصد الفتاة التي أهداني الله حبها.

تركت "أروى" الصحن من يدها ليسقط في الحوض بضجة، لطمت أمي صدرها وهي تقول:

- أقسم بالله أنك ستتسبب لـ"عنبر" بأزمة قلبية، حرام عليك يا "ماهر".

أقبلت "أروى" نحوي تنهرني والماء بالصابون يتقطَّر من يديها:

- "ماهر" كيف تفعل ذلك في "عنبر".

نقلت بصري بينهما وأنا أضرب كفًا بكف، استطردت أمي هامسة وهي تجذبني من ذراعي إلى داخل المطبخ:

- يا بني فكر مرة أخرى، والله لن تجد مثل "عنبر".

ولمزيد من الإقناع قالت وكأنها تبوح بخبر الموسم:

- هل تعلم صينية المكرونة بالبشاميل التي أعجبتك بالأمس، "عنبر" هي التي أعدتها، ولم يساعدها أحد، هل تعرف البشاميل وصعوبة صنعه، إنه ليس سهلًا على الإطلاق، في البداية عليك أن تسخن السمن ثم تقلِّب فيه الدقيق، وهو أمر بالغ التعقيد لأنك إن زدت من مقدار الدقيق ستحصل على عجين، وإن قللت منه...

قاطعتها وأنا أقول باستنكار:



- أمي ألم تعلمك بلاد الإفرنجة أي شيء؟!

لكنها أسكتتني قائلة:

- طيب هل تعرف صينية الرقاق باللحم المفروم التي...

لم أجد حلًا سوى أن أكتم فمها بكفي وأنا أقول:

- أنا سأتزوج "عنبر" لستِ في حاجة لإقناعي بها، سأتزوجها لأنها الشخص الوحيد التي ترى فيّ "ماهر" الذي لا يراه أحد، وهذا الـ"ماهر" لا أريد أن أفقده ثانية، هو بداخلي فقط لأن "عنبر" تؤمن أنه موجود.

سألتني "أروى" بفضول:

- وليس لإحساسك بالذنب لأنها بسببك لا ترى؟

قال قلبي كلمة الصدق:

- "عنبر" لا تؤمن بأنني مذنب... وأنا لا أومن بأنها لا ترى.

التقت أنظار أمي وأختي عند نقطة خلفي، فاستدرت لأجد "عنبر" تستند إلى الجدار وابتسامتها تختلط بعبرتها، لكنها أزالت الدمعة سريعًا وأبقت على البسمة فقط.

ثم قالت عبارة واحدة فتحت لي كل الأبواب:

- يجب أن أسجل اعترافاته هذه على جلده كاعترافات المجرمين ثم أستخدمها في تغليف كتاب وأسميه: قصة حياة "ماهر أكرم سراج".

ما إن سمعتُ منها ذلك حتى شعرت بكلماتها كالمصباح الذي أنار كل الأماكن المظلمة بعقلي! انطلقتُ كالسهم إلى غرفتي وأغلقتُ الباب، نزعتُ عني قميصي وألقيته أرضًا، أزحتُ التسريحة حتى أوصلتها إلى الدولاب

المغطى بالمرايا، وقفتُ أمام إحداها والتفتُ لانعكاس ظهري العاري في المرآة الأخرى.. لا أكاد أصدق أن الإرث المفقود كان معي طوال الوقت!

الرحلة مع أبي.. النوم الطويل.. وآلام جسدي التي ظننت أن شمس المغيب سببها، هنا أخفى أبي إرثه إذًا، بين جلدي ودمائي، بوشم خفي كما اعتاد على أن يوشم جسد "تالا" في معمله، لهذا علمني الأغنية التي تحوي وصفة إظهار الوشم. الآن أصبح بإمكاني أن أعيد للكتب ما سرقوه منها، وللعقول ما غيَّبوه عنها.

يومًا ما سنُلون بأحلامنا واقعنا، مثلما يظهر قوس قزح بعد امتلاء السماء بالسُحب الداكنة.

لم يترك لي أبي إرثًا عاديًا، ولا أعرف من منا الذي يرث الآخر، أراد به أن يدفعني إلى سلوك الطريق ذاته..

طريق الثورة بسلاح العِلم.

تمت بحمد الله


عصير
الكتب